الجزء الأول

سوف أظل عربيًّا

(١)

اختلال القوى القيادية فى الأمة

«بُنَى لا بد وأنك تشعر ـ وقد تفتحت مداركك وأضحيت قادرا على التمييز بين الخير والشر، وعلى تقييم الصالح وفصله عن الطالح ـ بشىء من الازدراء والاحتقار، لذلك الجيل الذى يحيط بك، ويقودك ويوجهك ويفرض عليك الطاعة والاحترام، أرى فى كثير من الأحيان لمحات السخرية الصامتة على مخيلة طلبتى، أبنائى وبناتى، وهم يعلقون على سلوك آبائهم وأساتذتهم، ومَنْ هم فى حكم أولئك».

نعم صراع الأجيال حقيقة أزلية، ولكن ذلك الصراع لم يمنع الاحترام والتقدير، وخلف الصراع توجد رابطة الاستمرارية الثابتة، التى تتعدى الخلاف المؤقت والنسبى لتخلق قصة الإنسان والوجود.

رغم ذلك فعليك يا بنى وأنت تحكم عليهم أن تذكر أولا مدى ما لاقوا وما عانوا، وكيف خرجوا من تلك المحنة التى عاشتها أمتنا، وحملوا هم وحدهم وزرها، وآثارها، ولا تتصور يا بنى أنها محنة جيل واحد، لقد حمل ذلك الجيل الذى تنظر إليه مستنكرًا المآسى المترسبة خلال عشرة قرون على الأقل، لا تتصور أننى أدافع عن هذا الجيل الذى أنتمى أنا أيضا إليه، أنا أعلم ـ وسوف تقرأ ذلك فى صفحات هذه التأملات ـ أن هذا الجيل هو حلقة فى سلسلة طويلة من الأجيال التى تنكرت لتعاليم آبائها الأوائل، والتى خانت الوظيفة الحضارية الخلاقة، التى عهدت بها العناية الإلهية لأبناء هذه المنطقة، أجيال تركت الآخرين يشكلون منطقها وعقلها على المستوى الفردى والجماعى، فأضحت لقمة سائغة فى يد قوى معادية لا يمكن إلا أن تقف من رسالتنا التاريخية موقف الرفض والعداوة.

كم عانيت يا بنى إذ أنظر إلى أولئك الذين من حولى فتجمع نظرتى بين الحب والإشفاق من جانب، والاحتقار والازدراء من جانب آخر، كما تضافرت فى الذات عوامل التمزق، وهل هناك أشد على النفس من أن تحتقر شخصا وتحبه فى آن واحد؟ من أن تزدرى إنسانا وتعطف عليه؟ تسعى إليه بدافع من العاطفة، فإن تركت المنطق بحكم لغته التى لا تعرف سوى الوضعية بجفافها، لم تستطع إلا أن تشعر بالنفور والابتعاد، إنها مأساة جيل كامل، لا يستطيع أن يفهم حقيقتها إلا من عاناها وعاش جنباتها.

لا شك يا بنى فى أنك تنظر من حولك وتسأل نفسك: أين أنا؟ هل أعيش وسط غابة قد امتلأت بالوحوش؟ أم أننى أنتمى إلى حديقة للحيوانات تجرى فى أنحائها كيانات ليست فقط غير عاقلة ولكن مفترسة؟ أم أننى أشاهد مسرحية تتذبذب فصولها، بين الهزل المضحك والجد المبكى؟ ولكنك يا بنى تعيش كل ذلك فى آن واحد، بين طبقات حاكمة قد نسيت إلا أنانيتها، و«ديدان» استطاعت أن تتسلق لتصل إلى أقصى القمة، ولكنها لم تعد تذكر طبيعتها منذ أن تربعت فى كراسى السلطة، وظنت أنها قد اكتسبت خصائص القيادة، وذوى قدرات فكرية انقلبوا إلى مجموعة من الصفاقة، الذين تعودوا الكذب بلا حياء، وقد فقدوا كل وعى بتقاليد الممارسة المهنية، دعنى أهمس فى أذنك أن الطبقات الحاكمة ـ رغم ذلك ـ ليست إلا تعبيراً عن فساد الجسد ورخاوة الإرادة وتعفن الضمير، وكل شعب لا يحكمه إلا من يستحقه، ويعكس جميع خصائصه من ضعف وقوة. علينا أن نعترف أن تخلف المنطق القيادى ليس إلا النتيجة الطبيعية لقصور القوى الفكرية، والمثقفة عن أداء وظيفتها، وإذا كان الحاكم يتقن فن الكذب فليس إلا نتيجة عدم قدرة المجتمع على أن يواجه ذاته بصدق وصراحة، وإذا كانت أمتنا ليست قادرة على أن تفهم حقيقة الموقف الذى تجتازه، فمرد ذلك أن الضمير والوعى الجماعى لم يعد صالحا لأن يخلق ويفرض ذلك الإطار من القيم والمثاليات، الذى هو وحده الصالح لأن يساند ويحكم التدبر والتعامل السياسى.

ترى هل نستطيع أن نفهم كيف أن هناك لحظات فى تاريخ المجتمعات يتعين فيها على المفكر والفيلسوف أن يخاطب رجل الشارع، يثير فيه عناصره النفسية الدفينة، ويدفع من خلال قرع الضمير الجماعى ذلك الرجل العادى ليحيله إلى قوة خلاقة تنطلق فى عملية إيمان بالذات لتصير فيضانا يتحكم فى مصائر الحركة؟ أليس هذا ما فعله

سقراط، وانتهى بأن يقدم ذاته على مذبح الإيمان والتضحية؟ وهل تختلف القصة فى تاريخ المجتمع الإسلامى، ومن خلال أكثر من نموذج واحد؟ لنتذكر ابن تيمية على سبيل المثال! وهذا عالمنا المعاصر يقدم لنا الصفحات الواحدة منها تلو الأخرى! وأين «فيشت» من قصة الثورة فى القيم والأخلاقيات على الأوضاع القيادية المتعفنة؟

أزمة قيم

إن خصائص الكثير من الطبقات القيادية التى تسيطر على مصير الأمة العربية، والتى يتعين علينا أن نتعامل معها تتمركز ـ وبغض النظر عن نسبية هذه الخصائص واختلافها قوة وضعفا، فى مختلف أجزاء تلك الأمة ـ حول متغيرات أربعة:

المتغير الأول: يدور حول طبيعة المنطق القيادى، فهو منطق متخلف، إنه يمثل تقاليد عفا عليها الزمن، ومن ثم لم يستطع أن يستوعب حقيقة التطورات التى تعيشها الأمة، وقد انفصل عن الطبقات المحكومة ليعيش فى أبراج عاجية، تسودها الأنانية والتجمد وعدم وضوح الرؤية.

وقد ترتب على ذلك **المتغير الثانى**: وهو يدور حول حقيقة نراها فى كل مناسبة، ونشاهدها بحزن وألم دون أن نستطيع منها فكاكا، كيف أن هذا النوع من القيادات غير قادر على فهم حقيقة الموقف الذى تعيشه أمتنا، فهى من جانب تبالغ فى إعطاء الأشياء التافهة أهمية لا تملكها، وهى من جانب آخر تمر أمامها الحقائق والوقائع الخطيرة الحاسمة فلا تشعرُ بها، ولا بخطورتها، وإن تنبهت لذلك فكل ما تفعله لا يعدو الصراخ والعويل.

إنها بعبارة أخرى، لا تملك القدرة لا على أن تعطى كل موقف وزنه الحقيقى، ولا على أن تتعامل مع الموقف من منطلق الفاعلية والقدرة الواعية، والسبب فى ذلك لا يعود فقط إلى تخلف تلك القيادات، بل وكذلك إلى نقص ثقافتها السياسية بالمعنى القومى والإستراتيجى.

أما **المتغير الثالث**: والذى يمثل الخطورة الحقيقية فهو الكذب، الذى تعودت هذه القيادات على ممارسته بعناد وصلابة، حتى انتهت بأن تصدق هى ذاتها تلك

الأكاذيب، يساعدها على ذلك خوف من فقدان السلطة، أضحى تقليدا، واستعداداً من المواطن للتملق وقد تحول إلى سلوك ثابت، بحيث صار شرطا أساسيا للحصول على المنفعة التى بدورها أضحت هى وحدها محور التعامل بين الحاكم والمحكوم. إن الوصولية قد وجدت فى كل مجتمع بشرى، وعرفها كل نظام سياسى، ولكن القائد الحصيف، هو الذى يعرف أن لكل شىء موضعه، البعض يعتقد أن الكذب هو تعبير عن الدهاء والقدرة على التلاعب بالموقف، ويتصور أن هذه هى المكيافيلية المثالية، ولكن هناك فارقا بين الخديعة فى معاملة العدو، والكذب فى التعامل مع الموقف، الأول يعنى أخذ الخصم على غرة. أما الثانى فهو تعبير عن عدم الإدراك الذاتى لحقيقة الموقف.

وهذا يقودنا إلى **المتغير الرابع**: الذى هو النتيجة اللازمة والمنطقية لعنصر الكذب، حيث نرى هذه القيادات العربية فى معظمها لا تفهم.. ولا تعرف.. ولا تقبل فن المناقشة، وهى لم تعد ترى فى المناقشة وسيلة للوصول إلى الكمال، وإنما هى أسلوب من أساليب التعبير عن عدم الاحترام. إن عدم تقبل المبارزة المنطقية ليس إلا النتيجة الطبيعية لعدم الثقة فى الذات، وهى لا تقتصر على القيادات التقليدية، بل لقد لمسنا نفس هذه الظاهرة فى أكثر من تطبيق واحد، بصدد العالم المتخصص بالذات وقد أتيحت له فرصة الانتقال إلى العمل السياسى، فإذا به وقد فقد جميع صفات الممارسة العلمية، والتى أساسها الانفتاح الفكرى وتقبل مقارعة الحجة بالحجة، كأساس لتنقية المنطق من الشوائب، ويضخم من هذه الظاهرة نتيجة أخرى منطقية للعامل النفسى المتستر خلف هذه الحقيقة، أى عدم الثقة بالذات، فالقيادات هذه وهى ترفض المناقشة، فإنها إذا فرضت عليها المبارزة المنطقية تنتقل ببساطة وسهولة إلى الإسفاف والبذاءة.

اختلال القوى القيادية

بُنَيّ: لا أريد أن تتصور أننى أسعى إلى تخفيف مسئولية قياداتنا، ولكن علينا أن نتذكر أن التاريخ عرف هذه النماذج فى أكثر من موقف واحد. اختلال القوى القيادية ظاهرة متكررة لأنها حقيقة المأساة التى عاشها ويعيشها الإنسان، ولكن أصالة الشعوب تبرز عندما تعرف القوى الفكرية كيف تعيد تصحيح المسار إزاء الخلل الذى يسيطر على

القيادة السياسية. وإذا كانت هذه هى قصة الوجود الإنسانى فلنقف إزاء نموذجين كل منهما يحمل مذاقه الخاص:

الأول: يقودنا إلى المجتمع اليونانى قبل الميلاد.

والثانى: ينقلنا إلى المجتمع الألمانى فى أعقاب الثورة الفرنسية.

كل من حلل التاريخ اليونانى لاحظ بوضوح مدى تخلف الطبقة القيادية فى مواجهة وظيفتها المقدسة، بينما أفلاطون وأرسطو وسقراط كل منهم بأسلوبه يندد ويهدد ويذكر، هذه قيادات أثينا وإسبارطة تعيش فى عبادة الأصنام، وقد جعلت ممارسة الجنس فى أقبح صوره وسيلتها للوصول وللتقرب إلى الآلهة، وحتى عندما جاء «بركليس» ليسطر صفحة رائعة فى تاريخ الشعوب، لم تكن قصته سوى لحظة استثنائية فى تاريخ مجتمع لم يستطع أن يعد قيادته الحاكمة.

نموذج آخر يعيد القصة، ولكن فى دلالتها الإيجابية: المجتمع الجرمانى فى مواجهة الغزو الفرنسى فى بداية القرن التاسع عشر. إن قصة أمراء المجتمع وقيادته، والواحد منهم يتبارى مع الآخر فى الانحناء أمام قنصل فرنسا الغازية ـ «نابليون بونابرت»، لا يزال يرويها الجميع بخزى وعار. ولكن الفكر السياسى الألمانى رفض إلا أن يقف متكاتفا متراصا مؤمنا بوظيفته التاريخية، يقود ويهدى. ويعلنها حربا ضارية على كل من أصابه الخوف أو الوهن، لم يتردد حتى أولئك الذين جعلوا من مبدأ الدفاع عن النظام القائم محور فلسفتهم، أن يحيلوا لغة المديح إلى أداة للتنظيف والتنقية، ولنترك جانبا «فيشت»، ولنحاول فهم الدلالة الحقيقية لفلسفة «هيجل»، ألم يوصف بأنه فيلسوف الدولة البروسية؟ ومع ذلك أليس هو من خلال قنابله الفكرية الموقوتة الذى قاد إلى بناء الثورة الثقافية الحقيقية، تلك الثورة التى دفع ببراكينها وزلازلها إلى تمزيق الأوضاع القائمة، بحيث كان لا بد وأن تقود إلى خلق العملاق الألمانى الذى لا يزال حتى اليوم يثير الرعب فى قيادات واشنطن؟ وهل يمكن أن نفسر المعنى الحقيقى لبطولة «فيشت» وقصة تحديه للغازى الفرنسى؟ هذا الفيلسوف الألمانى الذى لم يتردد فى أن يقف فى أكاديمية بروسيا المشهورة ليخاطب الوعى الجماعى، وليذكر الطبقة القيادية بواجبها ووظيفتها دون أن يعبأ لا بالجثث المعلقة فى شوارع برلين، ولا بأحكام الإعدام

بالجملة، التى كانت تصدر من بونابرت بمناسبة ودون مناسبة، ولا بضخامة الجمهور الذى وقف يتحدث إليه وما يعنيه ذلك من إمكانية تسرب تفاصيل حديثه إلى الغازى، بل خلال اثنتى عشرة محاضرة متتالية راح يهاجم الحضارة الفرنسية، ويشرح الاستعمار البونابرتى، ويرفض الوجود اللاتينى، ويدعو جميع القوى الألمانية الأصيلة لأن تتكتل خلف القيادات التى آن لها أن تكون واعية لتطرح عن كاهلها تلك البربرية الجديدة.

إن قوة الشعوب ليست فقط فى أن تعرف كيف تخلق قياداتها الصالحة الواعية والقادرة على تحمل المسئولية، بل إن القوة الحقيقية للأمم الخلاقة وللشعوب الحية اليقظة هى فى أن تملك تلك الفئة المختارة القادرة على أن ترتفع عن مستوى الفرد العادى، لتبرز كإرادة للتحدى، مغامرة بنفسها لتصحيح مسارات الطبقة القيادية، ولو على حساب حياتها.

ولماذا نذهب بعيدا؟ أليست هذه قصة تاريخنا؟ هذا التاريخ الذى أضحى يقدمه أعداؤنا وخصومنا على أنه أحاديث ألف ليلة وليلة، وأشعار أبى نواس، إنه عامر بالنماذج التى تعلن ليس فقط عن إرادة التحدى، بل وعن حقيقة ذلك المجتمع على أنه قام على محور واحد: الفئة العلمية المختارة.

إن تاريخنا هو قصة «الأئمة الأربعة» الذين لم يتردد أى منهم فى أن يقف من السلطان (الحاكم) موقف الرقابة والمحاسبة، ولو على حساب حياته وحريته.

إن هذا التاريخ هو أيضا قصة الإمام أحمد بن حنبل الذى تحدى ثلاثة خلفاء، ولم يتردد فى أن يقف وحيدا مهابا يرفض نظرية فكرية كاملة. وليجعل من الرأى العام - فى عالم لم يكن يعرف بعد ما تعنيه هذه الكلمة - قوة تثور على الخليفة العباسى، وتجعله يتراجع وينحنى إجلالا وتقديسًا.

إن ما يعنيني يا بنى هو أن تعود إلى آبائك الأوائل، وأن تقرأ صفحة التاريخ لتعلم أنك تنتمى إلى الأمة المختارة، التى يجب أن تقود الإنسانية، وأن توجهها.

أنت نقطة البداية فى حضارة عصر النهضة الحقيقى، إن النهضة التى طالما سمعت عنها، والتى تحدث أكثر من مفكر بذكر فصولها، لا تزال فى الأفق لم تحدث بعد!!

أنت الذى سوف تخلق هذه النهضة، وليس أمامك إلا أن تعود إلى آبائك الأوائل تسألهم وتسترشد منهم عن حقيقة وظيفة الأمة التى تنتمى إليها، والتى اختارتها القوة العليا لأن تقود الدعوة للعودة إلى حظيرة القيم المثالية، لا تنظر إلى ما حولك، إن الفارس الحقيقى لا يلقى ببصره إلى ما هو أسفل أقدامه، وإنما يتجه ببصره إلى الأمام، إلى المستقبل.

أنت فارس التاريخ، ومنك وبفضلك سوف ينبت ويترعرع تطبيق جديد لحضارة آبائك الأوائل، حضارة سوف تتسع لتفرض على كل وجود معاصر أن ينحنى إكبارا لها.

إن هذا صوت التاريخ.

* * *

(٢)

رسالة إلى القيادة المصرية

«سوف أظل عربيًا»

قصة الفلاح الفصيح مع الرئيس حسنى مبارك

«نعم سوف أظل عربيًا».

العروبة يا بنى ليست كلمة تُطلق أو شعارا يُرفع، إنها قناعة منبعها الإيحاء الداخلى الذى لا يعرف التفسير المنطقى للأشياء، ولا يقتصر على التبرير السلوكى للمواقف، إنها دين يسيطر على المشاعر فيغلفها بوعاء من الانتماء، ليجعل كل نبضة فى الجسد، وكل جزء فى الذات، وكل قطعة من الكيان، وهى لا ترتجف ولا تستجيب إلا لكلمة واحدة، ولا تنطلق منها إلا صرخة واحدة: أنا عربى.

لا بد وأن تتساءل يا بنى: ولكن أين نحن من العالم؟ وأين العالم منا؟ هل «العالم العربى» يمثل قومية سياسية واحدة؟ وهل القومية العربية لا تعدو أن تكون تطبيقا آخر من تطبيقات ذلك المفهوم الذى ساد حضارة عصر النهضة، وسيطر على مفاهيم الفكر السياسى الغربى، والذى انتهى بما أسماه الفقه «الدولة القومية»؟ ومن ثم فلو صح فكيف تنتشر تلك الشعوبيات المختلفة التى تمتد من أقصى المحيط إلى أقصى الخليج؟ كيف يخرج علينا من أبناء مصر ـ الدولة القائد ـ من يحدثنا عن مصر الفرعونية تارة، وعن مصر الدولة البحر المتوسطية تارة أخرى، وأن العرب هم «جرب» تارة ثالثة، بل وعلى لسان كبار مفكريها من أمثال طه حسين. وآخرهم وليس أخيرهم توفيق الحكيم، ليبرر سياسة هى صفحة سوداء فى تاريخ منطقتنا باسم سياسة «كامب ديڤيد»؟ وما هى حقيقة العلاقة بين العروبة والإسلام؟ إن العرب هم أمة الإسلام. والأمة هى

محور الوجود السياسى للمجتمع العربى، فما هى حقيقة العلاقة بين هذه الحقائق المختلفة؟ وقبل أى شيء آخر، ما هى وظيفة العروبة فى نطاق الوجود الحضارى؟

ما الذى يجب أن تؤديه فى عالم القرن الحادى والعشرين؟

التساؤلات تتدافع عندما يحاول الباحث المفكر أن يحدد حقيقة الأوضاع التى تحيط بأمتنا العربية فى نطاق التطور الإنسانى، ونحن بصدد تحديد موضوع ما تمثله الحضارة العربية من قيم وتراث فى قصة الإنسانية، ولكن لن نستطيع أن نجيب على جميع هذه التساؤلات دفعة واحدة، فلنتابعها من منطلقاتها الأولى، الواحد تلو الآخر، وفى ضوء هذا الواقع المهلهل الذى نعيشه.

ولنقدم بحقيقتين:

الأولى: الخوف الذى يسيطر على القيادات العالمية من الوحدة العربية.

ثق يا بنى أن جميع القيادات الكبرى فى هذا العالم الذى نعيشه يصيبها الذعر عندما تتصور أن هذا «العالم العربى» قد يتحد مرة أخرى، وهى فى مخيلتها تتصور أن وحدة العرب تعنى دفعة جديدة للإسلام، لتعيد للذاكرة ما أصاب أوروبا أمام القوات العثمانية وهى تجتاح سهول أوروبا، وتصل إلى ڤيينا وتحاصرها لعدة أعوام، وليقرع الأذهان بالهلع الذى ساد العالم الكاثوليكى، عندما انسابت القوة العربية من سهول إسبانيا نحو وسط فرنسا، حتى إن مؤرخا مثل «توينبى» كتب بكثير من السعادة: «لو كانت نجحت جيوش محمد فى معركة «بواتييه» لكان القرآن الآن هو أساس التدريس فى أكسفورد». وهم لا يستطيعون أن ينسوا غزو قراصنة العرب لروما، واستقرارهم فى كنيسة «سان بيترو» لمدة عام كامل، قبل أن يحملوا عصا الترحال ويعودوا إلى «تونس» بإرادتهم، ودون أى تدخل خارجى، سوى رغبتهم فى العودة إلى أرض آبائهم.

الثانية: عدم إدراك القيادات العربية لحقيقة القدرات التى يملكها الوطن العربى، وما تعنيه تلك القدرات فى صراع العمالقة فى عالم المستقبل: موقع إستراتيجى قادر على التحكم فى جميع العلاقات الدولية، ثروة بترولية ومعدنية وغذائية لن يستطيع العالم أن يستغنى عنها، وعلاقة روحية وقوة جاذبة تسمح لهذا «العالم العربى» بأن يكتمل مع من حوله، وأن يقود جميع دول العالم الثالث، أى العالم الملون ما بين آسيا وإفريقيا.

ـ أضف إلى ذلك ـ ونحن نقبل على عالم سوف تسوده من جديد الروحانيات والعقائد المثالية ـ فإن الأرض التى نعيش عليها هى أرض الأديان، هنا نزلت جميع الأديان. وهنا اتجهت رسل الإله الأعظم للإنسان لتهديه إلى مصيره، وإلى وظيفته الحضارية، ليست أرضنا مهد الإسلام فقط، بل إن المسيحية بدورها دين عربى.

القيادات التى حكمتنا حتى اليوم نوعان: قيادات غير واعية بالمخاطر التى تحيط بنا، لم تعرف كيف تقود السفينة فى بحر متلاطم الأمواج؛ لأنها استخفت بتلك الأمواج، أعداؤنا أكثر وعيا بحقيقة ما نمثل من قوى قادرة على التحكم فى مصير الإنسانية، ثم قيادات أخرى طوعتها القوى الأجنبية فكريا ومعنويا فأضحت تعمل دون وعى فقط لصالحها، إنها والخيانة صنوان، نعم.. يا بنى، نحن فى حاجة إلى رجل: فمتى يبرز هذا الرجل؟ نحن فى انتظاره، ولن يطول هذا الانتظار، ولا يجوز لنا أن نخنع أو نخضع أو نفقد الثقة إزاء الجروح التى تصيب أمتك، والدماء التى تنزف منها، إن كل ذلك ليس إلا إيذانا بأن فترة الخلاص قادمة ـ إن شاء الله ـ وإن ذلك الرجل القائد الذى سوف يسير أمام هذه الأمة فى طريقه إلى البروز، سوف تفرضه الأحداث، وسوف تخلقه المآسى، وسوف ترفعه الآلام إلى مستوى البطولة الحقيقية، التى نحن فى أشد الحاجة إليها.

نعم يا سيدى الرئيس حسنى مبارك، هذه هى لغة التاريخ، وعليك أن تفهمها وأن تعيها جيدًا، هل تدرك معنى الأحداث التى مررت بها؟ ألا تتذكر تلك اللحظات الخالدة والمخيفة، عندما كنت تجلس إلى جوار الرئيس الراحل أنور السادات، وكان الشعب قد اتخذ قراراه التاريخى، وقد انهالت عليكم طلقات الرصاص من كل جانب تعلن أن الأمة قد قالت كلمتها، وأن التاريخ قد أصدر حكمه، وقد آن لتلك الفئة التى لم تعرف كيف تصون الأمانة أن تختفى من الساحة؟

* * *

سيدى الرئيس

لا تعتقد أننى أحاكمك، ولكن كما أن لك حق الطاعة، فلنا عليك حق النصح والتوجيه، وهذه تقاليدنا منذ عهد الفراعنة، هل قرأت سيدى قصة «الفلاح الفصيح؟» لقد كان فرعون آنذاك هو الحاكم بأمره، بل كان يمثل الإله الذى تقمص شخص أحد أبنائه، ولكنه إزاء شعبه هو المصلح والراعى لمصالح أمته، وذلك منذ ستة آلاف عام، فهل عدنا

إلى الوراء؟ ثم جاء الإسلام ليضيف تقاليد أخرى أكثر تقدما وأكثر حنكة. وأحد هذه التقاليد أن من واجب الفقيه أن يقول للحاكم كلمة ينصحه ويرشده، فإن لم يقبل النصح ينذره ويوعده، فإن تمادى فى غيه يرفع عليه سيف العصيان، ويلجأ إلى جميع الوسائل المشروعة لإعادته إلى الطريق السوى، أنت الحاكم، ولكننى الفقيه، أنت صاحب الحق فى الأمر، ولكننى أنا وحدى الذى يعبر عن الضمير الجماعى فى أنقى صوره.

لقد خرجت على عادتى لأجعل حديثى مع القيادات العليا على صفحات الجرائد علانية، ودون مواربة، فليتحمل كل منا مسئوليته، ودعنى أذكرك سيدى الرئيس أنك تقود مصر فى مرحلة تختلف اختلافا كليا عن تلك السابقة التى عشناها فى ظل الرئيس السادات، ولا تتصور أننى أعفيك من الأخطاء التى وقع فيها رئيس مصر الأسبق، وهى على وجه التحديد:

أولا: ترك الرئيس السادات يندفع عقب زيارته للقدس فى عملية تطبيع العلاقات «المصرية ـ الإسرائيلية» بعد أن بدا واضحا أن الجانب الإسرائيلى بقيادة «مناحيم بيجن» لا أمل فيه. إن خطاب هذا الأخير فى الكنيست إعلان صارخ عن مفهوم ثابت لدى الجانب الصهيونى، يجعل كل أمل فى التعامل مع هذا الفريق سرابا خادعا، لقد أثبتت الأحداث أن إسرائيل لم يقدر لها زعيم أكثر تعنتا وأقل صلاحية من هذا الرجل. ورغم أن هذا كان من حسن حظ «العالم العربى» إلا أنه كان عليك ـ وأنت لست فى معمعة المعركة ـ أن تحمى الرئيس السادات من أن يزداد انزلاقا فى ذلك المستنقع الذى كلفه حياته، هذه مسئوليتك الأولى.

ثانيا: ترك باب الانفتاح الاقتصادى وما ارتبط به من فتح أبواب مصر لمراكز المعلومات الأمريكية على مصراعيها، حيث إننا اليوم نعلم أنه لم يعد هناك ناحية واحدة من نواحى العلم بخفايا، وحقائق المجتمع ليست فى يد الإدارة الأمريكية. لقد حدث اختراق مخيف للأمن المعلوماتى، بل وارتكبت بهذا الخصوص الكثير من المخازى، وقد فصلت ذلك على صفحات الأهرام الاقتصادى، وما خفى كان أعظم.

وأنت سيدى الرئيس لا بد وأنك تعلم أن ما يصل إلى القيادات الأمريكية هو تحت تصرف السلطات الإسرائيلية، فكيف وقفت موقف السلبية؟ هذه أيضا مسئوليتك سيدى الرئيس.

ثالثا : ثم ما هو أخطر من ذلك، موقفك بسبب وضع عقل مصر فى السجون تلبية لرغبة أبداها «السيد بيجن»، نحن نعلم أن القوى المسئولة فى مصر فى تلك اللحظة انقسمت ما بين مؤيد لذلك الإجراء المشهور فى شهر سپتمبر عام ١٩٨١ وما بين معارض ورافض له، بل ونعلم أن الرئيس السادات نفسه كان مترددا، وكان يميل إلى عدم اتخاذ ذلك الإجراء الذى لا يتفق مع تقاليد أمتنا العريقة، فكيف سمحت لنفسك سيدى الرئيس بقبول هذا التصرف الذى لم تعرفه مصر فى تاريخها الطويل، ومنذ ستة آلاف عام؟ حتى مذبحة المماليك فى عهد محمد على كانت أخف وطأة، وأقل قسوة من أحداث سپتمبر عام ١٩٨١ .

ولكن لنترك هذه الصفحة ليقول التاريخ فيها كلمته، ولنقف إزاء الحاضر نتساءل عن مغزاه ومعناه الحقيقى. عندما أقبل السادات على سياسة فتح باب الحوار مع إسرائيل كانت أمامه أهداف قومية ثلاثة :

الأول : تخليص أرض مصر من الاحتلال الأجنبى دون الدخول فى حرب هو غير قادر على أن يشنها.

الثانى : إعادة بناء الاقتصاد المصرى، بعد أن تهلهل نتيجة لحروب متعاقبة، ولسياسات متناقضة بدأت مع الستينيات.

الثالث : إعادة تقنين العلاقات المصرية العربية، بمعنى تحديد واضح للالتزامات والحقوق لكل من الأطراف المتعاملة.

والرئيس السادات بحكم معايشته مع جمال عبد الناصر خلال الفترة اللاحقة لحرب الأيام الستة، تعلم ألا يعدد وينوع فى أهدافه، أن يختار هدفا واحدا، وأن يكتل نحو تحقيقه جميع قواه، وهكذا بدأ بالهدف الأول وهو بحكم طبيعته ـ أى الرئيس السادات ـ ثعلب سياسى، ومن ثم يؤمن بمبدأ الإخراج المسرحى فى تنفيذ سياسته، وهكذا جعل من منطلق إعادة تشكيل جميع متغيرات الحياة السياسية فى الداخل والخارج خلفية عريضة لتحقيق هذا الهدف، وقد تحقق ذلك عقب خروج القوات الإسرائيلية من سيناء، ومعنى ذلك أنه قد آن الأوان لننتقل إلى الهدفين الثانى والثالث، فهل أنت يا سيدى الرئيس واع بما تعنيه هذه الحقيقة؟

إن هذا الانتقال يعنى حقائق عديدة، **يعنى أولا**: تغييرا كليا وشاملا فى عناصر الأداة الحاكمة، فأولئك الذين كانوا لازمين، بل ووجودهم ضرورة للتعامل مع إسرائيل، والولايات المتحدة، ونحن فى موقف الضعف والحاجة، بسبب الاحتلال وعدم قدرتنا على التحدى بالقتال ليسوا هم الذين يجب أن يخلقوا قنوات الاتصال، ونحن لم تعد أراضينا ولو فى مجموعها محتلة من قوة أجنبية، بل والولايات المتحدة فى حاجة إلينا لتمكين نفوذها من الانتشار فى المنطقة. الأداة الحاكمة التى تتميز بالرخاوة وحديث الصالونات يجب أن تختفى ليحل محلها قيادة صلبة متقشفة شجاعة، تعرف كيف تتخذ إجراءات التشييد والبناء بلا تردد، وتقبل المغامرة بحساب، **ويعنى ثانيا**: وضع مخطط واضح أساسه ولبنته الاعتماد على الذات، إن مشاكلنا لا يمكن أن تحل إلا بإرادتنا الذاتية، وبقدراتنا الخلاقة، والقادرة على الإبداع، وذلك فى حاجة إلى ديمقراطية حقيقية، وليست ديمقراطية مزيفة هوجاء، ليس لها من هدف سوى إعطاء المسكنات، والديمقراطية فى تقاليدنا ليست حديثا أجوف، إنها سلوك أساسه احترام كرامة الفرد وقدسية القضاء. **ويعنى ثالثا**: وضع حد لتراث كامل من الفساد والإفساد، من الطبيعى أن الرئيس السادات وهو يمثل دور الضعيف الذى يستجدى حقوقه ترك تلك العناصر تخرج بلا ضابط، ولكن هذا الموقف وقد انتهى فقد آن الأوان لوضع حد لهذا الفساد الذى يسيطر على جميع مرافق مجتمعنا المصرى.

انظر حولك سيدى الرئيس، انزل إلى الشارع، وقارن الغنى المخيف والفقر المدقع، واسأل نفسك كيف جمعت تلك الثروات؟ كل هذا يجب أن يوضع له حد.

تقنين العلاقات المصرية العربية هدف ثالث يجب أن يأتى فيكمل الهدف الثانى، وعلينا أن نتذكر أن هذين الهدفين يجب أن يسير كل منهما مرافقا ومتمما للآخر، وأنت تعلم ـ سيدى الرئيس ـ وتعلم جيدا أن هذه الوجوه التى كانت صالحة لتخلق قنوات الاتصال مع مراكز صنع القرار فى تل أبيب ليست مقبولة فى ضوء فلسفة تقنين قواعد التعامل مع القوى العربية، لقد انتهى عهد الانفتاح الاقتصادى، وآن لنا أن نبدأ عصر الانفتاح العربى، وهذا يعنى لغة جديدة ومنطقا جديدا، وبصفة خاصة رجالا جددا، كل عهد له فرسانه، وعليك سيدى الرئيس أن تطبق ذلك بحنكة ودراية.

هل افتقرت مصر للرجال؟ هل أصابهم العقم؟ فلم يعد بها سوى ذلك الطاقم الذى رقص على كل حبل، وغنّى بكل مزمار؟ أليس هؤلاء هم الذين خرجوا يزفون إلينا

التهنئة فى صباح الجمعة ٩ يونيو عام ١٩٦٧ بأن مصر لم تفقد سوى حفنة من الرمال، ولكن النظام باق وهذا هو الأهم؟ ثم عادت نفس الجوقة فى عصر السادات لتحدثنا عن مصر الفرعونية، واليوم تتغنى بالحريات؟ أليس هؤلاء الذين وصفناهم فى مؤلفاتنا بكلمة «عصابة الحقوقيين» هم الذين كونوا الثروات، وبنوا العمارات، وامتلكوا الشقق على النيل؟ فهل مثل هؤلاء سوف يقودون مصر فى عهدها الجديد؟

سيدى الرئيس حسنى مبارك

تخطئ إن ظننت أن هذه اللعبة ـ لعبة المسكنات ـ قادرة على أن تزيل الأمراض. مصر تغلى و «العالم العربى» من حولها برحابة يتنظر، يخطئ من يظن أن هذه الأمة قد دخلت مرحلة السلبية والاستكانة، قوى رهيبة تتحرك فى جميع أجزائها حتى فى أقصى الصحراء، وعلى القادة والحكام أن يعلموا جيدا أنهم إن لم يأخذوا بيدهم مقاليد التطور فسوف تجرفهم الأحداث، وسوف تقود هذه الأحداث إلى عنف. نحن لسنا فى حاجة إليه، وإلى مبالغات نحن أكثر الناس رفضا لها، لقد استيقظ العملاق وتحرك، وعليك سيدى الرئيس أن تكون أكثر وعيا بما يحيط بك فى مصر وخارج مصر، عليك أن تبحث عن آذان جديدة وعيون أكثر تفتحا، ومصر لن تنفصل عن «العالم العربى»، كما أن العالم العربى لن ينفصل عن مصر، ولا تعتقد أن «العالم العربى» هو زيارة لعمان، أو لقاء فى أحد الصالونات بين المسئولين، إنها مشاكل يجب أن تتعامل معها بجدية وصلابة، وقوى يجب أن يوفق بينها بحزم وثبات، وإيمان يجب أن يتبلور فى خطة واضحة، ذات بدائل مقننة، وقوة يجب أن تنفجر فى مغامرات محسوبة مع ما يقتضيه كل ذلك، من كر وفر، وتقدم وتراجع فى إطار واحد متماسك، هى وظيفة الفكر، وهذا ما سوف نتصدى له فى هذه الصفحات، ولكن تحويل هذا الفكر إلى ممارسة هو وظيفة القيادة، وإن لم تتصد القيادات الحالية لذلك فسيعاقب الله الجميع الحاكم.. والمحكوم..

وهذه كلمة التاريخ.

* * *

(٣)

رسالة إلى القيادة المغربية

سوف أظل عربيًا

سيدى الملك

أين المغرب من قضية العروبة

«نعم سوف أظل عربيًا».

وسوف أظل أصرخ بأعلى صوتى مذكرًا أن قوة الإنسان الحقيقية ليست فى أن يسرع بالتخلى عن هويته إزاء أول لطمة نتيجة لتمسكه بذاته الحضارية ، وإنما قوته هى فى أن يزداد تمسكًا ؛ لأن الذات الحضارية لا يمكن أن تتغير أو تتبدل . إنها تولد معنا وتنساب فى دمائنا خلال حياتنا، وتينع مع إيناع شخصيتنا، وتظل - هى وهى وحدها - تمثل استمرارية وجودنا المعنوى عقب اختفائنا العضوى . إنها القوة، منها نستمد الإيمان بالوجود والثقة فى الماضى، والتطلع إلى المستقبل ، أليست هى آباؤنا وأجدادنا الذين تربطنا بهم رابطة الدم والأصل؟ وأليست هى أبناؤنا وأحفادنا الذين سوف يحملون أسماءنا من بعدنا ويواصلون مسيرة الوجود عقب انقطاع حياتنا؟ وإن لم يكن هذه الرابطة التى تخلق قنطرة بين الماضى والحاضر والمستقبل، وهى سندنا فى الحياة، فماذا تبقّى لنا فى الوجود نتمسك به ونستمد منه القوة والشجاعة والهيبة، وبصفة خاصة القناعة بوظيفتنا فى الوجود الإنسانى؟

نعم، اليوم وأنا أواجه ما واجهه من قبل «سولومون» المفكر الألمانى الأشهر فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، وهو يرى أمته العظيمة دولة العبقرية الجرمانية تداس بالأقدام تحت سنابك رعاة البقر، فلا يتردد ويصرح بقولته المشهورة : «سوف أظل بروسيا».

أجد نفسى أعبر عن نفس موقف الفيلسوف الأشهر، ولكن فى مزيج من العنف والضراوة من جانب، والثقة العالية من جانب آخر، فلا أتردد فى أن أرفع صوتى فى وجه حكام وطنى وطبقات المثقفين والمزايدين، عن قناعة وإيمان، دون وجل أو تردد: لن أكون سوى عربى.

نعلم يا مليكى، الملك الحسن الثانى ملك المغرب.

لم أعرفك، ولم يكن لى شرف لقائك، ولم يقدر لى حتى أن أزور دولتك؛ رغم أننى لم أترك شبرًا فى الأرض العربية دون أن أجوسه، وأتفقد جماله، وأتغنى بانتمائى إليه. وقد أبت الظروف والأقدار إلا أن تحرمنى من معايشة منطقة أعرف أنها من أجمل بقاع الأرض، وهى أرض المغرب. قرأت الكثير عن أرضك وأرض آبائك. وأعرف أنها تفوق فى روعتها أرض لبنان الجميلة، وأنها تكاد تذكرنا بسويسرا فى جمالها، وتعدد نماذج مناخها، ولعل هذا هو سر العدد الضخم من السياح الأجانب الذين يجوبون أرجاءها كل عام، وقد قدرتهم الإحصاءات المتداولة منذ عامين بقرابة مليونين سنويًا، وهو رقم ضخم فى عالمنا العربى الذى لا يزال لا يعرف معنى صناعة السياحة، وأعرف تاريخ بلادك العظيمة، وقصة الرجولة التى تنضح فى جميع صفحات تاريخ تلك الأمة، ولكن معذرة سيدى الملك المعظم، فأنا أعرف أيضًا أنك أضحيت ظاهرة فى حياة أمتنا العربية، وفى مفاهيم قوميتنا وعروبتنا السياسية.

ولكن فلنتابع حديثنا على مهل، كلمة كلمة:

(أ) المغرب أحد مصادر القوة فى وطننا العربى الكبير، قوة المغرب ليس فقط مردها الحديث الأجوف المتشنج الذى يبرز على لسان زعمائنا من آن لآخر. فى لغة المزايدات المألوفة، ولكن مرده حقائق مادية ملموسة. أول مصادر القوة هو رجال المغرب، ففى تلك الأرض يوجد الشجعان الصناديد، وإذا كانت ألمانيا تملك بروسيا واحدة، فإن الوطن العربى يملك منطقتين كلاً منهما من حقها أن تزعم بأنها بروسيا العرب. وكلاً منهما تحرس إحدى بوابات الأرض العربية، العراق فى أقصى الشرق، والمغرب فى أقصى الغرب.

فلنستمع إلى بعض صفحات القدرة القتالية المغربية الخالدة كما ترويها أقلام أعدائنا: طارق بن زياد، فتح إسبانيا بقواته المنضوية تحت لواء الإسلام، ليسطر

صفحة من أنقى فصول التاريخ الإسلامى فى عام ١١٥٤م / ٩٢هـ، أعلن عبد المؤمن نفسه خليفة على المغرب العربى ، الذى تكون من مجمل شمال إفريقيا الممتدة من مراكش إلى برقة، والذى يشبهه المؤرخون الأوربيون «بشارلمان»، ثم جاء أشهر سلاطين المغرب «مولاى إسماعيل» الذى استمر حكمه حتى عام ١٧٢٧ ليسجل لنا نموذجًا شرقيًا لأعظم حكام فرنسا التقليدية لويس الرابع عشر. مؤرخو العالم الغربى يشبهونه بحاكم فرنسا؛ لأنه استطاع أولاً أن يوقف جميع الأطماع من حوله سواء الاحتلال الأوروبى أو محاولات التغلغل العثمانى، كذلك استطاع أن يسكت القبائل الثائرة، وهكذا خلق الدولة القوية المتماسكة، نموذجًا آخر يقدمه جوار الثائر عبد القادر الجزائرى ضد الاحتلال الفرنسى، هذا النموذج الذى لم تعرفه أى ملكية أخرى تقليدية فى الوطن العربى ، التى تعودت أن تتحالف بشكل أو بآخر مع المستعمر الأجنبى، هذه النماذج من البطولة والرجولة لم تقتصر على أن تكون فردية ، تطبيقاتها الجماعية أيضًا عديدة، آخرها فى العشرينيات عندما استطاعت القوات المغربية أن تذل الجيش الإسبانى وأن تذيق القوات الفرنسية الهوان فى عام ١٩٢١م. لم تظهر انتفاضة الريف مع عبد الكريم الذى أعلن تكوين جمهورية الريف إلا عندما تتابعت الضربات، وتم التحالف بين إسبانيا وفرنسا، وقد خرجت بريطانيا من معركة شمال إفريقيا بعد أن استأثرت بمصر، ومن ثم اضطر البطل إلى الاستسلام فى خريف عام ١٩٢٦ .

هذه قصص ترويها أحداث التاريخ .

كذلك أرضكم يا سيدى معدة لأن تصير أحد مواقع الانفجار السكانى فى نهاية القرن فى الوطن العربى، البعض يقدر عدد سكان المغرب فى مدى خمسة وعشرين عامًا بأكثر من خمسين مليونًا . أرضكم غنية، فهى صالحة للزراعة، وبها من المراعى ما يعدها لأن تصير أحد مصادر الثروة الحيوانية فى الوطن العربى، لو صح أن أرضكم تحتوى على مليارين من الأطنان من الفوسفات، والبعض يقدرها بخمسة مليارات، فإن هذا يعنى أن بلادكم قادرة على التحكم فى السوق الدولى للفوسفات، بلادكم ذات موقع إستراتيجى متميز، إنها تتحكم فى مدخل البحر المتوسط، وهى تملك شواطئها على كلٍّ من البحر المتوسط والمحيط الأطلسى ، بل إنها الدولة العربية الوحيدة التى تتميز بهذا الوضع الفريد لتذكرنا ـ ولو فى حدود معينة ـ بالوضع

الإستراتيجى لإسبانيا فى الجانب الأوروبى، على أن المغرب تتميز عن إسبانيا فى أنها ـ وهى تمثل نتوءًا فى الحائط الغربى الإفريقى ـ أقرب إلى الأرض الأمريكية من مثيلتها الأوربية إسبانيا.

ولا نستطيع يا سيدى أن ننسى أن دولتك ورغم نُظمها العصرية، وأخذها ببعض التقاليد الديمقراطية الغربية، فهى تعيش حتى هذه اللحظة فى استمرارية تاريخية تعيد للذاكرة تقاليد الدولة الإسلامية العربية، إن قصة أصولك العلوية، وتاريخ مفهوم الخلافة والسيادة الدينية لا تزال تسيطر على كثير من عناصر الإدراك السياسى فى دولتك، وفى عالم أضحى يبتعد تدريجيًا عن عناصر الانتماء التاريخى المرتبطة بذلك التراث السياسى الذى يكاد اليوم يكون قاصرًا على بعض دول الخليج العربى، ورغم أن الجميع يتوقع إحياءً لذلك التراث، وعودة إلى الكثير من تقاليده فى الأعوام القادمة.

جميع هذه العناصر تجعل من بلادكم أحد عناصر القوة والمقدرة فى الوطن العربى لو أحسن استغلالها، ومع ذلك سيدى الملك دعنى أطرح بصراحة وتواضع هذا السؤال: هل أنتم على وعى بحقيقة انتمائكم العربى؟

ولكن لنتابع التساؤلات من منطلقاتها الأولية:

(ب) دعنى سيدى الملك أطرح عليك خمسة أسئلة، كل منها يكمل بعضها، وكل منها يثير من علامات الاستفهام الشىء الكثير، وكل منها يدفع أى ضمير يشعر بانتمائه العربى وبما يعنيه ذلك الانتماء إلى تمزقات لا حصر لها.

أولاً: فى لحظة وعلى وجه التحديد عام ١٩٧٥ خرجت علينا بحديث عجيب طبلت له جميع أبواق الإعلام الغربى والعربى فى آن واحد، وبصفة خاصة فى دول المشرق العربى التى كانت قد بدأت تسرب بطريقة مخططة أحاديث معينة حول خلق قنوات الاتصال المباشر مع القيادات الصهيونية، وقد لعب فى هذا دور خطير مركز الدراسات الإستراتيجية بجريدة الأهرام بقيادة د. بطرس غالى، ورغم أننا كان قد لفتنا النظر إلى ذلك، وقبل ذلك التاريخ بعدة أعوام، بل وأثناء حياة عبد الناصر. مدار الحديث الذى تبرعت به سيدى الملك أنه قد آن الأوان للتفكير جديًا بشأن التعاون بين

النبوغ اليهودى ورأس المال العربى . وقد ناقشنا مقولتك فى حينه ، حيث إن النبوغ اليهودى نبوغ فردى وليس بالنبوغ الجماعى . وإن رأس المال الحقيقى اليوم فى يد الصهيونية العالمية . وما هو فى يد العرب لو قورن برأس المال اليهودى بدا قطرة فى بحر ، والواقع أن هذه المقولة جاءت فى لحظة معينة لتكمل تخطيطًا «إسرائيليّا» دعائيًا يقوم على ثلاثة أسس :

١ ـ التفرقة بين الصهيونى واليهودى .

٢ ـ التفرقة بين القوى الصهيونية المتطرفة والقوى الصهيونية المعتدلة .

٣ ـ التفرقة بين «الدولة الإسرائيلية» فى مفاهيم آبائها الأوائل وتلك الدولة فى مفاهيمها المعاصرة ، وبصفة خاصة مع كتلة ليكود .

فاليهودى يمكن التفاهم معه ، وهو ليس معاديًا للعرب ، والقوى الصهيونية المعتدلة يمكن التعامل معها ، بل ويجب فتح باب الحوار المباشر معها . و«الدولة الإسرائيلية» فى مفاهيم ليكود هى دولة شرق أوسطية . فى هذا الإطار الفكرى الجديد تصير اتفاقيات «كامپ ديڤيد» أمرًا طبيعيًا بل وتطورًا منطقيا . حديثكم المذكور جاء مقدمة لفتح الباب واسعًا لمثل هذا التعامل الفكرى .

والسؤال الذى أسمح لنفسى بأن أطلقه : هل هذا الحديث الذى صدر عنكم جاء بلا وعى ، أم أنه جاء بناء على تخطيط معين ، وقد تم نتيجة لإعدادكم لأداء دور معين فى المنطقة وتطوراتها السياسية؟

ثانيًا : وفى خلال ذلك كانت لقاءاتكم مع الرئيس السادات ولقاءات أعوانكم ورجالكم مع أعوان السادات . وفى كثير من الأحيان بحضور قادة «إسرائيل» . أنت سيدى الملك تعلم جيدًا أنك عراب «كامپ ديڤيد» . ولن أناقشك فى ذلك لو كان عن قناعة ، ولكن ما أسمح لنفسى بأن أطرحه كتساؤل : إن كان الأمر عن قناعة ، فلماذا عقب ذلك تركت الرئيس السادات وحيدًا يواجه العاصفة ، أنت دبلوماسى محنك ، فهل لم تكن تُقدر نتائج زيارة الرئيس السادات للقدس ، وما أعقب ذلك من أحداث؟ وعلى كل ألم يكن من واجبك أن تقف إلى جواره تحميه أولاً من الزعماء العرب ، وثانيًا من نفسه فى اندفاعه فى طريق مسدود ، لن يقوده فى النهاية إلا إلى الهاوية؟ أم

أنك كنت تشارك فى الإعداد لتلك الهاوية وهو جزء أيضًا من ذلك الدور الذى أعد لك سيدى الملك؟

ثالثاً: وعقب ذلك كيف استطاع ضميرك أن يفتح باب الندوة الدولية المشهورة عن المجتمع اليهودى فى المغرب، والتى انقلبت لتصير لقاءً أو تجمعًا لمناقشة التواجد الصهيونى فى المجتمع المعاصر، خمس وثلاثون شخصية صهيونية تمثل «الأحزاب الإسرائيلية» والقوى السياسية فى «الكنيست الإسرائيلى» فتحت أمامهم أبواب مدينة الرباط يجولون فيها ويصولون بكل حرية، ودون أى قيد حتى فى تصريحاتهم، وذلك دون الحديث عن الاستقبال الرسمى من الحكومة المغربية الذى تميز بالحرارة وعدم الشعور بأى حرج من جانب سلطاتكم. وكانت قمة المأساة أن حضر المؤتمر سبعة من المسئولين الرسميين الذين يمثلون حكومتكم، وعلى رأسهم وزير الداخلية السيد البصرى، ثم وزير الدولة السيد أحمد العلوى، المقرب منكم سيدى الملك شخصيًا. وبينما كانت ذكرى المذابح فى أرض لبنان الجريحة لا تزال ماثلة فى الأذهان، كنت أنت تتلقى الدعوة لزيارة إسرائيل. ألا تشعر معنا بأن هذا يعنى تحديًا للمشاعر العربية، وإذلالاً للانتماء العربى، وإعلانًا عن إفلاسه؟ وكيف يسمح لكم ضميركم أن تظلوا على رأس لجنة القدس سيدى الملك؟ أم أنه مرة أخرى جزء من الدور الذى عهد إليكم بأن تؤدوه؟ وقد حان الوقت لإخراج فصل آخر من التمثيلية؟.

رابعًا: وقد جاءت عقب ذلك البرقيات الصحفية تحدثنا عن طلبك الانضمام إلى السوق الأوروبية المشتركة، هل هذا هو الثمن الذى سوف تقبضه مقابل تفتيت التضامن العربى؟ أم أنه عدم قناعتك بالمستقبل العربى؟ وكيف توفق بين طلبك الانضمام إلى السوق الأوروبية المشتركة والوحدة العربية الإفريقية؟ القضية التى تدعو لطرح العديد من التساؤلات، أولاً التسمية ذاتها: الوحدة العربية الإفريقية. ما معنى ذلك؟ هل هى أسلوب لإذابة القومية العربية؟ نحن نعلم كيف أن أحد أساليب النيل من أيديولوجيات القومية تفتيتها باستيعابها فى مفهوم أكثر اتساعًا. وحيث إن هذا الربط لا يمكن أن يدور حول المفهوم القومى، فإنه لا بد وأن يتقلص ليدور حول مفهوم التعاون، ومن ثم فهو إضعاف حقيقى لمفهوم العروبة السياسية. فهل هذا هو الذى تريده؟ أم أنك تريد أن تحيل من وحدة شمال إفريقيا تنظيمًا مستقلاً وكيانًا متميزًا يجب أن يسير بابتعاد عن

وحدة المشرق العربى؟ أليس هذا هو التخطيط الصهيونى؟ والذى يستتر خلف الربط الدائم المستمر بين دول المغرب العربى الثلاث، ودول السوق المشتركة، لخلق الفرقة بين أجزاء الوطن العربى؟ ألا تعلم يا سيدى الملك أن حول هذا الهدف بالذات تتفق أهداف السياسة الفرنسية والدبلوماسية الصهيونية؟

خامسًا: إن أخطر سؤال أسمح لنفسى بأن أتوجه به إليك هو عن سلوكك مع رجال المعارضة الليبية عقب الاتفاق المعروف مع العقيد القذافى، هناك رجال وثقوا فى كلمتك وعاشوا فى أرض المغرب باسم حرية الضمير وحرية الرفض، وحق المواطن فى التقييم، وهى جميعها حقوق أعلنتها ثورتنا الإسلامية، وقدستها تقاليدنا العربية. وأنت تعلم جيدًا أن هذه فى جوهر نظام القيم الذى وضعت أصوله تعاليم القرآن. إنك تحدثنا - سيدى الملك - فى كتابك باسم «التحدى» عن أصولك التى تفخر بها، وهى أصول تعودت احترام الكلمة. وتذكرنا بكيف وعد والدك بأن يقف إلى جوار القضية المشتركة مع الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية، وعلى وجه الخصوص مع فرنسا فى مواجهة ألمانيا، وبر بوعده، واحترم كلمته، وساند القضية حتى إنه كان موضع الإعجاب والإكبار من جميع المسئولين فى فرنسا، وهذه كلماتك يا سيدى أنقلها حرفيًا: «وقد بر والدى بوعده . . وطلب من وزرائه أن يحملوا الشعب المغربى على أن يكون وفيًا لفرنسا ومخلصًا لها . . وكان كل هذا الذى مثل من وجهة نظره قضية شرف لا أقل ولا أكثر . . » نعم سيدى الملك: إنها تقاليد الرجال الشرفاء أوفوا بالوعود، واحترموا الكلمة المعطاة. فماذا حدث؟ وماذا أصاب هذه المبادئ فى إدراك سيدى الملك العظيم؟ كيف سمح لك ضميرك عقب ذلك وعقب أن أضحيت حليفًا للعقيد القذافى أن تسلمه خصومه السياسيين، أولئك الذين تصوروا أن كلمتك جديرة بالثقة؟ وأنت تعلم أن مصيرهم يوم تسلمهم للعقيد لا يعنى سوى شىء واحد وهو الموت فى أسوأ صورة وأشنع نموذج، يعيد إلى الذاكرة التوحش الهمجى للإنسان البدائى؟

ترى أليس من حقى ومن حق أى مفكر يئن باسم الضمير العربى أن يتساءل: ما هو حقيقة الدور الذى تلعبه على مسرح السياسة العربية سيدى الملك؟ وما هى القوى الخفية التى تحدد هذا الدور وتحركك تبعًا لكل موقف؟ تذكر سيدى الملك أن أحد أهداف الاستعمار التقليدية هو تلويث مقدساتنا ورموز نضالنا القومى، ولست أنت

أول من خضع لهذه العملية . ولنتذكر على سبيل المثال حزب الوفد وقصة ٤ فبراير عام ١٩٤٢ التى جعلت جيلاً كاملاً يحكم على أعظم الأحزاب السياسية قاطبة فى تاريخنا العربى بأنه لم يعد يصلح ليقود الحركة الوطنية . وأنت يا سيدى قد سقطت فى الفخ . فهل تسمح لى بأن أدعوك لأن تعيد النظر فى هذه المواقف التى لن تكون لها من نتيجة سوى خلق هوة سحيقة بينك وبين شعبك؟ وتذكر سيدى أننا نعيش عصراً لم يعد فيه موضع للملوك، وإن وجد لهم ذلك الموضع فبشرط أن يعكسوا بصدق وأمانة نبض شعوبهم وأن يستمدوا من إرادة تلك الشعوب شرعية البقاء .

فهل من مستمع؟

* * *

(٤)

رسالة إلى القيادة السورية

سوف أظل عربيًا، نعم سيدى الرئيس.

«نعم سوف أظل عربيًا!»

«إننى أعلم جيدا أن جميع المتغيرات والشواهد التى تحيط بنا تجعل أكثر الناس إيمانا بمستقبل أمتنا يشعر باليأس، ويعترى نفسه القنوط إزاء تعاسة التطور الذى نعيشه، وعندما يُصدر كاتب سورى - أبى إلا أن يغادر أرضه ليفضل المنفى لدى رعاة البقر - مؤلفا له عن الفكر العربى المعاصر بكلماتٍ لأحد من حاورهم، وهو يحاول أن يرصد واقع الأمة العربية الفكرى، فلا يجد سوى هذه العبارات يعلن بها عن قناعاته، «نحن نسير من سيئ إلى أسوأ، وكل يوم يمر هو خير من الحاضر، وكل يوم يأتى هو أكثر تدنيا من هذا الحاضر»، فكيف يستطيع المحلل الناقد أن يهرب من هذا الواقع؟

لأننى أؤمن بوظيفة هذه الأمة التاريخية، إنها هى الأمة التى سوف تقود الإنسانية كما قادتها من قبل، وسوف يأتى يوم فى عالم الغد تفرض فيه نظاما لم تعرفه تلك الإنسانية حتى اليوم. لا يجوز أن يخدعنا ما يحيط بنا من مظاهر العفن: إنها عناصر مؤقتة تخفى جواهر لم يكتمل نضجها بعد، وسوف تختفى إن آجلا أو عاجلا. ووظيفة المفكر الثائر أن يساعد على دفع عجلة التطور فى بعدين: أن يبرز هذه العناصر الضالة ويفضحها ويقدمها عارية، ليعرف كل مواطن حقيقة ما يحيط به من جانب، وأن يعيد الثقة إلى ذاتنا الحضارية، فلا تتهاوى الإرادة ولكنها تندفع فى انطلاقتها أكثر قدرة، وأكثر فاعلية مسلحة بعناصر الإيمان وقوة المنطق.

ولعلك يا بنى تتساءل معى: ما هى هذه العناصر التى تنخر الجسد؟

ما أكثرها، فهى اليوم لا تزال فاعلة فى جميع أجزاء جسدنا القومى، تمنعه من التكامل تارة بوعى، وتارة دون وعى، والقوة الأجنبية التى تعيش فى هلع من احتمالات وحدتنا ترقص فرحا وطربا، وهى ترى كيف أضحت الأرض العربية مسرحا واسعا للعرائس، واللامعقول.

ولكن لنترك هذا الحديث العاطفى، ولنتحدث لغة العلم ومنطق الواقع.

هناك قوى ثلاث تنخر فى جسدنا، وتتسلل فى منطقتنا، لتكون نوعا من السرطان الذى هو وحده قادر على شل الإرادة.

أولها : القيادات غير الواعية.

وثانيها : الثروة التى وضعت فى أيد غير صالحة وغير أمينة على استغلالها.

ثالثها : أهل الفكر الذين خانوا قضية أمتهم وأضحوا أبواقا وظيفتها القيام بعملية الزفة السياسية للحاكم، أو للمستعمر الذى لا يزال ينشب بإظفاره فى جسدنا، لم نستطع بعد أن نزيله كلية عن قدراتها الحقيقية.

تعال يا بنى نتحدث إلى بعض قياداتنا غير الواعية.

ولا بد من حديث ـ لن يغمره إلا الاحترام ـ لأحد قادة المنطقة الذى أضحى اسمه على كل لسان، الرئيس حافظ الأسد.

سيدى الرئيس

دعنى أذكرك بحقى فى أن أفتح قلبى إليك، وإلى النظام الذى تمثله، فهذا النظام تعاملت معه، وبصفة خاصة خلال أعوام ثلاثة، وهى تلك التى انتهت «باتفاقيات كامپ ديفيد» عندما كانت رحلاتى إلى دمشق تكاد تكون شهرية، وأنا لا أجد راحة فى عاصمة أجدادى وآبائى، والتى ربطت بها جهودى وحياتى لأجد فى جنبات «عاصمة الأمويين» الهدوء والطمأنينة ولو لعدة أيام، ولم أتردد ولو مرة واحدة عندما طلب منى أعوانك النصح والإرشاد، أن أسرع إلى دمشق وليس لى رغبة سوى أن أوضح وأفيد، لم يكن ذلك إلا لخدمة القضية التى آمنت بها، ووهبت لها حياتى، وكم من مرة

اقتطعت فيها نفقات إقامتى أو سفرى من لقمة العيش، ومن نفقات أولادى، ولم أتردد فى مثل تلك التضحية، ومؤلفاتى التى أعلنت فيها مواقفى صدرت أهمها فى عاصمتكم الجميلة، بل عندما غادرت القاهرة لأعتزل فى صومعتى بباريس عقب أن جاءنى بعض تلاميذى وأبنائى بالقاهرة ينصحوننى بأن أختفى من مدينة المعز، وقد أصاب حاكمها نوع من الجنون، وأرسل إلى نائبكم خدام يطلب النصيحة، لم أتردد فى أن أقطع المسافة من أقصى غرب البحر المتوسط إلى شرقه بنفس الإيمان ونفس التضحيات.

من هذه المنطلقات وباسم هذه التضحيات أسمح لنفسى بأن أفتح صدرى وأحدثكم على هذه الصفحات بلغة صريحة واضحة لا مواربة فيها.

إلى متى تظل تلعب هذا الدور غير الإيجابى والمخرب فى الوطن العربى؟ هذا الدور الذى ظل خافيا علينا، والذى كنا دائما نتساءل عن حقيقته حتى بدا للعيان واضحا لا غموض فيه فى هذين العامين الأخيرين؟

دعنى يا سيدى أحدد مجموعة من النقاط الأساسية:

أولا: أنا أعلم أنك بارع فى قيادة سفينة السياسة السورية، وأنا واثق أنك تملك الكثير من القدرات على ممارسة لعبة التوازنات الداخلية والإقليمية والدولية، وأنك طموح تريد أن تسجل اسمك فى سجل التاريخ من أوسع أبوابه، وأنك محب لوطنك، لن أشكك فى أنك بحكم شخصيتك ذات المهارة الواضحة ـ والتى اعترف بها كل من تعامل معك ـ تتميز بالنفس الطويل، والصبر الثابت، والتحرك الهادئ، من منطق مبدأ لا تحيد عنه: خطوتين إلى الأمام وخطوة إلى الوراء.

ثانيا: كذلك فإننى لا أستطيع أن أثق فى كل ما يقال عن وصولك إلى السلطة، وعن أنك قد أعددت منذ فترة الوحدة المصرية السورية لتكون أداة لتحطيم القومية العربية، وأنك إنما تخضع لتوجيهات قيادة الطائفة التى تنتمى إليها، وبصفة خاصة منذ قرارها بتاريخ ١٨ يوليو ١٩٦٣ عقب مؤتمرها العام الذى عقد فى حمص، بضرورة التخطيط البعيد لتأسيس الدولة العلوية، وجعل عاصمتها فى حمص.

إننى واثق أن سياستك لا يمكن أن تتجه نحو تحقيق هذا الهدف، وإلا لكنت قد حققته منذ فترة غير قصيرة.

ثالثا: كذلك فإننى لن أدخل فى الاعتبار جميع التصرفات التى تقع من أتباعك وحواريك، والتى أنا واثق إن لم تعلم بها وإن علمت فلن ترضى عنها. فأنت أكثر ذكاء من أن تقبل تصرفات الصغار، لن أدخل هنا فى الاعتبار.. آخر هذه التصرفات وأن أقيم حكمك، وأتوجه إليها بهذه التساؤلات.

عندما منعتنى سلطاتك من الدخول إلى دمشق بدعوى أن جواز سفرى المصرى يحمل تأشيرة عراقية، هل تعلم سيدى ظروف ذلك؟ دعتنى السلطات الليبية لأن أتولى الإعداد لمحاكمة دولية للمسئولين الإسرائيليين عن مذابح صبرا وشاتيلا، وعقب أن درست الموضوع وتناقشت فى تفاصيله مع بعض كبار رجال القانون العالميين، وجدنا أن من المحتمل أن يثار أثناء المحاكمة مسئوليتكم عن أحداث تل الزعتر، ورأينا أن من المناسب عقد اجتماع مع المسئولين لديكم فى دمشق، وأخطر هؤلاء المسئولون بذلك، وتحدد يوم اللقاء فى لجنة مصغرة يحضرها معى أيضا نائب محكمة «رسل الدولية» قادما من لندن واثنان آخران من كبار المسؤولين، ووصلت دمشق فى الميعاد المحدد، ووجدت الباب مغلقا، وتعين علىّ أن أعود عقب ليلة بالمطار، وأنا أحمل جوار سفر ديبلوماسى، من يدرى لماذا حدث هذا؟ هل هو التهرب من المسئولية؟ أم الخجل قد صبغ وجوده رجال حزبكم الذين يتحدثون عن القومية العربية؟ كل هذا أتركه جانبا وأقتصر على رصد الوقائع التى لا تستطيع سيدى الرئيس أن تتخلى عن مسئوليتك بخصوصها وهى:

١ ـ لماذا تم التخلى عن منطقة الجولان فى عام ١٩٦٧؟

٢ ـ لماذا كانت خيانة الفلسطينيين فى عام ١٩٧٠؟

٣ ـ لماذا جرى إحباط الهجوم العراقى على إسرائيل عام ١٩٧٣؟

٤ ـ ما هى حقيقة الخلفيات المرتبطة بالاستغاثة بالجيش المصرى أثناء حرب أكتوبر، والتى جعلت الرئيس السادات يخرج عن الخطة الموضوعة، وما ترتب على ذلك من نتائج منها الثغرة المعروفة؟

٥ ـ لماذا سمحت بمذابح تل الزعتر عام ١٩٧٦؟

٦ ـ ما هى حقيقة أهدافك من قبولك ومشاركتك فى تمزيق الحركة الوطنية اللبنانية؟

٧ ـ أين حدود اللعبة مع إسرائيل بخصوص تجزئة واقتسام لبنان؟

٨ ـ وكيف تفسر الطعنة للعراق بصدد حربه مع إيران، ليس فقط بخصوص محاولة خنق العراق اقتصاديا، بل وتدعيم إيران، والوقوف من جميع محاولات وضع حد للحرب موقف المعارض والمناهض مستخدما فى ذلك جميع إمكانياتك؟

٩ ـ ما هى حقيقة اللعبة التى مارستها فى مواجهة المقاومة الفلسطينية أثناء حصار طرابلس؟ وكيف كنت تخطط لقواتك بتوافق تام مع البحرية الإسرائيلية لاستئصال الوجود العسكرى الفلسطينى وهو ما نجحت فيه؟

١٠ ـ وأين تريد أن تصل من تدعيم التشقق فى الثورة الفلسطينية، التى لم تعد سوى تعبير عن رفض سياسى، ومع ذلك تمد يد العون لتحقيق أهداف الصهيونية العالمية أيضا بذلك الخصوص؟

سيدى الرئيس

أنت تعلم جيدا أن السياسة الإسرائيلية فى المشرق القريب، أى فى الأراضى المحيطة مباشرة بإسرائيل والتى تتمركز حول لبنان وسورية والأردن تقوم على ثلاثة مبادئ. وأن هذه المبادئ قد صاغها «بن جوريون» منذ الخمسينيات. وقد ثبت ذلك بما لا يدع مجالا للشك بعد نشر مذكرات «شاريت» وهى تتمركز حول العناصر التالية:

(أ) خلق الاضطراب والتفتت فى جميع الدول المحيطة بإسرائيل، ودفع عناصر الأقليات فى داخلها لمحاولة تأكيد ذاتية استقلالها تمهيدا لتحويلها إلى دويلات وكيانات مستقلة ومتميزة.

(ب) العمل على إنشاء دولة مارونية فى لبنان تصير حليفا لإسرائيل، ووسيلة لتدعيم مفهوم التواجد غير العربى فى هذه المنطقة.

(جـ) تمكين قنوات التعامل الإسرائيلى مع قوى المنطقة، وبحيث يصير هذا التسلل غير الملموس فى مرحلة أولى وسيلة لخلق الاتصال المباشر الاقتصادى وغير الاقتصادى فى مرحلة لاحقة.

وسياستك سيدى الرئيس قد حققت جميع هذه الأهداف، بما كان لا يمكن أن يتصور «بن جوريون» ذاته فى عام ١٩٥٤ عندما اصطدم «بشاريت» بسبب تخطيطه لمثل تلك السياسة. فالتجزئة قد أضحت حقيقية، والمنطقة لم يعد يعوزها المفهوم الطائفى، حتى فى داخل سورية، وقنوات الاتصال المباشر بين القيادات الإسرائيلية والقيادات العربية أضحت على قدم وساق، ولكن ما هو أخطر من ذلك، أن سياستك قادت إلى ثلاث نتائج أخرى أكثر خطورة:

أولا: أضعفت الجسد العربى فى جميع أجزاء هذه المنطقة. نعم هناك سلاح مكدس، ولكن أين إرادة استخدامه؟ أين التماسك فى أجزاء ذلك الجسد؟

ثانيا: أدخلت قوى غريبة عن المنطقة، لتكون لها كلمتها فى الصراع حول مستقبل المنطقة، هل تستطيع أن تنكر أن الوجود الإيرانى فى لبنان بطريق مباشر أو غير مباشر يمثل متغيرا جديدا، وهو ليس فى صالح الأمة العربية؟

ثالثا: فرض على القوى القومية داخل سورية الانكفاء على الذات، حيث أضحت الأنانية الشعوبية هى المحور الحقيقى للتعامل مع مشاكل المستقبل العربى.

فهل هذا ما تريده سيدى الرئيس فى الزمن البعيد؟

هل القيادة السورية واعية بهذه المخاطر؟

سيدى الرئيس

أنت لا تزال سيد الموقف، قادر بحنكتك على أن تقلب جميع عناصر اللعبة، وليس عليك سوى أن تدع منطقك الصافى ـ منطق التوازنات الذى برعت فى تنفيذه ـ ينطلق مجردا من أى تحيز، طريقك واضح، فهذا المنطق ذاته يفرض عليك العودة إلى مصر أولا، ثم أن تجعل من دمشق والقاهرة قنطرة تربط بغداد بالمستقبل الفلسطينى، هل تدرك سيدى معنى ذلك؟

أولا: تحاصر مصر فى تعاملها مع تل أبيب.

ثانيا: تضع حدا للحرب العراقية الإيرانية.

ثالثا: تخلق التوازن فى مواجهة إسرائيل.

أنت تعلم أن التوازن الحالى لم يعد لصالحك ولا لصالح الأمة العربية، إنه مختل، وفقط لصالح إسرائيل، أليست هذه النتائج الثلاث وحدها كافية لتحقيق آمالك وطموحاتك فى القيادة والسلطة؟ ألا يكفى هذا لتقلب صفحة وتبدأ صفحة جديدة؟ نعم، إننى أعلم أنك أضحيت متحكما فى لبنان، فلماذا لا تجعل هذا وسيلتك لتخلق التوازن أيضا فى مواجهة إسرائيل؟ ولن يتم ذلك إلا بخلق مثلث قوى وقادر على أن يربط العواصم الثلاث: دمشق وبغداد والقاهرة.

القدرة على التحدى هى علامة الزعامة، والقيادة مغامرة، ولعبة التوازنات هى المحور الحقيقى للنجاح فى السياسة الدولية، ألا يغريك كل هذا سيدى الرئيس لأن تلعب هذه الورقة التى قد تختم بها صفحة، لا نزال نتساءل عن حقيقة ما تستر خلفها من أهداف ونوايا؟

ومعذرة سيدى الرئيس من قسوة هذه اللغة، فإيمانى بهذه العروبة هو وحده الذى دفعنى لأن أسطر هذه الكلمات.

* * *

(٥)

رسالة إلى القيادة الليبية

سوف أظل عربيّا

ليبيا إلى أين؟

«وإلى متى سيدى العقيد القذافى تستمر فى سياساتك ؟»

نعم سوف أظل عربيّا

نعم سوف أظل عربيّا ولن أكف عن أن أصرخ بهذه العبارة حتى لو كف الجميع عن التغنى بها وتنكر الجميع لدلالاتها ، إنها جوهر الوجود ومنطق الحياة .

لقد مرت بنا فترات كنا نرى فيها زملاءنا فى العروبة يتنكرون لأصولهم، ويتصورون أن الحديث عن أصلهم التركى، أو عن انتمائهم المزعوم الإسبانى، يجعل الآخرين يعتقدون بصدق هذا القول. إن صفتنا العربية ترتسم على وجوهنا، تخط الملامح ، وتنبض بالخصائص، حتى أن الفرد منا لو نزع ملابسه وبدا عاريًا فإنه لن يستطيع أن يخفى أصله العربى وانتماءه إلى ذلك العالم الذى يهرب منه .

ولكن لماذا الهرب؟ هل الهزيمة كما حدث فى عام ١٩٦٧؟ أو التقاعس كما سجلته أحداث لبنان ١٩٨٢؟ وهل هذا الهرب يعنى أن الهزيمة لم تعد لصيقة بوجودنا؟ الرجولة هى أن نتعلم من الهزيمة. أليست السياسة هى أن تقع وتقع ثم تسقط وتسقط ولكنك تعود دائمًا فى كل مرة لتقف على أقدامك من جديد، وتبدأ المسيرة من جديد، حتى لو استندت إلى خصمك وعدوك لتعود منتصب القامة لتستمر فى قصة الكفاح، تكتب فيها صفحة أخرى بقوة ثباتك وصدق إيمانك؟

تعلم من الخبرة ، هذا هو جوهر العمل السياسى .

نعم يا سيادة العقيد معمر القذافى ، الممارسة السياسية هى أخطاء علينا أن نتعلم منها، وشطحات علينا أن نعى معناها ، وسقوط علينا أن نتخطاه بوثبة عملاقة صادقة ومؤمنة .

ولكن لماذا نبدأ بالنتائج ولا نجعل منطلقنا المقدمات؟!

(أ) مما لا شك فيه سيدى العقيد أنك تمثل ظاهرة فى عالمنا العربى ، ظاهرة لم تفهم ولن نستطيع فهمها ، إلا بكثير من المعاناة ، وذلك دون الحديث عن تبريرها .

فهذا العالم الذى نعيش فيه ـ أى العالم العربى ـ هو عالم التناقضات .

وأنت سيدى العقيد ونظامك تعكس بدرجات عميقة هذه التناقضات ، ولكن ألا تتفق معى أن هناك من التناقضات ما لا يستطيع أى محلل أن يتجاهلها ، مهما بلغت به روح التسامح؟ تناقضات يجب أن تقف إزاءها بكثير من الحذر ، بل والريبة ، حيث إن تلك التناقضات تلغى منطق الحركة ذاتها ، إن لم تكن سببا فى تشويه الحركة ودفعها بعيدا عن هدفها الحقيقى ، بل وبحيث تقود الحركة إلى تفتيت مقوماتها ، وخلق التسيب فى عناصرها؟

ولنبدأ بتسجيل مجموعة من الحقائق .

أولى هذه الحقائق ترتبط بلحظة اندلاع الثورة الليبية . الثورة الليبية تعود إلى أواخر الستينيات فى سبتمبر ١٩٦٩ . لم يكن قد مضى على هزيمة حزيران يونيو ١٩٦٧ أكثر من عامين عندما استيقظت العقول لتكتشف كيف أن كلا منا ساهم بدرجة أو بأخرى فى تلك المأساة التى كان على العالم العربى أن يدفع ثمنها غاليا ، قيادة مندفعة ، وأعوان منتفعون متسلقون ، ثم مفكرون انقلبوا ليؤدوا وظيفة المهرج فى البلاط ، لم يكن العقل العربى قد اكتشف بعد عمق المأساة إلا منذ عدة أشهر ، على وجه التحديد عندما بدأت حرب الاستنزاف ، ورأت تلك العقول الواعية ولمست كيف انتهت هزيمة حرب الأيام الستة بأكثر من استعمار واحد ، استعمار صهيونى فى الأراضى المحتلة ، واستعمار أمريكى ، وقد بدأت تتوالى القناعة بأن علينا أن نسعى راكعين إلى واشنطن ، لترفع عنا جزءا من المأساة ، وذلك لو افترضنا على أنها أهم مظاهر الخنوع والتبعية ، و «استعمار» سوفياتى مرده الحاجة إلى الدفاع عن الذات .

فى ذلك الإطار النفسى انفجرت ثورة سبتمبر وهى تعلن أنها لم تكن مجرد انقلاب عسكرى، أو تغيير فى أداة الحكم، أو إعادة لتشكيل نظام سياسى، بل إنها تملك إطارها الأيديولوچى الذى يجعلها تمثل استمرارية ثابتة مع القدرة المصرية السابقة على هزيمة ١٩٦٧، إنها تعلن بصراحة أن تلك الهزيمة لم تمنع من أن جوهر ثورة يوليو يمثل الأمل فى مستقبل التماسك العربى.

كذلك، وهذه الحقيقة نعترف بها، فإن الثورة الليبية أعطت تلك الدولة فاعلية لم تكن تملكها ليبيا حتى الستينيات، لم تكن تمثل أى كيان سياسى، ولم يكن ينظر إليها إلا على أنها أرض فضاء قد فرغت من كل فاعلية سياسية. خلال فترة الخمسة عشر عاما التى تلت استيلاء العقيد القذافى وأعوانه على السلطة استطاعت ليبيا أن تحتل مكانة معينة فى نطاق التعامل الدولى، فهى قد أمنت حدودها الجنوبية، ووضعت حدا لأن تكون تلك الحدود هدفا سهل المنال. وهى قدمت مساعدات معينة للحركات الإسلامية، وانطلقت بهذا الخصوص من مبدأ تصدير الثورة، الذى سوف يتلقفه الخمينى فيما بعد، وسوف يجعله أساس تعامله مع الوطن العربى، وهى قد حاولت تأمين وتوسيع نفوذها فى حوض البحر الأبيض المتوسط فى إيطاليا وفى مالطة على وجه الخصوص، وبغض النظر عن النجاح أو الفشل فإن أكثر من سياسى واحد لم يتردد فى أن يهاجم على صفحات الجرائد اليومية الحكومة الإيطالية والقيادات الإيطالية إزاء الاستسلام للغزو الليبى المقنع.

أضف إلى ذلك أننا لا بد وأن نعترف بأن الثورة الليبية حاولت أن تصبغ وجودها بأهداف اجتماعية وفكرية تعبر عن تصور جديد وغير معتاد للتراث الإسلامى.

المشكلة بالنسبة للعقيد القذافى، هى البحث عن عناصر التخريب فى التناسق الأصيل، الذى بدأت به وانطلقت منه الدعوة الإسلامية، وهو يبحث فى تعاليم القرآن عن تلك المتغيرات التى تقود إلى إفساد الجماعات بحيث يستطيع بناء إطار واضح للتعامل الاجتماعى والاقتصادى، ورغم أنه يعلن أن الدين ما هو إلا تأكيد لقانون الطبيعة، إلا أنه ينتهى بالقول بأن الإسلام هو نظام للتنقية والوصف أكثر منه لوضع قواعد الممارسة ومحاولة الإخلال بتلك القواعد، وهو عقب قفزات متعددة ينتهى لتأكيد أن الديمقراطية ليس مجرد إجراء حكومى أو انتخابى، وإنما هى تجمع الجماعة لتصير مسئولة عن نفسها، ولتحدد هى بذاتها أسلوبها الرقابة والعقاب.

لسنا فى مقام تقييم هذه الفلسفة، أو مناقشتها، ولكننا نعلم أنها محاولة للاجتهاد، وتقاليدنا تأبى علينا إلا أن نحترم أى محاولة بهذا الخصوص، حتى لو تضمنت الكثير من الشطحات.

أمر آخر يجب أن ندخله فى الاعتبار، ونحن نتحدث معك على هذه الصفحات سيدى العقيد أنت تقول: إنك زعيم ثورة ولست فقط رئيس دولة، أنت قائد حركة سياسية ولست مجرد حاكم أمة، ولو كان علينا أن نحدثك كرئيس دولة أو كحاكم سياسى لما كنا قط تطرقنا إلى مسئولياتك الفكرية والتزاماتك القومية، ولكننا نعلم أنك لست فقط قائد ثورة بل تعلن نفسك خليفة عبد الناصر، وأنك تسير على نهج ثورة ٢٣ يوليو، وهى من أكبر الحركات القومية الوحدوية فى تاريخ المنطقة، وبغض النظر عن فشلها من عدمه فهى التى أيقظت المد القومى، ودفعت به إلى آفاق ما كان أحد يحلم بها أو يتوقعها، فقط من هذا المنطلق تسمح لنا بأن نفتح صفحة الحساب، ونطالبك بمراجعة المواقف وتصحيح الأخطاء.

هذه جميعها حقائق نبدأ فنسلم بها، وهى جميعها نقاط إيجابية لصالح ثورة الفاتح ولقائدها، ولكن السؤال الذى نطرحه حاليا، والذى يمثل فى قناعتنا أخطر محور للتعامل مع القيادات العربية المسئولة وهو التالى: أين الوحدة العربية فى حركتكم؟ ماذا فعلت تلك الثورة فى سبيل تدعيم مفهوم القومية العربية؟ إن هذا هو جوهر منطق التعامل، وعلينا عندما نناقش أى واقع سياسى أن نجعل نقطة البداية هى هذا الجوهر، لا يجوز أن نقتصر على الملامح الخارجية، ولا يجوز أن تخدعنا المعارك الجانبية، وعلينا أن نذكر القارئ بأننا ـ نحن دعاة القومية العربية ـ قد درجنا على عدم الثقة فى أساليب ومخططات القوى الأجنبية. نحن نعلم أن وحدتنا سوف تهدد المصالح الأجنبية، وهى مصالح ضخمة بعيدة المدى، ونحن نعلم أيضا أن أساليب هذه القوى تنبع من مفهومين: ظاهرها البراءة بحيث لا يشك الواحد منا فى المنطلق التخريبى، الذى تنبعث منه عملية الاختراق، وهى تأتى من حيث لا نتوقع، من كان يتصور أن جامعة الدول العربية، هى موجة خلقتها وامتطتها الدبلوماسية البريطانية؟ ومن كان يستطيع أن يصدق أن الدعاية البريطانية فى مصر ـ وبقصد تشويه العقل المصرى القيادى ـ كانت تنشر باللغة الفرنسية وفى صحف مولتها وأعدتها لهذه الغاية السفارة البريطانية؛

لأن الطبقة المثقفة فى مصر آنذاك كانت تتكلم باللغة الفرنسية؛ لأن هذه هى لغة الطبقات المثقفة فى مصر، وذلك فى وقت كانت فيه الأمة العربية لا تمثل إلا أهمية محدودة، فما بالنا اليوم وقد أضحت الأرض العربية محور الصراع الدولى؟ وقد تقدمت إمكانيات التغلغل فى العقول والأفئدة وفى تطويع القيادات؟ نعم إن قلاعنا مهددة من الداخل، قبل أن تكون موضع تهديد من الخارج، هذه أيضا حقيقة يجب أن نقف إزاءها بكثير من التأمل.

(ب) التطور الوحدوى يملك مقدماته ومتطلباته الأساسية، وهى تدور حول ثلاثة متغيرات أساسية لا يمكن التخلى عن أى منها:

أولا: التحول الديمقراطى الذى أساسه تدعيم كرامة الفرد، واحترام حرياته، وتعميق ثقته فى ذاته، فالتطور الوحدوى هو تعبير عن المفهوم الديمقراطى على المستوى الجماعى، الذى بدوره لا يمكن إلا أن ينطلق من نظرة شاملة لاحترام الكرامة الإنسانية.

ثانيا: الغزو الفكرى والأيديولوچى منطلق من مبادئ مبهمة غامضة مجهولة، ومفاهيم فضفاضة لا تصلح إلا للغة الغوغائية تستهدف النيل من ذلك الجوهر المحدد الذى تنصب عليه الحركة وهو خلق الإرادة الواحدة.

ثالثا: خلق الترابط بين القوى المؤمنة والمساندة فى حمل راية الصراع فى سبيل تحقيق الوحدة، وبغض النظر عن أى اعتبار آخر، الوحدة هدف حركة، ومن ثم فحتى تتحقق الوحدة يجب أن تختفى جميع الأهداف الأخرى، أو تنتقل إلى المستوى الثانى للتعامل السياسى، الوحدة رداء يجب أن يجمع ويحتضن كل من آمن بها، حتى ولو خالفنا فى بعض عناصر التصور والإدراك السياسى غير المرتبط مباشرة بمفهوم الوحدة.

نحن نسلم بأن الحركة الوحدوية ليست هى الحركة القومية، كلاهما يختلف عن حركة التحرر السياسى، ورغم أنه فى الواقع العربى نجد هذه المفاهيم الثلاثة تتعانق فى آن واحد حيث القومية العربية تفرض وحدة المجتمع العربى، وحيث لا يمكن تصور الدفاع عن القومية العربية دون جعل نقطة البداية هى عملية تحرير جميع أجزاء الأرض العربية التى تدنسها الأقدام غير العربية، إلا أننا حتى لو قبلنا فرضا أننا سوف نستبعد

من حديثنا القومية العربية وعناصرها، ونقتصر على مفهوم الوحدة العربية وعناصرها، فهل نستطيع أن نفهم سياسة الرئيس القذافى منذ وصوله إلى السلطة، وبصفة خاصة خلال الأعوام الخمسة الأخيرة وحتى هذه اللحظة؟

تساؤلات فى محلها

لا نريد أن نناقش جوهر فلسفة العقيد القذافى، فهو أولا رجل حركة، وعليه أن يبتعد عن الفلسفة ومشاكلها، ولا يجوز أن تخدعه تلك المجموعة من الصفاقة والمتسلقين الذين أحاط بهم نفسه ليزينوا له قدراته الفكرية والتنظيرية، ولعل هذا يدخل فى دائرة تلك المسرحيات التى تدعو إلى الضحك أكثر منها إلى البكاء، والتى ارتبطت بالثورة الليبية منذ مراحلها الأولى، نحن لا نشك فى نقاء الثورة الليبية منذ مراحلها الأولى، ولكننا لا نزال نتساءل عن حقيقة ذلك النقاء؟ بل ونطرح بخصوصه أكثر من استفهام واحد: خمسة أيام عقب الثورة وهذا الرئيس «بومدين» يشد رحاله إلى بنغازى، ينقل إلى القادة الجدد تأييد الثورة الجزائرية، ومع ذلك لم تمض عدة أشهر على تلك الزيارة إلا وطرابلس تعلن أنها لن تحضر مؤتمر وزراء اقتصاد بلاد المغرب، والذى كان يهدف بناء المغرب العربى الكبير، لماذا؟ لم يمض على ذلك وقت كثير ليعلن القذافى فى أكتوبر فى عام ١٩٧١: «لقد آن الأوان لأن تكلف الجزائر نفسها بأن تحدد موقفها، إن سلوكها بخصوص الوحدة العربية ومعركة المصير موضع شبهة».

علاقات القذافى بالرئيس «بورقيبة» لم تخرج عن هذا الإطار من الاستخفاف بكل مقدسات التقارب العربى. الحوار العلنى الذى شهدته تونس أثناء زيارة القذافى لها والذى دار بينه وبين الرئيس «الحبيب بورقيبة» ظل موضع الهزء والسخرية من الصحافة العالمية ولفترة غير قصيرة، أما عن أحاديث الرئيس القذافى فى الاتحاد الاشتراكى فى مصر، أثناء محاولات الوحدة خلال فترة حكم السادات فهى معروفة وليست فى حاجة إلى تفصيل.

ولكن لنقتصر مؤقتا على موضوعنا: التصور الوحدوى فى سياسة ليبيا الثورية.

(ج) لو عدنا إلى المقومات التى بدأنا بها كعناصر أساسية للتطور الوحدوى لما وجدنا موضعا لأى منها فى تطور السياسة الليبية.

السياسة الليبية عملت على أن تنقض على كل وجود ديمقراطى فى المجتمع الليبى، بل إنها انتهت بأن دعمت من حكم الغوغائية، واستخدمت تلك الغوغائية وسيلتها للتمويه على الأهداف التى كانت يجب أن تسيطر حقيقة على سياستها، ولم يعد من الممكن أن نبرر ذلك، بأنه عدم خبرة أو سطحية أو سذاجة فى التعامل، لقد أثبت العقيد القذافى أنه يملك الكثير من الحنكة، وقد برز ذلك واضحا فى تعامله مع فرنسا، ليس فقط حيث استطاع أن يخلق التناقض بين السياسة الفرنسية والسياسة الأمريكية، بل إن الرئيس القذافى استطاع أن يوقع الرئيس الفرنسى «ميتران» فى مطب، لم يخرج منه حتى هذه اللحظة، فالتظاهر بالسذاجة والبراءة لم يعد قادرا ولا كافيا لتبرير الأخطاء.

ولعل هذه الملاحظة تدعو إلى طرح تساؤل آخر. ما هى حقيقة هذا الإطار الفكرى والأيديولوجى، الذى تنطلق منه الثورة الليبية؟ الحديث عن الإسلام ليس موضع مناقشة، ولكن الخلط بين المفهومين هو الذى يطرح التساؤلات، كل من هذين المفهومين له مقوماته وله مستواه، إن الوحدة القومية هى الترابط بين أجزاء الوطن الواحد فى مواجهة أعداء ذلك الوطن حتى لو كانوا مسلمين، والإسلام هو الانتماء الدينى فى علاقة أفراد تلك الجماعة بالقدرة الإلهية، حتى لو كان بعض أعضاء الجماعة لا ينتمون إلى ذلك الدين لو تم دفع الإسلام ليشوه مفهوم العروبة، وكذلك تم دفع مفهوم العروبة ليشوه مفهوم الإسلام، وهو تعبير عن نقص فكرى، ولكنه ينتهى بإضعاف الدلالة الحقيقية لكل منهما، إن الخلط بين المفاهيم لا يمكن أن يكون إلا مصدره الجهالة أو سوء النية، وقد آن الأوان لنفهم بوضوح كيف أن أحد أساليب الاستعمار الفكرى والتسميم السياسى هى إذابة العروبة فى مفهوم الإسلام، لقد حطمت قديما الوحدة الإسلامية باسم العروبة، واليوم يسعى خصومنا بإذابتها فى الإدراك الإسلامى، وقد أثبتت السياسة الليبية استعدادها لأداء تلك الوظيفة بلا وعى، عندما خرجت أخيرا تحدثنا عن مفهوم الوحدة العربية الإفريقية، ورأينا فى موضع سابق كيف أن ذلك يحيل مفهوم الوحدة إلى نوع من التعاون الدولى، كذلك فإن الحديث عن الوحدة الإسلامية التى تتعدى التضامن القومى، يحيل هذه الوحدة إلى نوع من التعاطف الروحى دون أن يرقى إلى الرابطة السياسية التى تغلف الانتماء القومى، وهل قامت الوحدة الإسلامية التقليدية التى عرفتها أمتنا فى تاريخها العربى

القديم بقتل التعدد اللغوى؟ على أن الأمر الأكثر خطورة ونحن بصدد الثورة الليبية ـ وهو ما يزيد من ملامح التناقض والتفسخ فى هذا الإطار الفكرى ـ أن قادة هذه الثورة يزعمون عن قناعة بأن مدركاتهم يستمدونها من الأصول الفكرية لثورة عبد الناصر! فهل مفاهيم عبد الناصر كانت تشكك فى هذه الأولويات؟ وهذا يقودنا إلى نتيجة ترتبط بهذا الإنفاق الغريب للثورة العربية فى غير موضعها. المال الليبى ينفق فى كل مكان، إلا فى تلك المواضع التى كان يجب أن ينفق بخصوصها، بناء مطار دولى فى «جرينادة» ليستطيع استقبال الطائرات السوفياتية المحملة بالسلاح، المعونات السخية للحركات الثورية فى السلفادور، تقديم الهبات للثوار فى أيرلندا، هذه ليست إلا بعض النماذج.

ولكن دعنى يا سيدى الرئيس وباسم هذه العاطفة أن أحدثك عن الأخطاء التى وقعت فيها، وقد يكون لذلك آثار وخيمة فى المستقبل، واسمح لى سيدى الرئيس أن أحدثك بصراحتى المعتادة، وليس لى من هدف سوى المصلحة القومية، التى هى وحدها حلقة الوصل بينى وبين أى زعيم عربى، والتى هى وحدها تمثل معيار التقييم لأى سياسة عربية.

أولا: لماذا تبذير نقود أمتك فى غير صالح أمتك؟

ثانيا: ولماذا إهدار كرامة أبناء وطنك وإذلالهم؟

ثالثا: وما معنى هذا التهريج الذى تمارسه فى نظامك السياسى؟

رابعا: ثم كيف تفسر سياستك مع طهران، وبصدد الحرب العراقية الإيرانية؟

فلنسرع بأن نصفى الأمور الثلاثة الأولى، قبل أن نقف أمام المتغير الرابع الذى يمثل وكما قلت لكم شخصيا ومباشرة فى أكثر من مناسبة واحدة: إنه يمثل كارثة حقيقية فى تاريخ أمتنا العربية.

أول عناصر النقص فى سياستك ـ سيدى الرئيس ـ أنك تبذر نقود أمتك فى غير موضعها. فأنت تنفق على كل مدع بالثورية، وعلى كل حركة تتصف بأنها تسعى إلى خلق الاضطراب فى النظام الدولى، أعلم أن هذا يصدر عن قناعة منك، بأنك كما قلت للصحافى «حاميد بإرادا» فى لقائك معه، والذى نشر فى كتاب يحمل اسمه،

بأنك تعتبر نفسك «معارض على المستوى العالمى»، ولكن هذا لا يعطيك الحق فى تبذير نقود أمتك تارة على نيكاراجوا، وتارة أخرى لمساندة ثوار أيرلندا على سبيل المثال.

إن دخل بلادك وصل فى أقل تقدير إلى عشرين بليون دولار سنويا فكيف لا تتحول هذه الثروة إلى مقدرة حقيقية. إن عدد سكان دولتك الحقيقيين لم يتجاوز المليون ونصف فى كل تلك الأرض الشاسعة، فماذا فعلت بكل ذلك خلال ستة عشر عامًا؟ المجتمع الإسرائيلى فى خلال المدة نفسها تقريبا وبأقل من هذه القدرة المادية رغم جميع المساعدات، وبثلث عدد سكان دولتك استطاع أن ينتهى فى عام ١٩٦٧ لأن يفرض الهزيمة على ثلاثة أقطار عربية، فماذا فعلت أنت يا سيدى؟ دعنى أذكرك يا سيدى أنك بهذا إنما تخدم أعداء الأمة العربية.

إن تحديات الأمة ثلاثة:

أولها: الوجود الإسرائيلى.

ثانيها: التخلف

وثالثها: بناء الإنسان العربى. فماذا فعلت بهذا الإمكانيات التى لا حدود لها؟ وتذكر أن جميع القوى الدولية تعمل جاهدة على أن تمنع المنطقة من أن تحقق هذه الأهداف، وأنت وقعت بلا وعى فى هذا الشرك، حتى التطور الصناعى الذى وضعت بذوره فى بلادك، لا يخرج عن كونه إنفاقًا وتبذيرًا بلا عائد، هل أذكرك بنموذج واحد؟ إنشاء مصنع لإنتاج السجائر يفخر رجالك بأنه الثانى فى العالم من حيث الطاقة الإنتاجية، ومع ذلك يعمل بأقل من واحد على مائة من طاقته الحقيقية! وكل من زاره يرى الصدأ وقد علا آلاته. فى خلال عدة أعوام سوف تبيعه سيدى الرئيس «خردة»، يلقى بها فى صناديق القمامات فهل هذا هو التصنيع؟

كذلك فإننى آخذ عليك إهدارك لكرامة بنى وطنك، منذ متى كان يعامل العربى فى أرض آبائه كما يعامل اليوم الليبى على أرض العروبة؟ ألا تعلم يا سيدى الرئيس أن هذا الليبى لم يعامل حتى فى أشد عصور القمع والاستعمار كما يعامل اليوم فى ظل النظم الثورية التقدمية، التى تزعم بأنها جاءت تحرر الإنسان العربى؟ المحاكمات التى تجريها هى أقرب إلى التمثيليات المبكية، وهى ليست إلا دليلا ساطعا على ما وصلت إليه

أوضاع بلادك بهذا الشأن. ولا تحدثنى عن الدول العربية الأخرى، أنت تحكم بلداً نبت وجاهد فيها عمر المختار، وعليك يا سيدى أن تحترم رجولة ذلك القائد، والرجولة لا تعنى استخدام القوة إزاء الضعيف، وشعبك فى مواجهتك ضعيف بجد أولا، وبثقة ثانيا، وبعدم امتلاكه لأى سلاح يستطيع به أن يواجهك ثالثا، ولكن إلى متى؟ دعنى أذكرك بأنه لا توجد دولة قوية لا تستند إلى رجال أقوياء، والرجل القوى هو الذى يعرف أنه له كرامة من حقه أن يدافع عنها. وقد وجد فى نظام أمة سياجها يحميها من المهانة، ولعل هذا يفسر موقفى من هذا «التهريج»، الذى يسود عملية بنائكم للدولة الليبية. إننى لا أناقش أنكم استطعتم أن تدفعوا بالشعب الليبى دفعات قوية نحو الوحدة القومية والانصهار القومى، وقد أشدت بذلك فى أكثر من موضوع. لكن ماذا أصاب عقولكم المفكرة خلال الأعوام الخمسة الأخيرة؟ ما هذه التنظيمات العجيبة التى لا تعنى إلا الفوضى والعشوائية، والذى لن ينتهى إلا بحكم الغوغائية؟ هل هذا هو الذى تريده؟ إننى واثق أن هذا لم يرد فى ذهنك، ولكنها مجموعة المتسلقين الذين أحاطوا بك فاستغلوا البراءة. كما حدث مع السادات فأحيل إلى فرعون رغم قوة الجسد المصرى، يحدث معك حيث المجتمع الليبى - بحكم تاريخه - لا يمثل سوى الرخاوة وعدم صلابة تقاليد التعامل المصرى.

عليك سيدى الرئيس أن تعرف أنك كقائد ثورة يجب أن تكون النبض الحقيقى لشعبك ولأمتك، ويوم تحدث الفرقة فإنك تكون قد فقدت شرعية نظامك، وهذا الشعب ليس راضيا عن هذه السياسة، وعليك أن تعمل بوحى من ذلك.

* * *

(٦)

أمتى أمة القيم

سوف أظل عربيّا

أمتى أمة القيم

«سوف أظل عربيّا»

نعم سوف أظل عربيا، وليس ذلك مرده إيمان أعمى بانتماء فرض عليَّ بحكم الميلاد، بل إنه نتيجة قناعة متعددة الأبعاد، هى الخلاصة النهائية لمتابعة تاريخ الإنسانية، ذلك التاريخ الذى ننتمى إليه، إنه النتيجة التى لا بد أن يصل إليها كل من يستقرئ الأحداث التى ارتبط بها الوجود الإنسانى، فتكون من حصيلتها التراث الحضارى. والذى يتمركز فى وسطه ذلك التراث الذى قدمه آبائى، وهو النتيجة المنطقية لذلك الاختيار الذى فرضته العناية الإلهية على أرض آبائى وأجدادى فى مواجهة تلك الإنسانية وذلك الوجود الإنسانى.

هل تريد يا بنى أن تعى معى قصة التاريخ؟ يرويها لك أحد الثقات، وقد تجردت نظرته، أى من محور واحد: الصدق والأمانة مع الذات.

إذن فاستمع معى إلى صوت الماضى!!

وجدت أمتى منذ بداية الإنسانية فى تلك البقعة التى تتقابل فيها القارات الثلاث، أى فى قلب العالم، ولم يكن من قبيل الصدف أن يخرج من هذه البقعة صوت الدعوة إلى الهداية. الدين هو صوت الحق، وهو وحده الذى يرفع الإنسان من مرتبة الوحشية إلى قدسية الملائكة، وهكذا فى أرض الصحراء، تحدد مصير الإنسانية، ومن هذه

الصحراء القاحلة التى لا يعرف أن يعايشها سوى البدوى كانت الدعوات المتتالية، فخرج صوت الإيمان والتضحية قويا بنقائه، ثابتا بوضوحه، عميقا ببساطته.

هذه الإنسانية الجديدة، وهذه الأرض التى أنتمى إليها، هى أرض الأديان، وهى أيضا أرض العروبة، إنها ليست فقط أرض الإسلام، بل منها منبت ديانة التوراة وإليها تعود ديانة المحبة، أى الديانة المسيحية، إن المسيحية ديانة عربية.

لذلك، سوف أظل عربيّا.

وإذا كان العربى قد نسى قدسية تعاليم أجداده، وقعد عن حمل رسالتهم التى حملتها لهم السماء، فإن ذلك ليس خطيئة فرد واحد، وإنما هى خطيئة أمة بأكملها غالطت نفسها ونسيت حقيقتها، وسارت فى طريق يبعد عن ذاتها الحقيقية، فالإنسان مجموعة من الأخطاء، والخطأ وسيلة التعليم والارتقاء.

ونحن العرب ارتكبنا من الأخطاء الكثير، وهذا حاضرنا، أليس هو سلسلة متتالية من المآسى التى ليس مردها - فى جانب كبير منها - سوى الوقوع فى الخطأ والإصرار عليه؟

ولكن ككل حضارة خلاقة قادت وسعت إلى رفع رايه العقل البشرى، فكذلك كان لا بد وأن تتعثر حضارتنا العربية، لتقع وتسقط فى أكثر من مناسبة واحدة، وكان لا بد وأن تتعلم لتستعيد سيرتها، ولتندفع رافعة راية الحق، مدعمة قصة الوجود الإنسانى.

لا يستطيع أى باحث أن يفهم حقيقة الوظيفة التاريخية، التى عهدت بها العناية الإلهية لأمتنا العربية، إلا إذا ألقى نظرة كلية شاملة على حقيقة التطور العام، الذى صبغ الإنسانية وموضع تلك الأمة من ذلك التطور، لو تركنا جانبا الجزئيات والتفاصيل لاستطعنا أن نؤكد كيف أن قصة الإنسان فى سعيه نحو الخلود تمركزت ونبعت من قوى ثلاث: الصين فى أقصى الشرق، والإنسان الأوروبى فى أقصى الغرب، وقد توسطتها الحضارة العربية على قوس ممتد ومتصل من البحر الأصفر على مشارف المحيط الهندى إلى أرض الغال فى أقصى الشمال الغربى، وبينهما البحر الصحراوى حيث تسود قوة البداوة وصلابة الاتصال المباشر بالطبيعة فى أسمى صورها، تمركزت جميع عناصر التقدم للوجود الإنسانى، والتطور الحضارى نحو الكمال والارتقاء جميع القوى

الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى عرفتها الإنسانية، لم تكن سوى مراكز ثلاثة تبلورت حولها نماذج ثلاثة مختلفة ومتباينة للفرد وللحضارة وللقيم المثالية، المجتمع الصينى أولا حيث الكيان السياسى يمثل الأمة القومية المنغلقة على نفسها التى تأبى إلا الارتفاع بالاكتفاء الذاتى، وحيث استطاعت الأمة الصينية ـ وعلى متسع زمنى يصل إلى أكثر من أربعين قرنا ـ أن تظل متماسكة؛ لأنها لم تنشأ وتتطور استنادا إلى حق الفتح، ولكنها نبعت من مفهوم الرقى والسمو الحضارى والأخلاقى فى مواجهة تلك الأمة الصينية، وعلى الطرف الآخر من القوس الممتد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، نجد المجتمع الأوروبى، جماعة تحدثت دائما عن وحدتها، ومع ذلك لم تستطع فى أى مرحلة من مراحل تاريخها عقب الدولة الرومانية أن تحقق تلك الوحدة السياسية، وحدتها الحقيقية كانت فى مواجهة أعدائها، وفى فلسفة تعاملها مع المجتمعات الأخرى المحيطة بها، حيث سادتها مبادئ ثلاثة: القوة والبطش من جانب، والخديعة والكذب من جانب آخر، ثم الاستعلاء والتعصب من جانب ثالث، حتى عندما غزتها الدعوة الدينية السماوية التى جاءت من أرضنا ـ أرض الأديان ـ من الصحارى العربية عبر البحر المتوسط، لم تستطع أن ترفع من مستوى أخلاقياتها، بل لقد أعادت صياغة تلك الأديان على ضوء أنانيتها الحركية وتعصبها العنصرى، بل إنها لم تتردد فى فترات معينة أن تلفظ تراثها الدينى وتعلن الرفض المطلق، والطرد الكلى الكامل لمنزلة الإله من الوجود. والتعامل المدنى الأوروبى ـ منذ أيامه الأولى ـ إباحى متعصب استفزازى، يأبى إلا أن يستخدم جميع عناصر البطش الحيوانى، وقد صبغها بصورة من المثالية المصطنعة، لن نستطيع أن نفهم أوروبى اليوم، وغربى الغد، إن لم نعد إلى أجداده الرومان. بقسوتهم وعنفهم، فضلا عن ذلك التحلل الأخلاقى الذى صبغ التاريخ الأوروبى، قصة صارخة لكل ما يقدمه انحدار الإنسان إلى مرتبة الحيوان من خصائص وصفات. وهذه صفحة أخرى تتوالى فصولها أمام أعيننا فى الأرض العربية باسم الصهيونية السياسية، ليست إلا تعبيرا عن هذه الحقيقة.

بين الأول والثانى وجد الإنسان العربى: نبله معتدل، وإيمانه متأصل، وصلاحيته للمثاليات تلقائية، وهكذا اختارت العناية الإلهية تلك الأرض لتقدم الدعوة الربانية، وتزرع القيم والمثاليات السلوكية.

لقد تساءل أكثر من عالم واحد: ما هى خصائص الحضارة الخلاقة؟ ما هى تلك المتغيرات الثابتة التى يجب أن نبحث حول توفرها واحترامها علامات الارتفاع والارتقاء للطبيعة الحضارية، أى لذلك المستوى الذى يصح أن يوصف بالتميز، والذى يعطى وحده تلك الحضارة حق القيادة والتوجيه، وبحيث تستطيع مثل تلك الحضارة أن تنظر إلى الحضارات الأخرى من ذلك العلو الشاهق، الذى هو وحده محور العظمة الإنسانية؟ وثمة محاور خمسة يجب من حصيلتها رؤية ذلك النسيج الذى هو منطق التفوق الحضارى:

أولا: نظام القيم والمثاليات، الذى هو محور الوجود والممارسة.

ثانيا: عالمية الوظيفة الحضارية.

ثالثا: القدرة والمقدرة على تطويع الذات الجماعية.

رابعا: الاستمرارية التى تعلن عن الصلابة والثبات.

خامسا: إدارة الصراع.

أمتى وحدها استطاعت أن ترتفع بهذه العناصر الخمسة إلى مرتبة التكامل، ولكنها لم تقتصر على ذلك، ففى إحدى مراحل تاريخها كانت قادرة على أن تخلق من تلك العناصر إطارا متجانسا للتعامل التاريخى، لم تستطع أن تقدمه أى حضارة أخرى.

لذلك سوف أظل عربيّا! ولكن كيف حدث ذلك؟ مهلا يا بنى فالحديث طويل.

«أمتى العربية أولا هى أمة القيم»

نظام القيم الذى رسبته تقاليدنا السياسية، لا يزال فى حاجة إلى كشف وتنظيف من تلك الرواسب التى علقت به، إن قصة تاريخنا الحقيقية هى قصة دفاعنا عن القيم والمثاليات، وتارة نجحنا، وتارة فشلنا، ولكن المحور الحقيقى لجميع صفحات الصراعات الحقيقية غلفتها قيم المثالية، ومثالية القيم، هذا التاريخ الذى أضحى يقدمه أعداؤنا وخصومنا على أنه أحاديث ألف ليلة وليلة، عامر بالنماذج التى تعلن ليس فقط عن إرادة التحدى، بل وعن الاستعداد للمغامرة بالذات فى سبيل القيم العليا، التى سادت ذلك المجتمع وتقاليده، ألم نذكر من قبل قصة «أحمد بن حنبل؟» وهل هو

الوحيد؟ وأين «ابن تيمية» أيضا فى عصور التدهور والانحطاط؟ فلنقتصر مؤقتا على أن نعود إلى قصة قيم التعامل الخارجي، لنكشف رحيق القيم التى أرستها تعاليم أمتنا وقصة الشهامة العربية.

السياسة الدولية لم تعترف بأى نوع من أنواع القيم، قامت على شريعة الغاب، حيث يقف الجنس البشرى وقد تحول إلى مجموعة من الحيوانات الكاسرة، القوى يبتلع الضعيف، والقادر يطوع غير القادر لصالحه، وصاحب السيطرة يوظف الآخر لخدمته، لا موضع لأى لغة أخرى فى ميدان التعامل بين الشعوب، قد تتعدد نماذج الوجود الإنسانى، وقد تختلف تطبيقات التعامل الحضارى، وقد تتنوع أساليب الممارسة السياسية، ولكن عندما نقف نتأمل حقيقة وجوهر التعامل بين الدول والشعوب فلا موضع إلا للغة واحدة: منطق الغابة، ولغة البطش والأنانية، هكذا كان الإنسان فى تاريخه القديم، ورغم جميع نداءات المثالية التى ظلت تتحدث فى الداخل بلغة، وعندما تنتقل إلى الخارج تستخدم لغة أخرى، الأسطورة المعروفة باسم «حصان طروادة» ليست إلا نموذجا يتكرر فى جميع صفحات التاريخ القديم.

قيصر عندما دخل مصر زعم فى خطبته المشهورة بأنه إنما أراد أن يعيد إلى المجتمع الفرعونى حرياته المفقودة، خديعة.. الواحدة تلو الأخرى. وكذب وتعامل من منطلق النسيان لجميع القيم والمثاليات.

قصة «روما» ليست سوى تأليه للقوة الغاشمة والعنف دون حدود، ودون قواعد فى التعامل مع غير الرومانى. إن من لا يحمل الجنسية الرومانية لمجرد أنه كذلك يحل قتله دون أى حساب أو مساءلة، العصور الوسطى لم تخرج عن هذه القاعدة، كان مؤلف «الأمير» لمكيافيللى هو الكتاب المقدس، الذى يحمله تحت إبطه كل أمير أوروبى، وكم تساءل أكثر من مفكر أوروبى خلال القرن الخامس عشر: حتى الحيوانات تخضع فى صراعها لحد أدنى من قواعد التعامل، فهلا استطاع الإنسان أن يرتفع عن تلك البربرية التى تسيطر على جميع مسالك الصراع التصفوى بين الشعوب الأوروبية؟

ولماذا نذهب بعيدا؟ تعالوا معى نقرأ تاريخ باباوات روما، حاملى مشعل القيم الكاثوليكية. وكم هى تقدم قصصا عامرة بأقذر الممارسات، إن قصة «سيزار بورجيا» كافية لتقشعر من هولها الأبدان، فإذا وصلنا إلى حضارة عصر النهضة إذ بلغة القوة

تتحول إلى منطق العنصرية : إن حق الشعب المختار أن يحكم ويوجه ويقود ويستأثر بالشعوب الأخرى ، والشعب المختار هو الشعب الأبيض ، وليس لأحد حق فى الألوهية السياسية سوى ذلك الرجل الذى يحمل ملامح العنصر الآرى ، مأساة المجتمع الأوروبى هى قصة العنصرية التى لا تزال تتوالى فصولها أمام أعيننا ، وهل تستطيع الحضارة الغربية أن ترفع عن ضميرها أربع مآس لم يعرف لها مثيلا التاريخ الإنسانى : استئصال الهنود الحمر فى القارة الجديدة ، ثم استئصال الأهل الأصليين فى أستراليا ، واستئصال اليهود فى القارة الأوربية ، ثم استئصال الفلسطينيين من أرض آبائهم؟

فى مواجهة هذا المنطلق العنصرى المتخلف تقف أمتى شامخة متميزة .

لماذا؟

سؤال يجب أن نجيب عليه حتى لا نوصف بالتحيز والاختلاق .

نظام القيم السياسية يدور حول أربعة أبواب : قيم التعامل الجماعى بين الشعوب ، ثم قيم التعامل مع الفرد الأجنبى فى داخل المجتمع السياسى ، ويأتى عقب ذلك فصل خاص بقيم التعامل الداخلى ، أى تلك المثاليات التى تحكم علاقة الفرد المواطن بالسلطة ، أى الحاكم بالمحكوم ، ثم أخيرا الفلسفة العامة للوجود الإنسانى ، أى نظرة المجتمع وعلاقته بالعالم الذى يحيط به وإليه ينتمى .

الباب الأول : يدور حول خصائص القيم التى تتحكم فى علاقة المجتمع بالمجتمعات الأخرى ، سواء تلك التى تتعامل معه تعاملا سليما ، أم لا تتعامل معه كذلك ، سواء فى حالة الوفاق أو فى حالة الحرب .

الباب الثانى : ويرتبط بالأجنبى عندما يقدر له التواجد فى المجتمع القومى ، هل يفقد آدميته ، أم له حد أدنى من الحقوق ، أم له حق المساواة مع المواطن ، ولو فى نطاق معين من الامتيازات والحصانات؟

الباب الثالث : وهو الذى يدور حول العلاقات المعتادة واليومية بين الحاكم والمحكوم .

ثم يأتى الباب الأخير : لينقلنا إلى نطاق الفلسفة العامة للوظيفة الحضارية .

لن نستطيع أن نفهم العظمة الحقيقية لحضارتنا العربية، ولسموها على جميع الحضارات الأخرى، إلا إذا تناولنا جميع هذه الأبواب، كل على حدة، فلنتذكر الكرم العربى، والشهامة العربية، والفروسية العربية، وقصص صلاح الدين خلال الحرب الصليبية على سبيل المثال .

ولكن لنقف مؤقتا إزاء أروع صفحات تلك القيم، وهى قيم التعامل الدولى فى جميع مراحل الوجود الإنسانى، وحتى هذه اللحظة فى التاريخ الإنسانى سوى المجتمع العربى التقليدى .

لقد آمنت أمتى بقواعد ثابتة، جعلت منها دستور الممارسة السياسية مع الشعوب الأخرى، وأطلقتها كقواعد للممارسة الدولية، ولم تقبل لها استثناء، ولو على حساب نفسها .

هذه القواعد يمكن تلخيصها بشرعية القتال دفاعا عن مبادئها، مع احترام آدمية الإنسان فى السلم والحرب، وفى كل الظروف، وعدم السماح للنزعة العنصرية بأن تحكم علاقة العربى بغيره، وحتى فى ساحة القتال، فلا يجوز أن يكون الصدام المسلح مبررا لإهدار آدمية الآخرين، نفس القواعد التى تطبق على الإنسان العربى يتمتع بها غيره. ويتحمل آثارها غيره، ولا يجوز ـ والحالة هذه ـ الاعتداء على المرأة أو الصبى أو العجوز .

* * *

(٧)

أمتى والوظيفة الحضارية

سوف أظل عربيّا

أمتى والوظيفة الحضارية

«نعم سوف أظل عربيّا»

وكلما ازددت توغلا فى فهم حقيقة التراث الإنسانى ووظيفة الحضارات التاريخية الكبرى، ازدادت قناعتى بأن هذا الانتماء العربى هو وحده المدعو لأن يؤدى الوظيفة الكبرى فى متاهات القرن الواحد والعشرين، نحن نعلم أن ماضى أمتنا قد أصابته الجروح، وأن تاريخنا قد لقى الإهمال وأصابه التشويه، وقد آن لأبناء تلك الأمة أن ينظفوا ذلك التاريخ، وأن يخرجوه نقيا ناصعا يهدى ويقود إلى الأمام.

أمتى أمة القيم.

وهى لذلك قد وضع على عاتقها وظيفة تاريخية، عليها أن تؤديها فى نطاق الصراع الذى تعيشه الأسرة الدولية المعاصرة، لإنقاذ الإنسانية المعذبة من تمزقاتها الضيقة التى فرضتها الأحداث على مجتمعنا، الذى نعيشه فى الربع الأخير من القرن العشرين، علينا أن نبدأ فنزيل مجموعة من المفاهيم الخاطئة التى لم يعد هناك موضع لتقبلها، والتى آن الأوان لكى نوضح حقيقة ما تحتويه من تشويه للخبرة التاريخية.

أولى هذه الحقائق التى يتعين علينا أن نعترف بها، هى أن كل من أرخ للتراث الإنسانى لم يكن إلا غربيا، أو انطلق من المفاهيم الغربية، والمفاهيم السائدة فى تحليل تاريخنا نبعت من النظرية الأوروبية. حيث سادتها فى خلفياتها الحقيقية فكرة ثابتة تدور حول جعل تاريخ وكتابة التاريخ أداة من أدوات الدعاية السياسية، فإذا أضفنا إلى

ذلك تلك النعرة القومية الغربية لكان علينا أن نفهم لماذا يجب أن نعيد النظر فى كتابة التاريخ السياسى، حيث لم يكتب بعد تاريخ الإنسانية بقلم عربى، ليس فقط من حيث اللغة، بل ومن حيث الفلسفة وتفسير الأحداث، وهكذا ترسبت فى مفاهيمنا أخطاء عديدة، البعض منها بحسن نية، ولكن الكثير منها لا يمكن تبريره إلا من منطلق لا ينبع من الاعتبارات العلمية، وهكذا أضحت الإنسانية المتقدمة هى فقط تلك النابعة من التقاليد الأوروبية، والتقدم السياسى هو أسلوب الحياة الديمقراطية فى نموذجه الغربى القائم على فكرة التصويت، وطقوس الإعلان عن الرأى، بحيث لا يتجزأ أى منها عن الأخرى، هذه المفاهيم الخاطئة آن الأوان أن نزيلها ونستبعدها من الإطار الفكرى للتعامل مع الوجود الإنسانى، إن التقدم السياسى مستقل استقلالا كليا وشاملا من حيث علاقته بالتقدم الاقتصادى، ألم يكن المجتمع اليونانى أكثر أنواع النماذج السياسية تعبيرا عن الديمقراطية التقليدية، ومع ذلك هل نستطيع أن نقارن ذلك المجتمع اقتصاديا بما يمثله المجتمع الرومانى فى النصف الثانى من القرن الثانى قبل الميلاد؟ ألم يكن جميع الأنبياء أميين لا يعرفون القراءة أو الكتابة؟

ومع ذلك من يستطيع أن يزعم بأن هؤلاء الأنبياء ـ وهم الذين قادوا الإنسانية ـ لا يمثلون أية قدرة ثقافية؟ لماذا أسلوب الحياة الديمقراطية فى نموذجه الغربى هو وحده علامة التقدم السياسى؟ ولماذا نذهب بعيدا؟ ألم تكن الثورة الفرنسية رد فعل لفشل الحضارة الغربية؟ وألم تكن الثورة الشيوعية بدورها رد فعل لفشل الثورة الفرنسية؟؟ وهل يمكن أن نفهم كلا الثورتين سوى أنهما إعلان عن إجهاض لحقيقة المكتسبات التى قدمها الإنسان الأوروبى خلال سبعة عشر قرنا منذ الدعوة المسيحية، عندما جاءت الثورتان كلتاهما بأسلوب لتطرد الكنيسة من الوجود المدنى؟

تعال معى بُنَىَّ نفسر التاريخ فى جوهره الحقيقى، الإنسانية عرفت ثورات ثلاث:

الأولى: تنبع من التصور الرومانى للممارسة السياسية كما صاغها شيشرون فى كتابه «القوانين» ثورة صامتة هادئة خافتة لم يشعر بها أحد.

الثانية: الدعوة الإسلامية بمبادئها ومنجزاتها، ضربة عنيفة أعادت بناء نظام القيم، ووضعت دستور الإنسانية المتمدينة.

الثالثة: الثورة الفرنسية والتى لا نزال نعيش فى نتائجها.

كل من هذه الثورات الثلاث تقدم خطوة حاسمة فى تقدم الإنسانية، وكل منها ترسم صورة متميزة ومستقلة لقدرة العقل البشرى على أن ترتفع ليس فقط إلى مستوى الإعجاز، بل وإلى التسليم بحقوق الإنسان، ولو فى شطر منه فى نطاق التعامل الاجتماعى والسياسى.

لقد آن للمؤرخ العربى أن يرفض، أو على الأقل أن يعيد تقييم ما تداولته الأقلام الغربية، حيث درجت تلك الأقلام على أن تجعل التطور الحضارى للإنسانية المتقدمة ينبع من حلقات متتابعة من الحضارة اليونانية، فإذا بمفاهيم أفلاطون ومدركات أرسطو تتفاعل مع الخبرة الرومانية، فتلبس ثوب القيم الكاثوليكية التى بدورها تنساب فى شرايين الجسد الأوروبى، لتدفعه تدريجيا نحو حضارة عصر العقل والنور، فتأتى حضارة عصر النهضة لترفع قدرة العقل البشرى على التحكم فى مصيره، وتضفى على الإنسان الأوروبى صفات ثلاث لم يقدر للإنسانية من قبل أن تعرفها: العقل، والتقدم التكنولوچى، والقدرة على المغامرة.

وهكذا من خلال التفاعل بين هذه العناصر الثلاثة تنبع تلك الحضارة التى نعيشها، والتى يتقلب فى ضيائها كل وجود إنسانى معاصر.

ورغم ذلك فإن عودة إلى متابعة التاريخ تكشف لنا كيف أن الإنسانية فى حقيقتها لم تعرف سوى ثورات فكرية ثلاث، وكيف أن من بين هذه الثورات الثلاث تقف الإسلامية عملاقة بقوتها، قاطعة بما قدمته للإنسان المتمدين، فلنتابع تلك القصة فى معالمها العامة ولنبدأ بالسؤال: ماذا قدم الإنسان المفكر قبل صياغة شيشرون لمبادئ القانون الطبيعى فى كتابه القوانين؟

فلنترك جانبا تلك المدركات السائدة ولنعمل العقل فى فهم حقيقة الماضى، إن كل ما فعله أفلاطون وأرسطو لم يكن سوى محاولة للقدرة الفكرية على أن تكتشف حقيقة العالم دون هداية وإرشاد من جانب الإرادة العليا، هذه المحاولة اليونانية نجحت جزئيا وفشلت جزئيا، وكان نجاحها فى أنها أبرزت قوة الفكر الخلاق، وكان فشلها فى أنها لم تستطع أن ترتفع للإمساك بتلابيب التطور، فتخلق المجتمع القومى والأمة السياسية القادرة على أن تجمع الشعوب فى وظيفة حضارية واضحة. وهكذا نجد أفلاطون، وكذلك أرسطو، بينما يتحدث كل منهما فى نطاقه عن العدالة من جانب وعن حكم

القانون من جانب، فإن كليهما يعترف بأن نظام الرق هو وضع طبيعى، وبأن هناك أفرادا ولدوا ليكونوا عبيدا، وآخرين ولدوا ليتمتعوا بالحرية.

ومن ثم فإن قدرة الإنسان لم تستطع بعد أن ترتفع بفكرها المجرد، وتصوراتها الذاتية لترى كيف أن هناك قسطا من الحقيقة الإلهية فى كل وجود فردى.

جاء «شيشرون» ليلمس ذلك بإعجاز حقيقى، فإذا به يقول كلمته المشهورة من أن «الطبيعة خلقت الجميع متساوين، وأنها أعطت كل فرد مجموعة من الحقوق الطبيعية التى يجب أن تعلو على إرادة المشرع»، فكر «شيشرون» بهذا المعنى هو فى حقيقته ثورة فكرية متكاملة، ولكن ذهبت تلك الثورَة دون صدى، ولم تستطع أن تستجيب لها النظم القانونية، بل وانتهى شيشرون فى محاولته اليائسة للدفاع عن قدسية النظم الجمهورية بأن قتل وشرب من دمه بالقرب من نابولى، بل ولا يزال فقه السياسة فى التقاليد الأوروبية يغطى على تلك الثورة بغطاء من النسيان والتجهيل.

لقد كان على الإنسانية أن تنتظر أكثر من ستة قرون عقب مقتل شيشرون لتواجه أول ثورة فكرية حقيقية فجرتها الدعوة الإسلامية، لتجعل منها منطلقا حقيقيا لبناء حضارة الإنسان الجديدة، ما هى خصائص تلك الثورة الفكرية؟ لا نزال فى بداية محاولتنا للإجابة على السؤال: أين أمتى من العالم؟ وهل نستطيع أن نجيب على مثل ذلك الاستفهام، قبل أن نزيل تلك المجموعة من المفاهيم الخاطئة، والمترسبة فى الوعى والمدركات التاريخية؟

لا يستطيع مؤرخ محايد أن ينسى كيف أن الدعوة الإسلامية تضمنت عناصر خمسة لم يسبق للإنسان أن عرف معناها وإن اكتشف جوهرها:

أولا: الإرادة العليا يجب أن تكون موضع احترام أيضا فى الحياة المدنية.

ثانيا: الرق حالة غير طبيعية يجب أن تواجه بوضع حد لها تدريجيا.

ثالثا: المجتمع السياسى هو قوة متراصة متضامنة.

رابعا: الكرامة الفردية تمثل مفهوما مستقلا عن الأصل العنصرى، بل وعن الانتماء الدينى.

خامسا: الجهاد هو محور الوجود الإنسانى.

إن جوهر الحضارة الإسلامية هو دعوة العقل لإعمال الفكر، وهو دعوة الإنسان لأن ينطلق بقدراته الذاتية لأن يكتشف العالم الذى يحيطه، وعلى أن يكتل طاقته وطاقة أقرانه نحو هدف من المثالية والسمو الأخلاقى، حيث تختفى الأنانية، وبحيث يسيطر على الإنسان مفهوم الجهاد فى سبيل نشر الدعوة، الإرادة العليا تأتى فتقود الإنسان، ولكن فى نطاق معين بحيث لا تفعل سوى أن تضع مجموعة من المبادئ العامة تسمح للفرد بأن يكتشف ذاته، إنها لا تترك الفرد دون هداية، ولكنها لا تفرض على المواطن إطارا نظاميا معينا، يكبله بقيود هو قادر على أن يتفاداها ويتجنبها، الإرادة لا تفعل سوى أن تضع خطوطا عامة مهما قويت قدرة العقل والمنطق على أن تكتشفها فهى تقف منها ضعيفة خائرة.

كذلك فالمجتمع السياسى هو الأمة، والأمة السياسية تعنى حقائق ثلاث: حضارة، وجماعة، وقيادة.

كليات الوجود السياسى قبل الدعوة الإسلامية لم تكن سوى فرد وجماعة، والعلاقة بينهما لم تكن سوى علاقة تناقض وتعارض.

كذلك عقب التعاليم المسيحية، فإن القديس «سانت أوجستين» لم يكن يستطيع أن يرى فى التعامل بين مدينة الإله ومدينة البشر سوى صدام عنيف ينتهى تارة لحساب الشيطان، وتارة أخرى لحساب الفضيلة، حيث إن ما يكتسبه أحدهما لا بد وأن يكون على حساب الآخر. النظرة السياسية الإسلامية تجعل التعدد للكليات هو محور تصورها، الفرد، الجماعة، الحضارة، القيادة، وإذا كان الفرد هو سيد الجميع، فلا وجود له إن لم يندمج فى إطار الجماعة، أو الأمة من جانب، وإن لم يترابط من خلال الحضارة، أى قيم الممارسة، أى إطار المبادئ المنزلة من جانب آخر.

وتجمع العلاقة بين جميع هذه العناصر مفهوم القيادة، الخلافة ليست حقوقا ولكنها التزامات تعبر عن مثاليات الجماعة - أى القيم الدينية - وتخلق الترابط بين الحياة المدنية والحياة الأخرى التى يعد نفسه لها المواطن.

هذه الثورة الفكرية هى التى مكنت المجتمع العربى - رغم فطرته وبدائيته - أن يصبح قدرة خلاقة قادرة على أن تزلزل جميع الإمبراطوريات المحيطة به، بل وإذا بأهل تلك

الإمبراطوريات يقبلون طواعية على الدخول فى تعاليم الدعوة الجديدة، لتحقيق أكبر معجزة فى تاريخ الإنسانية، هنا من هذه الأرض انطلق النبت الجديد، وأينعت الحضارة الجديدة حيث تعانقت قيم الإسلام مع وظيفة أمتى الحضارية. وظيفة العروبة السياسية ومع الفارس العربى انطلق الإشعاع الحضارى، ليس فقط بمعنى القدرة على تقديم الذات ولكن بمعنى الفيضان فى المنطقة، وإذا بالإخصاب يقدم ثمرته التى فرضت وجودها على الإنسان فى أكثر من موقف واحد.

نبعت الثورة الفكرية الإسلامية ـ والتى حملتها الحركة العربية قرابة اثنى عشر قرنا من التطور ـ مجموعة من التقلبات لم تكن إلا تعبيرا عن فشل الإنسانية فى فهمها لحقيقة الوظيفة الحضارية، ثم تبعت ذلك الثورة الفرنسية، ويعترف عمالقة الفكر الأوروبى بأن هذه الثورة الفرنسية قدمت باليمين وأخذت باليسار، إنها باسم حضارة عصر النهضة، وتقديس العقل والحرية خلقت مجموعة جديدة من الأصنام، فأعادت عبادة الدولة، وأطلقت مفاهيم الانتماء إلى الحضارة اليونانية، وانتهت بأن تعمق فلسفة التعصب العنصرى باسم «الحرية والإخاء والمساواة»، فالحرية حق أوروبى، والمساواة فى داخل المجتمع القومى، وما عدا ذلك لا موضع له فى قيم الممارسة السياسية، وإذا كانت العلاقة السياسية الجديدة قد أضحت واحدة ومطلقة ومباشرة، وكلية وشاملة، فهى تنتهى ليس فقط بإلغاء القيم والمثاليات الأخلاقية، بل والعودة لجعل النماذج الفكرية لأفلاطون وأرسطو هى دستور الحياة الفكرية، إنها تلغى جميع تطورات ومكتسبات الإنسان قرابة عشرين قرنا، إنها تعلن فشل الحضارة الكاثوليكية فى هداية الإنسان الأوروبى، لا نريد أن نحدد فى هذا المجال الدين الذى قدمته تلك الثورة الفكرية الإسلامية، الذى ساهم فى هداية المجتمع الأوروبى لاكتشاف ذاته وكيف أنه ـ حتى فى ذلك القسط المحدود من الإبداع الفكرى الخلاق، الذى تضمنته الثورة الفرنسية ـ لم يستطع أن يتوصل العقل الأوروبى إليه إلا من خلال تعاليم الحضارة الإسلامية.

الإنسانية الغربية لم يقدر لها الانطلاق والتخلص من طقوس العصور الهمجية الأولى إلا فقط عندما قدر للتراث الكنسى أن يتعامل مع التراث الإسلامى، فموجة الزحف الفكرى الإسلامى هى التى أحدثت التفاعلات الجديدة مع القديس «توماس

الأكويني» فإذا بمسارات فكرية مختلفة، وإذا بتعديل في كل ما له صلة بالإطار الفكري للتعامل.

المفاهيم الإسلامية تطرقت من خلال مسالك متعددة، بعضها مباشرة وبعضها غير مباشرة، القديس «توماس الأكويني» تعلم على يد ألبرتوس الكبير، الذي درس في صقلية ونقل إلى الفيلسوف الإيطالي فلسفة كل من ابن سينا وابن رشد.

جامعة باريس عندما أنشئت ظلت أكثر من قرن تدرس الفلسفة اليونانية، من خلال النصوص المنقولة عن فلاسفة الإسلام، وظلت تدرس كتب ابن سينا وابن رشد، حتى أصاب البابا الكاثوليكي نوع من الهلع فأصدر قراره بمنع تدريس الفلاسفة المسلمين في جامعة باريس، وقد كانت نتيجة ذلك هجرة جماعية: أساتذة وطلبة جامعة باريس انتقلوا إلى جامعة تولوز على حدود إسبانيا، حتى يستطيع هؤلاء العلماء أن يظلوا على تعاملهم مع تلك النصوص الإسلامية دون أن تستطيع السلطة البابوية أن تنالهم.

إن حضارة أمتي هي التي علمت العالم الأوروبي معنى الوظيفة الحضارية، ولكن هذا العالم الأوروبي لم يعرف كيف يستقبل تعاليم أمتي، إن مأساة المجتمع الأوروبي الحقيقية هي أنه في تعامله مع تراث آبائي قبلَ قسطا دون الآخر. فحضارة آبائي هي مزيج متجانس من العقل والتدين، العقل أي القدرة الفكرية الخلاقة، والتدين أي التعاليم المنزلة من الإرادة العليا، العقل ينطلق من التعاليم الدينية: طقوسا وترتيلات؛ لأنها لا تتفق مع المنطق الإنساني المجرد، ولكنها فرضت على ذلك المنطق مجموعة من القواعد، جعلت منها علامة للإيمان.

العقل الأوروبي في جهالته وفي جموده إزاء تعاليم بالية متحجرة ما كان يمكن إلا أن ينحني إجلالا لذلك التراث العربي، أعجب بالعقل العربي فجرده من إطاره الديني، وطور إمكانية قبول ذلك القسط العقلي بدون قيمه ومثالياته، فكانت تلك النتيجة التي فجرتها الثورة الفرنسية لتذكرنا بقصة الغراب الذي حاول أن يقلد الطاووس، فلا هو ظل على طبيعته، ولا هو اكتسب صفات جديدة.

ما الذي نستطيع أن نفهمه من هذه الملاحظات العامة؟.

الثورة الوحيدة التي عرفتها الإنسانية كدفعة حقيقية نحو الارتقاء الفكري، هي

الدعوة الإسلامية، فهل آن لنا أن نفهم كيف أن قصة التاريخ يجب أن نعيد كتابتها من منطلقات جديدة؟

هناك صفحات غامضة فى قصة العظمة الإنسانية، يجب أن يُعاد تسجيلها، وليس أقل هذه الصفات أهمية ما قدمته الحضارة الإسلامية لبناء مفهوم الدولة العالمية فى العصور الوسطى.

إن البابوية الكاثوليكية - وعلى يد ممثلها الفكرى وفيلسوفها السياسى «دانتى» - ما كانت تستطيع أن تؤصل وظيفتها التى قادت الإنسانية الغربية - رغم اضطراب الخطى والخروج عن التقاليد - لولا البناء الإسلامى.

كذلك يجب أن نعيد تحديد وصياغة مراحل ذلك التطور لنستطيع أن نزن بميزان صحيح حقيقة العلاقات التاريخية بين العروبة والإسلام ماذا فعلت العروبة للإسلام؟ وماذا قدم الإسلام للعروبة؟ لا يمكن تصور أيهما دون الآخر، ولكن هناك فوارق وحدود، فأين نضع تلك الضوابط وكيف؟ جميعها أسئلة يجب أن نواجهها ونحن فى مرحلة مراجعة قاسية مع الذات، لنصل إلى تلك الشفافية التى وحدها سوف تسمح للأجيال القادمة أن تسطر أروع صفحات البطولة الفكرية.

ولكن مهلاً يا بنى، فالفكر فى حاجة فى بنائه إلى التؤدة والتأنى والمعاناة، وليس فقط الإيمان والثقة، ومع ذلك سوف أظل أصرخ، سوف أظل عربيّا

«فهل فهمت لماذا؟»

* * *

(٨)

أمتى والحضارات الخلاقة

سوف أظل عربيًا

أمتى والحضارات الخلاقة

«نعم سوف أظل عربيًا».

وسوف أظل أصرخ مؤمناً بتلك العروبة ، ومؤمنًا أيضًا بأنها اللغة الوحيدة التى سوف تسمح لأمتى بأن تجد مكانتها تحت الشمس فى عالم القرن الحادى والعشرين.

هل هو نوع من التعصب الأعمى؟ هو كبرياء ساذج تأبى علينا إلا أن نتمسك بذلك الذى لا نستطيع تغييره؟ هل هو نوع من التحدى إزاء موجات التشكيك التى خرجت علينا منذ قرابة سبعة قرون متلصصة خافتة فى أول الأمر، قائمة صريحة وقحة فى هذا العصر الذى نعيشه؟

كلا ! إن منطق العروبة خليط من العقل والتجرد من جانب ، والعاطفة والإيمان من جانب آخر، ولغة المصلحة والمنافع من جانب ثالث، سوف يجد أيضًا على هذه الصفحات أولئك الذين تعودنا أن نطلق عليهم رجال «الزفة السياسية» وفعلهم ما يرضى شهواتهم، ولكن مهلاً يا بنى، فإن منطق العروبة السياسية المتعدد الأبعاد المتنوع المداخل، سوف يفيض فيغرق الجميع، كل باللغة التى لا يفهم سواها.

مما لا شك فيه أن التساؤلات التى تطرحها العروبة السياسية عديدة، منها تساؤلات لا بد وأن تكون الإجابة عليها واضحة صريحة وقاطعة :

أولاً: من هو العربى؟

ثانيًا: أين حدود الوطن العربى؟

ثالثًا: لماذا لغة الوحدة العربية هى منطق التعامل المعاصر؟

رابعًا: أين العروبة من الإسلام؟ ماذا قدمت العروبة للإسلام بعبارة أخرى؟

خامسًا: وماذا قدم الإسلام للعروبة؟

«أسئلة خمسة يجب على كل تصور قومى الإجابة عليها؛ لأن هذه الإجابة هى وحدها التى سوف تسمح بأن نصل إلى تحديد مضمون القومية العربية بدقة وصرامة. ورغم ذلك فلا يجوز أن نستهين بالإجابة على هذه التساؤلات، إنها فى حاجة إلى معاناة معقدة من حيث العناصر، ومتابعة فكرية متعددة من حيث الحلقات.

على أن نقطة البداية أو المقدمة التى يجب أن ننطلق منها تتمثل فى العودة إلى التاريخ نستلهم منه موضع حضارتنا العربية فى نطاق الحضارات الأخرى، لقد سبق ورأينا أن أمتنا هى أمة القيم، وأن هذه الأمة هى وحدها صاحبة الوظيفة الحضارية. فلنكمل هذا الإطار بأن نطلق الصفة الثالثة بأن هذه الحضارة العربية الإسلامية هى وحدها الحضارة الخلاقة.

هل تعتقد يا بُنى أننى أبالغ؟ إذن فتعال معى نستعيد صفحات التاريخ، ونطرح هذا التساؤل: متى تكون الحضارة كبرى وخلاقة؟ ما هى تلك الخصائص التى إذا توفرت فى حضارة معينة استطعنا أن نصفها بأنها حضارة خلاقة قدمت للفرد وللإنسان ما هو فى حاجة إليه، فأشعرته بتكامل الكيان الذاتى، وبتحقيق أهدافه فى الحياة الدنيوية والأخروية، وأن يستخدم فى طمأنينة وثقة ما مكنته الطبيعة من قدرات وإمكانيات؟

لو انطلقنا من التفكير المجرد العقلانى، ودون أن نتأثر فى هذا بعقيدة دينية معينة، أو بنعرة عصبية محددة، لكان علينا أن نمركز تحليلنا حول خمسة عناصر أساسية هى التى أنتجت مفهوم التكامل الحضارى الذى كان لا بد وأن يفرض ذلك الإيقاع الذى بدوره يجعل من ذلك النظام أو تلك الحضارة موضعًا للإعجاب والاستحواذ. مما لا شك فيه أن الإنسانية عرفت الكثير من الحضارات التى سطرت صفحات ناصعة، بغض النظر عن قوتها وضعفها. كذلك فإن كل حضارة لا بد وأن تشعر ـ وعن قناعة ما ـ بأنها خير من

غيرها. ولكن لو تركنا جانبا هذه الناحية وتساءلنا بتجرد مطلق: ما هى الخصائص التى يجب توافرها فى حضارة ما لكى يمكن وصفها بأنها حضارة «خلاقة»؟ إن هذه الخصائص تدور حول العناصر التالية ما يسمح باكتشاف وتبويب الحضارات الإنسانية:

أولاً: الطبيعة العالمية للحضارة.

ثانيًا: أن تؤسس الحضارة وجودها على قوتها الذاتية.

ثالثًا: أن تسعى لبناء نظام متكامل متميز من الأخلاقيات والمثاليات.

رابعًا: منطق دعوتها هو العملية الاتصالية.

خامسًا: عنصر الاستمرارية والثبات، بغض النظر عن النجاح من عدمه، وعن التقدم من عكسه.

الحضارة الخلاقة هى الحضارة العالمية: إنها لا تخاطب فردًا بعينه، ولا فئة بعينها ولا تعيش عصرًا بعينه، إنها تتجه إلى الإنسان، حيث لا تتقيد لا من حيث المكان ولا من حيث الزمان. كذلك هى تقوم على أساس بنيانها الذاتى، وقوتها الذاتية. وهذا يعنى أنها لا تستعين بالآخرين، ولا يعنى ذلك أنها لا تقبل خبرة الآخرين، ولكن الذى يعنينا أن نتذكره بهذا الخصوص أنها لا تطلب من الآخرين أن يؤدوا دورها.

فالحضارة الأنجلو سكسونية مثل واضح للتعبير العكسى لهذا المتغير: حاربت بأبناء الهند، وعاشت تمتص دماء الآخرين، وكان من الطبيعى من ثم أن تكون هزيمتها، ومن ثم اختفاؤها من عالم الحضارات الكبرى فى لحظة انتصارها العسكرى. كذلك فإن جميع الحضارات الكبرى الخلاقة تبرز حقيقتها المعنوية عندما نرى كيف ارتبطت تلك الحضارة بنظام متكامل من المثاليات والأخلاقيات، فالحضارة اليونانية جعلت من الفلسفة والحكمة محور الكمال، وغلفت ذلك بالجمال والتناسق. والحضارة الرومانية ألّهت القوة، وجعلت مفهوم السيطرة والعنف والدماء هو منطق تعاملها ونظرتها للوجود الإنسانى، ليس فقط على مستوى الجماعة، بل وعلى مستوى الفرد أيضًا. يأتى فيكمل ذلك ويثير نوعًا من التساؤل ويفرض العديد من علامات الاستفهام، منطق التعامل فى هذه الحضارة: هل هو الإكراه أم الإقناع؟ الحضارة الحقيقية التى تستطيع أن ترسب معالم استمراريتها هى التى تجعل منطلقها الإقناع والاقتناع. الخوف

والرهبة لا يخلقان العلاقات الطبيعية ولا بد وأن يتقلص عندما يختفى مصدر ذلك الخوف، وتلك الرهبة. والإقناع والاقتناع هما المحور الحقيقى لخلق التماسك وتدعيم التعاون ونشر الروابط، كل هذا يقود إلى حقيقة المتغير الخامس، وهو عنصر الاستمرارية، فالحضارة التى تأتى وتختفى لا بد وأن يصيبها عنصر الفناء. قد تضعف فى لحظة معينة ثم تعود فتشتد فى مرحلة أخرى، ولكن أن تنقرض إلى غير رجعة، وأن يمحى كل ما يعبر عن آثار وجودها الحى، فإن هذا يعنى أن تلك الحضارة ينقصها شىء، لا يعنينا البحث عن ذلك العنصر الغائب، ولكن الذى يعنينا أن نؤكد عليه أن الاستمرارية حتى فى حالة الضعف هى علامة القوة.

ما هى الحضارة الأخرى التى جمعت هذه العناصر الخمسة، سوى حضارة آبائى وأجدادى؟ الحضارة العربية الإسلامية؟!

أين حضارة آبائى من النماذج الأخرى المختلفة للحضارات الكبرى؟

الحضارة العربية الإسلامية آمنت واتصفت بخصائص ثلاث لم تستطع أية حضارة كبرى أخرى أن تجمعها فى متغيرات وظيفتها الحضارة:

أولاً: منطق الانفتاح الذاتى.

ثانيًا: منطق الحوار الحضارى.

ثالثًا: الاستمرارية التاريخية.

حضارة آبائى حضارة منفتحة، تقبل أن تتعلم من كل حضارة أخرى. هى لا تفرض فقط المنطق والعقل، بل هى تفرض على الإنسان أن يعمل فقط بعقله، وأن يطلق قدراته الذهنية ليس فقط لاكتشاف الحقيقة، بل ولإصلاح ذاته. عليه أن يحاول بجميع قدراته الذهنية أن يرتفع بسلوكه إلى النموذج المثالى الذى اكتشفه بعقله ومنطقه. وهو يستطيع أن يكتشف الحقيقة، بل ويجب أن يبحث عنها فى جميع أنواع المعرفة وفى أى موضع وجدت فيه تلك المعرفة، كم من علمائنا العرب تعلموا من فارس وبيزنطة، ويعلن الشافعى أنه عقب أن عاش بمصر غيّر مذهبه، ولا يتردد البيرونى فى أن يحث أبناء جيله على أن يذهبوا ليتعلموا الخبرة من الهند.

الانفتاح إنما يعنى احترام الآخرين، والنظرة إلى كل فرد على أنه إنسان، وكل إنسان على أنه قيمة فى ذاته، بغض النظر عن لونه وجنسه، هل نحن فى حاجة إلى تقديم نماذج

وأمثلة لتأكيد هذا المعنى ودلالته؟ لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى، والدعوة تتجه إلى كل إنسان، والخطاب يبدأ: «يا أيها الناس». مرد ذلك فى حقيقة الأمر إلى أن تعاليم دينى تقوم على أساس اعتبار الإنسان أينما كان خليفة الله فى الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ [البقرة: ٣٠]. هذه التقاليد كان لا بد وأن تقوم على مبدأ الحوار الحضارى، وأن تجعل منها منطلقها فى فهم الوجود الإنسانى، وتنظيم التعامل السياسى. إن قصة الحوار الحضارى فى التاريخ الإسلامى لم تكتب بعد، ولكن فلنتذكر بعض الملامح من الوقائع التاريخية المتداولة:

فهناك حركة «رُسُل محمد ﷺ» لدعوة الدول المجاورة إلى الدخول فى الدعوة الإسلامية. وهناك قصة القاضى الباقلانى وحديثه وسفارته إلى بيزنطة.

وهناك ذلك الحوار المشهور بين الخليفة الكامل الأيوبى و «فريدريك» الثانى ملك صقلية.

وهناك رسالة ابن تيمية إلى ملك قبرص. ورغم أننا سوف نعود إلى هذه النماذج كل على حدة فيما بعد، نحللها لنكتشف منها الرحيق الحقيقى لحضارة آبائى. إلا أنه يكفى ولو مؤقتاً أن نستمع إلى عبارة وردت على لسان ابن تيمية وهو يكتب إلى الملك غير المسلم، والذى لا يقبل الإسلام: «نحن قوم نحب الخير لكل أحد، ونحب أن يجمع الله لكم خير الدنيا والآخرة. فإن أعظم ما يحمد الله نصيحة خلقه، ولذلك بعث الله الأنبياء والمرسلين. ولا نصيحة أعظم من النصيحة فيما بين العبد وبين ربه، فإنه لا بد للعبد من لقاء الله، وأن الله سيحاسب عبده، فالدنيا أمرها حقير، وكبيرها صغير، وغاية أمرها يعود إلى الرئاسة والمال، وغاية ذى الرئاسة أن يكون كفرعون الذى أغرقه الله فى اليم انتقامًا منه، وغاية ذى المال أن يكون كقارون الذى خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل بها إلى يوم القيامة، لما آذى نبى الله موسى..».

ويعود عقب ذلك إلى موضوع آخر، فيذكرنا بحقيقة وجوهر تلك الحضارة، عندما يقول: «لما خاطبتُ ملك التتار فى إطلاق الأسرى. فسمح بإطلاق المسلمين. قال لى ـ أى: ملك التتار ـ: لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس، فهؤلاء لا يطلقون. فقلت له: بل جميع من معك من اليهود والنصارى هم أهل ذمتنا.. لا ندع أسيراً لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة...».

ولكن هل نستطيع الحديث عن الاستمرارية التاريخية ، بصدد الحضارة العربية الإسلامية؟ قد يبدو لأول وهلة أن الواقع العربى يعبر عن انقطاع ـ خلافًا للتراث الدينى الإسلامى ـ وأن هذا المجتمع منذ نهاية العصر العباسى الأول، أو على أكثر تقدير، المجتمع العربى منذ الفتح العثمانى قد انقطعت صلته بماضيه . على أن هذا غير صحيح .

وهو غير صحيح على الأقل فى شقين : من حيث الوعى الجماعى الذى ظل ثابتًا فى تعلقه بقيمه التاريخية، وتقاليد الممارسة فى حياته الخاصة، ومن حيث اللغة التى ظلت مسيطرة ومتماسكة رغم جميع الغزوات الفكرية والحضارات، وأنواع التسلل إلى المنطقة، ولنتذكر على سبيل المثال ما حدث فى شمال أفريقيا، وفى لبنان، والذى سرعان ما تبخرت نتائجه بالعودة إلى الحظيرة المعنوية للعروبة اللغوية وللتمسك بلغة القرآن .

إن الواقع الذى تعيشه المنطقة العربية هو استمرارية للإطار الاجتماعى الذى عاشته المنطقة قبل ذلك، وهذه الاستمرارية رغم أنها تتضمن سعيًا إلى التجديد، إلا أنها ثابتة فى جميع عناصر الوجود العربى، متغلغلة فى جميع عناصر التطور الذاتى، منتشرة فى جميع أجزاء الجسد العربى .

وإحدى النواحى التى يطرحها الواقع العربى هو علاقة العقل الجماعى بنظام القيم التقليدية، ففى مجتمع كالعربى الإسلامى، استطاعت نظم القيم الدينية أن تترسب فى الوعى الجماعى، وأن تستوعب فى الذات الفردية خلال قرابة سبعة قرون، ما كان يمكن لعملية الغزو الخارجية ـ والتى أخذت شكل كماشة قادمة من الشرق على يد المغول ومن الغرب بفعل الحروب الصليبية ـ أن تمحوها أو تذيبها ، الواقع الجديد الذى فرض على المنطقة وخلال الخبرات التالية والمتلاحقة ، فرض على نظام القيم أن ينتقل ـ ولو فى جزء هام منه ـ من الشعور والوعى والممارسة إلى اللاشعور والباطن وعدم الممارسة . رغم ذلك فقط ظل متوهجًا ينتظر اللحظة المناسبة ليتفجر كأسلوب للحياة .

الأحداث المتلاحقة زادت فى تعميق عملية الاستيعاب الداخلى، فعقب الغزوات المتلاحقة من الشرق والغرب خضعت المنطقة لنوع جديد من التسلل هذه المرة باسم

الإسلام عن طريق الفتح العثماني. خلال هذه المرحلة الجديدة أصاب العقل الجماعى العربى نوعًا من التمزق والانفصام بين الانتماء الحقيقى والقيم الحقيقية، والانتماء المصطنع الجديد، وما ارتبط به من قيم لا تعبر عن نموذجه التقليدى وإن كانت تزعم ذلك. ثم أعقب هذه الفترة ـ فترة الفتح العثمانى ـ موجة الاستعمار الأوروبى، حيث أضحى الصراع عنيفًا صريحًا واضحًا، ولكنه ظل خلال فترة معينة فى الوعاء الذاتى المستتر، حيث المنطقة كانت قد فقدت الذات القومية بسبب ضربات الاستعمار، وقد ضخم من ذلك أن شطرًا مهمًا من أبنائها قد انتقل بلا حياء إلى الطرف الآخر فى الصدام الحضارى، متمسكًا بأهداف نظم للقيم لا موضع لها فى تقاليد وقيم المنطقة، لكن مجموعة الأحداث التى بدأت مع أوائل القرن التاسع عشر فى مصر ظلت تتسع دائرتها تدريجيًا ـ رغم لحظات الهزيمة ـ حتى وصلت المنطقة إلى خاتمة الربع الثانى من القرن العشرين، فإذا بالوعى قد عاد إلى الذات، وإذا بالعودة إلى نظام القيم التقليدية تصير إحدى متغيرات الوجود العربى.

إنها عملية انتقال لتلك القيم من الباطن إلى الخارج، من اللاوعى إلى الشعور، من العقل الجماعى إلى المنطق الفردى، من التمويه والتستر إلى الممارسة العلنية اليومية. ولكن ككل عملية إحياء، فإن اليقظة تفرض التقلصات والتفاعلات، هذه هى قصة الأحداث التى تعيشها المنطقة منذ بداية القرن التاسع عشر، حتى انفجار الحرب العالمية الثانية، لتعلن بداية المرحلة التى نعيشها، والتى لا نزال نصارع فى خضمها حتى هذه اللحظة.

مثل هذه الاستمرارية لا موضع لها فى أى نموذج آخر من النماذج الحضارية. أثينا انتهت ودخلت ذمة التاريخ رغم عظمتها الفكرية شعبًا ولغة. الحضارة الرومانية ـ أكبر الحضارات المسيطرة فى العالم الغربى وأعظمها قاطبة ـ دخلت متحف التاريخ منذ فترة طويلة، ولم تختلف عن النموذج اليونانى. هذه الحضارة العثمانية لم تعرف كيف تحافظ على ذاتها، ورغم أنها عاشت ـ كالحضارة العربية ـ قيم الإسلام. الاستثناء الوحيد ـ وهو فريد فى نوعه ـ هو النموذج الصينى، ولكن رغم ذلك فالفارق واضح بين: النموذج الصينى المغلق على نفسه، والمتقوقع حول ذاته، أحاط نفسه بالسور العظيم أيضًا فكريًا ووظيفيًا. النموذج العربى متفتح، مؤمن بالأخذ والعطاء، يسعى لنشر دعوته

وعقيدته لخير الإنسانية حتى ولو من خلال الجهاد وتقديم الذات على محراب التضحية فى سبيل أداء وظيفة حضارية من الوظيفة السياسية للعروبة الحضارية.

ماذا قدمت العروبة للإسلام؟ وماذا قدم الإسلام للعروبة؟ وكيف يمكن الدمج بينهما فى إطار فكرى واحد؟

بُنَىّ.. لابد وأنك تتساءل فى خاتمة هذه الصفحات بدهشة وتعجب: كيف؟ هل الأمة العربية هذه التى تلقى عليها كل صباح من جميع أجهزة الإعلام فى العالم صفحات القمامة، هذه الأمة التى أصبح قادتها مثلاً صارخًا للسذاجة والاندفاع والسطحية، هل هى مدعوة لأن تؤدى وظيفة حضارية؟

نعم يا بنى، أمتك تمثل الحضارة الوحيدة الخلاقة، فهذه الأمة أدت وظيفة حضارية. نسيها العالم، وهى التى فى عنقها أن تؤدى وظيفة أخرى فى الأجيال القادمة. قال تعالى: ﴿**كُنتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ [آل عمران: ١١٠].

متى سوف تؤدى تلك الوظيفة الحضارية الجديدة؟ قد يكون فى الغد القريب، وقد يتعين على الإنسانية أن تنتظر عدة أجيال، ليخرج من هذه الأرض من يقود الإنسانية المعذبة إلى الكمال. ولن نستطيع أن نفهم هذه الحقائق إلا لو عدنا للتاريخ مرة أخرى لنسأله: ما هى وظيفة الوجود العربى فى التاريخ الحضارى؟ هناك وظيفة للدعوة الإسلامية تقمصتها العروبة الحضارية. هذه العروبة السياسية هى التى قادت الدعوة الحضارية التى أبلغها القرآن فأينعت وازدهرت، وهى التى عليها أن تستعد للقيام بتلك الوظيفة مرة أخرى؛ لأن العالم المعاصر فى حاجة إلى تحليل هذه الوظيفة على ضوء استقراء التاريخ، وهو الذى سوف يسمح لنا بالإجابة الشافية على تلك المجموعة من التساؤلات التى تنخر ضمير كل عربى: أين الإسلام من العروبة؟ وأين القيم الإسلامية من الوظيفة السياسية للعروبة الحضارية؟ وماذا قدمت العروبة للإسلام؟ وماذا قدم الإسلام للعروبة؟ وكيف يمكن الدمج بينهما فى إطار فكرى واحد؟

ولكن مهلاً يا بنى، فلا نزال فى بداية الطريق.

* * *

(٩)

الأرض العربية والدعوة الإسلامية

«الأرض العربية والدعوة الإسلامية»

«نعم سوف أظل عربيّاً».

بُنَيّ: العروبة ليست مجرد علاقة سياسية، إنها ليست لغة تطلق فى القرن العشرين للتشبه بذلك الإطار الفكرى ـ الذى سيطر على عالم التطور الغربى - الذى عرفته الإنسانية الأوروبية خلال القرن الماضى. هنا نلمس أول أخطاء مفكرينا، فكلمات القومية والعلمانية والديمقراطية مفاهيم استقبلناها لنرددها كالببغاء، ولم يكن ذلك إلا تعبيرا عن عملية التشويه الفكرى الذى عاشته أمتنا خلال قرابة قرن كامل من الزمان.

نحن اليوم نعيش بداية عصر النهضة الحقيقية، والتى تعنى العودة إلى أصولنا؛ لنستقى منها المفاهيم والمدركات، ومن خلالها نسترجع الماضى لنعيشه، بلغة واقع القرن الواحد والعشرين.

إن أمة لا تاريخ لها لا مستقبل لها.

نحن الأمة المختارة بقيمنا وتقاليدنا وتاريخنا، وعلينا أن نعى معنى ذلك جيدا، إن هذا يعنى مجموعة من الحقائق، يعنى أولا أن واقعنا متميز ، وأن الكلمات والتعريفات التى نستخدمها فى التعبير عن ذلك الواقع لها طباعها المتميزة ودلالتها المستقلة، ورحيقها الخاص بها، والأمثلة عديدة. هل يعرف أولئك الذين يدفعون أمامنا بهذه المصطلحات، وقد تصوروا أنهم حققوا ما لم يحققه الأوائل أن كلمة «الدعوة» ـ على سبيل المثال ـ لم تستطع جميع اللغات الأوروبية أن تعبر عنها بذلك الواقع الذى عرفته تقاليدنا، والذى نجده صريحا واضحا فى خطابات الرسول ﷺ ومن قرابة خمسة

عشر قرنا، وهل يعرف هؤلاء السادة أن علماء تلك الحضارة الغربية ـ بكل تفوقها وقدراتها ـ لا يعرفون كيف يترجمون كلمة «الجهاد»، فيستخدمون هذا اللفظ بأحرفهم اللاتينية؟ وهل استطاع فهمهم السياسى أن يؤصل ـ حتى اليوم ـ مفهوم «الأمة»؟ مهلا فلا أريد أن أغرقك فى كنوز العروبة السياسية، وهذه ليست سوى بعض الأمثلة، وسوف تجد الكثير خلال هذه الصفحات التى لا أخاطب فيها سوى العقل، ولا أتحدث فيها إلا من منطلق العلم بوضعيته الصارمة!.

العروبة يا بنى هى علاقة حضارية، أحد أبعادها هو الوجود السياسى، وككل علاقة حضارية فإن ركائزها أربعة:

أولا: الإنسان الذى منه تنبت وإليه تتجه تلك العلاقة الحضارية.

ثانيا: الأرض التى حولها وفيها تكتمل العلاقة الحضارية.

ثالثا: علاقة الانتماء الذى هو جوهر العلاقة الحضارية.

رابعا: الوظيفة التى تعنى انطلاق العلاقة فى محيط الإنسانية، وقد ألغى عنصرى الزمان والمكان.

هكذا العروبة عنصرها الأول: العربى، وعنصرها الثانى: الأرض العربية. العروبة السياسية تصير العنصر الثالث، ثم تأتى الوظيفة الحضارية فتكمل هذا الإطار من المرتكزات الفكرية.

وقفنا فى عملية المتابعة الزمنية لعلمية التطور التاريخى لمفهوم الأرض العربية عند القرن الرابع الميلادى، أو بعبارة أدق عند القرون الثلاثة السابقة على الدعوة المحمدية.

فى ذلك القرن انتقل مركز الثقل فى التطور العام للأرض العربية إلى منطقة الوسط. وخلال تلك الفترة التى تمتد إجمالا منذ نهاية القرن الثالث الميلادى، وحتى القرن السادس سوف تبرز ظاهرة جديدة لم تكن قد عرفتها بعد الإنسانية وهى صراع الأديان.

عودة لتاريخ الجزيرة العربية

منذ البداية نسرع فنؤكد أن تلك الفكرة السائدة من أن الدعوة الإسلامية انطلقت فى أرض خاوية من مفاهيم التعامل مع القوى الغيبية، إنما يعبر عن تشويه للحقيقة

التاريخية، فمنطقة الحجاز كانت تعانى تمزقا فكريا وصراعا عقائديا بعيد المدى، وخلافات متشعبة حول التصور الفكرى للوجود الإلهى، فجاء الإسلام ليحسم تلك الخلافات وليقدم تلك الصورة المتكاملة، التى استطاعت أن تجسد التجاوب الحقيقى مع الضمير الممزق الذى لم يكن بقدرته الذاتية قادرًا على أن يكتشف طريق المثالية، وهكذا نفهم حقيقة الوظيفة التاريخية التى تتمركز حول مكة «أم القرى» فإذا كانت «أثينا» قد دفعت الإنسان لأن يتجرد ويسعى بمنطقة الذات لاكتشاف حقيقة الوجود ومنطق الإنسانية، وإذا كانت «روما» قد جاءت لترفض كل ما يمكن أن يتصل بالفلسفة والتعامل الميتافيزيقى، وتجعل من الحسيات مناط الإدراك الحقيقى للوجود الإنسانى، وتحيل القوة إلى حق، وتجعل من العنف والسيطرة محورا للتطور البشرى، فإن «مكة» لم تتردد فى أن تعلن بأن وظيفة الإنسان هى أن يؤدى ـ وعن قناعة ـ تلك المهمة التى عهدت بها إليه القيادة الربانية لتحقيق الارتقاء والعلو تمثلاً واستمرارية لجوهر الوجود، الذى هو «الإله» فى عظمته، وقبل أن نصل إلى تحليل معنى هذه الوظيفة الحضارية فلنتابع كيف تلقفت «مكة» تلك الوظيفة وكيف أعدتها لها الأوضاع الجغرافية والتاريخية.

حول القرن الثالث الميلادى بدا ما نسميه: الصراع فى سبيل الأرض العربية. ونقصد بذلك: الصراع الفكرى حول استيعاب تلك المنطقة فى دائرة النفوذ الدينى وفى ذلك القرن. وقد سبق أن رأينا كيف أنه مع هزيمة الملكة «زنوبيا» حدث انقراض للقدرة العربية، سواء فى الشمال حول الدويلات التابعة العربية، أو فى الجنوب حول اليمن. هذا الانقراض أتاح للمنطقة الوسطى أن ترفع من هامتها، لقد تعود أهل هذه المنطقة الوسطى خدمة الجانبين، ونقل التجارة من الجنوب إلى الشمال أو من الشمال إلى الجنوب، خدمة القوافل، ثم القيام بالعمليات الوسيطة المتعلقة فى بعض الأحيان بتحويل البضائع الواردة من الجنوب إلى الشمال، أو من الشمال إلى الجنوب تبعا لخصائص المستهلك، ولكن وقد ضعف كل من الجنوب والشمال، فقد بدأ رجل المنطقة الوسطى يتطلع إلى التعامل على قدم المساواة، وساعد على ذلك اكتشاف الحصان، لم يعد رجل هذه المنطقة مجرد تاجر وخادم، إنما أضحى مقاتلا، بل وأضحى طرفا خطيرا فى التعامل، يقف من رجل اليمن المتحضر ورجل الشمال المتسلط موقف المساواة والتحدى، وعقب أن كان الجمل ـ أى سفينة الصحراء ـ قد استطاع أن يربط الجنوب بالشمال، إذا بالحصان يخلق تقاليد القتال، ويمهد للقدرة والصلاحية للغزو والاستيلاء.

ترى هل كان ذلك أحد أسباب انتقال بعض القبائل واستقرارها فى المناطق الشمالية؟

كذلك يرتبط بهذا التحول الاجتماعى، انهيار «سد مأرب» فى الجنوب الأمر الذى كان لا بد وأن يقود ليس فقط إلى إضعاف المنطقة الجنوبية، بل أيضا يقود إلى حركة تنقل من الجنوب إلى الشمال، الأمر الذى دفع بعملية تعريب قوية ـ ودمج فكرية عميقة المدى ـ بين الجزأين من أجزاء شبه الجزيرة .

الصدام بين الأديان

على أن المتغير الأساسى الذى فرض الصراع الفكرى هو أن هذه المنطقة تحولت إلى ميدان صدام بين الأديان، بدأ ذلك الصدام كنتيجة مباشرة لهدم المعبد، وغزو الحركات الكاثوليكية، وهو أمر يعود إلى نهاية القرن الأول عقب الميلاد، فهدم المعبد فرض على اليهود الهجرة إلى خارج فلسطين، وكان من الطبيعى أن تتجه تلك الهجرة إلى وسط شبه الجزيرة العربية، ففى القرن الثالث نجد اليهودية متغلغلة وقوية فى جميع أجزاء شبه الجزيرة، وعلى وجه الخصوص فى بعض المناطق كاليمن، ويثرب التى سوف تصير فيما بعد مدينة رسول الله ﷺ ، وعندما أضحت الإمبراطورية الرومانية دولة كاثوليكية، فقد كان من الطبيعى أن يبدأ الصدام بين الديانتين، وحول العهد القديم من جانب، والعهد الجديد من جانب آخر، وإذا كانت اليهودية قد وجدت مرتعا فى «اليمن» بسبب العداوة التقليدية بين تلك المنطقة وكلٍّ من الإمبراطوريتين البيزنطية من جانب والحبشية من جانب آخر، فإنه من الطبيعى أيضا أن هذه الإمبراطوريات المسيحية لا بد وأن تسعى إلى أن تنازل خصومها فى عقر دارهم .

الحقائق التاريخية لا تزال غامضة، ترى هل غزو الرومان لشبه الجزيرة العربية ـ الذى انتهى بالفشل ـ وهل غزو «الحبشة» أيضا لنفس تلك المناطق ـ والذى تحدثت عنه الوثائق المقدسة بالكثير من التفاصيل ـ يعود أيضا إلى ذلك الصراع الدينى؟ على أن الصراع الفكرى ـ بهذا المعنى ـ لم يقتصر على الصدام بعيد المدى متعدد المظاهر بين اليهودية والكاثوليكية، بل ارتبط به أيضا غزو من نوع آخر، أتت به الوثنية الفارسية، بما لها من تصورات دينية مختلفة ومتباينة .

لا نريد أن نتطرق إلى التفاصيل التاريخية، فليس هذا موضعها، ولكن الأمر الذى لا شك فيه أنه خلال القرن الرابع الميلادى كان هناك إيناع الكاثوليكية التى تحدثت بخصوصها الوثائق عن مهمة ضخمة قام بها القس «تيوفيلوس أندوس» حيث وجدت كنائس عديدة فى كل من «ظفار وعدن» دون الحديث عن مدينة «نجران» الكاثوليكية.

هذا الإيناع ظل فى تزايد حتى نصل إلى نهاية القرن السادس للهجرة فنعاصر المذابح المشهورة التى حاولت استئصال المسيحيين من تلك المدينة. فى القرن السادس الميلادى ارتفعت الكاثوليكية إلى قمتها من القديس «حارس بن كعب» ومع كنيسة تلك المدينة التى تعبر عنها النصوص باصطلاح «كنيسة نجران» بل إن هذه النصوص تذكرنا بحملة صليبية سابقة على الإسلام قادها نجاشى الحبشة، وهنا علينا أن نلحظ أن المنطقة عرفت صراعا دينيا بين مفهومين للمسيحية: مسيحية عربية، وأخرى شرقية.

اليهودية استقرت فى اليمن - كنتيجة للعداوة التقليدية بين اليمن والحبشة - ولكنها أيضا أقامت نظاما يكاد يكون نظاما سياسيا متكاملا فى مدينة «يثرب» ولم يتردد اليهود فى العمل على نشر دينهم فى مختلف أجزاء شبه الجزيرة، على أن الذى يعنينا أن نلاحظه - بذلك الخصوص - هو أن اليهودية نقلت معها ليس فقط الفلسفة اليونانية، بل وكذلك تقاليد الفكر السياسى والحضارة الشرقية كما صاغتها مدرسة الإسكندرية، وهكذا نلحظ خلال القرنين الرابع والخامس انتشارًا وتأثيرًا واضحا فى اللغة العربية، وفى التصورات والعقائد وتعاليم التوراة، وما جاء فيها أيضا من أساطير وخرافات، والواقع أن شبه الجزيرة العربية - وبصفة خاصة فى القسم الأوسط - عرفت منذ النصف الثانى من القرن السادس الميلادى حركة صراع فكرى عميقة المدى، مهدت للدعوة الإسلامية، وخلقت الإطار الفكرى من التمزقات والتساؤلات التى مهدت لاستقبال وإيناع تلك الدعوة.

والخلاصة أنه بنهاية القرن السادس الميلادى، فإن عالما جديدا سوف يتمركز حول المنطقة الداخلية لشبه الجزيرة العربية، عالم تتحكم فيه القدرة العربية الأصيلة بمعنى الإدراك البدوى فى تقاليده النقية، فعقب الثورة التجارية التى فرضتها «اليمن»، ثم الثورة الإستراتيجية التى قادت إليها إمارات الشمال، نعيش مع حركة فكرية ضخمة فى أرض الحجاز هى التى مهدت وقدمت للدعوة الإسلامية. إنها ثورة ثقافية تدور حول أبعاد ثلاثة كل منها يكمل الآخر:

أولا : الوحدة السياسية .

ثانيا : تدعيم القيم .

ثالثا : نشر مفاهيم الرفاهية فى التعبيرات اللغوية .

أول عناصر هذه الثورة الثقافية، هو مفهوم الوحدة، أو بعبارة أدق الشعور بأن منطقة شبه الجزيرة - رغم تعدد عناصرها، وتباين قبائلها - تكون حقيقة واحدة، على الأقل من النواحى الثقافية والفكرية، هذا المتغير المعنى هو الذى مهد لقيام الدولة العربية، والقومية فى آن واحد عقب أن تمكنت المفاهيم الإسلامية من خلق الإدراك بالوظيفة الحضارية، وبصفة خاصة خلال العصر الأموى .

العنصر الثانى: هو نظام القيم، نظام تسوده مفاهيم المروءة وشهامة الفروسية، نظام تسوده قيم البداوة فى معناها النقى، سوف نرى فيما بعد أن البدوى يمتاز بعناصر معينة - من حيث التعامل مع الآخرين - يسيطر عليها مفهوم التناقض .

يأتى **العنصر الثالث** فيكمل هذا الإطار : اللغة وعناصر التعبير اللفظى، حيث برع العربى فى كل ما له صلة بفنون الأدب اللفظى، حتى إن كثيرا من علماء التحليل النفسى جعلوا من هذه الناحية أحد عناصر الطابع القومى العربى؛ إن كلمة العربى فى أصلها تعنى الفصاحة، والعربى برع فى هذه الناحية حتى إنه يكاد يقدم نموذجا متميزا فى التاريخ البشرى للقدرة على التعامل الأدبى، المعلقات السبع هى عالم مستقل بذاته من حيث القدرة الفنية، الواقع أن العربى تعود الفصاحة والارتجال فى نموذج متميز فرض نفسه على اللغة العربية ذاتها، حتى إننا ليتملكنا الإعجاب من الثراء الذى تميز به معجم اللغة القديمة، ولعل هذا يفسر كيف أن أداة القدرة الأدبية فى المجتمع العربى قبل الإسلام هو الشعر، وكيف كان ميلاد الشاعر فى المجتمع الجاهلى يوم تحتفل به القبيلة، الشاعر فى الجاهلية هو العالم، وهو موضع الفخر من جانب المجتمع، وهو أداة القبيلة للفخر وللتنافس .

العروبة . . . . . فالإسلام :

على أن هذه الثورة الثقافية لا يجوز أن تجعلنا ننسى خصائص الوجود السياسى وكيف تفاعل مع ذلك التطور الثقافى، لتحديد ملامح المجتمع العربى قبل الإسلام، فالعلاقات التجارية بين الجنوب والشمال فرضت على مدن المنطقة طبيعة متميزة تطرح

بدورها العديد من التساؤلات، فالمجتمعات القديمة ـ وحتى اليوم ـ عرفت أساسا نوعين من المدن: المدن الإدارية، والمدن الصناعية، الأولى حيث يوجد الحاكم وأعوانه، وحيث المدينة تنشأ فى قلب المجتمع الكلى حيث تلتقى طرق المواصلات، والثانية تقع بجوار الثروة الطبيعية من مناجم أو ما فى حكمها، ولكن الاقتصاد القائم على الخدمات ـ وبصفة خاصة الخدمات التى هى فى حكم الخدمات السياحية ـ لم تعرفها المجتمعات القديمة، بل ولم تعرفها المجتمعات الحديثة إلا منذ فترة قصيرة، وبرزت بشكل واضح فى الأعوام الأخيرة، وبالذات فى الدولة اليهودية مدينة للخدمات تصير ملتقى للقيام بالأعمال التجارية والمصرفية، أو هناك ما فى حكمها وما يرتبط بذلك من لقاءات سياحية، هذا هو المفهوم الذى يسيطر على التصور الإسرائيلى اليوم لكل ما له صلة بالمستوطنات.

ولو عدنا إلى تقاليد منطقة الحجاز ـ خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين ـ لوجدناها تذكرنا بهذا النموذج للتعامل، فـ (مكة) وما حولها من مدن، وهى فى الواقع مدينة القوافل، ومعنى ذلك أنها نقطة تستقبل التجارة الآتية من الجنوب والمتجهة إلى الشمال، أو الآتية من الشمال والمتجهة إلى الجنوب، حيث تتوقف القوافل استعدادا للقسم الآخر من الرحلة، وحيث يتم إخضاع التجارة إلى نوع من التعامل لإعدادها للمستهلك الذى سوف تصب فى يديه تلك السلع فى نهاية المطاف، وهكذا وصفت «مكة» بأنها جمهورية تجارية، وكان من الطبيعى ـ كنتيجة مباشرة لهذا التعامل بخصائصه السابقة ـ أن يحدث ليس فقط ازدهارا فى التبادل التجارى، بل وكذلك تفاعلا فكريا أضفى على المنطقة نوعا من القدسية، بل ويمكن القول بأن هذا الإطار للتطور كان لا بد وأن يزيد من تقوية العناصر الوجدانية لمفهوم الوحدة العربية، تطورات مختلفة جميعها أعدت لاختيار عاصمة أرض الحجاز لأن تكون مبعث الشعلة الإسلامية.

ما هى النتائج التى نستطيع صياغتها فى ضوء هذه المتابعة التاريخية للتعريف بالأرض العربية قبل الدعوة الإسلامية؟

أولا: العروبة ـ كظاهرة قومية ـ أقدم من الإسلام، وارتباطها بالدين الإسلامى ليس إلا تعبيرا عن مرحلة معينة، تعقبها مرحلة ارتباط بالحضارة الإسلامية، وهى جميعها حقائق فى حاجة إلى تحليل ودراسة متأنية.

ثانيا : العربى يعكس ظاهرة أكثر اتساعا من الأرض العربية ، والأرض العربية ليست مجرد شبه الجزيرة العربية ، هذه العلاقات تختلف فى دوائرها المتعددة تبعا للمراحل التاريخية المختلفة ، ويجب أن نعالجها أيضا فى بعدها المعاصر ، من منطلق مفاهيم تختلف أو تتنوع وتستقل عن دلالة هذه العلاقة التاريخية . وكما أن العربى يجب أن يعرف بوضوح فى عالمنا المعاصر ، فكذلك الأرض العربية يجب أن تحدد وبدقة فى عالم الصراع بين العمالقة الذى تعيشه العلاقات الدولية فى نهاية القرن العشرين .

ثالثا : العلاقة بين «مصر» وأرض العروبة أكثر قدما من الغزو الذى تواضعنا على جعله مبدأ تلك الصلة ، وهو فتح مصر من جانب الجيوش الإسلامية بقيادة عمرو بن العاص . «زنوبيا» الملكة العربية حكمت «مصر» حيث مكنت الحضارة العربية من السيادة خلال قرابة ربع قرن . الملكة «كليوباترا» عندما فكرت فى الهرب كان تخطيطها أن تلجأ إلى شبه الجزيرة العربية ، ماذا يعنى ذلك؟ التاريخ يثبت أن من تولى استخراج واستغلال مناجم الذهب فى شبه الجزيرة كانوا فراعنة «مصر» . علاقة التوحيد نبتت فى مصر وانتقلت إلى شبه الجزيرة قبل نزول الأديان واختيار شبه الجزيرة لقيادة الإنسانية المعنوية .

رابعا : الصراع الدولى حول الأرض العربية ـ بين القوى العظمى ـ ليس حديثا ، ولا يرتبط فقط بالعصور الوسطى ، بل عرفته أيضا العصور القديمة فى نموذج يكاد يعبر عن الواقع المعاصر ، حيث كان الفرس هم قوى الشرق ، وقياصرة الرومان يمثلون أجداد الحضارة الغربية .

خامسا : الحضارة العربية أينعت وقدمت نماذج للتطور المعنوى والفكرى جديرة بالاهتمام أيضا قبل الدعوة الإسلامية .

وهنا يصير التساؤل المشروع الذى يفرض نفسه : أين الإسلام من العروبة؟ وأين العروبة من الإسلام؟ كيف استطاع كل منهما أن يقدم للآخر ما ينقصه ليخلق ذلك المزيج الذى استطاع أن يتنامى ليزلزل جميع الممالك من حوله ، ويخلق أعظم نماذج الوجود السياسى فى تاريخ الإنسانية؟ وللحديث بقية .

* * *

(١٠)

أين العروبة من الإسلام؟؟

«نعم سوف أظل عربيا».

سوف أظل أقف شامخا بتلك العروبة، فخورًا بذلك الانتماء، مترفعًا عن سذاجة أولئك الذى سقطوا بلا وعى، فى فخ أعدائنا التاريخيين، فإذا بهم عقب أن أخضعوا لعمليات غسل المخ المقنعة أقرب إلى الممثلين الهزليين، يلبس الواحد منهم ثوبا ليس له، ولا يعبر عن ذاته الحقيقية، إن من وظيفتنا أن نزيل عمليات التسميم الفكرى التى أخضع لها أولئك، فهم جزء منا، ولم نفقد الأمل بعد فى أن يعودوا إلى منزل الآباء، يعلنون التوبة ويطلبون الصفح، وقد فهموا حقيقة المأساة التى تردوا فى جنباتها، بعد أن قادوا أمتنا إلى أن تدفع ثمن أخطائهم بدم أبنائها، بل وبكبريائهم.

سوف أظل عربيّا؛ لأننى كلما أخضعت التاريخ البشرى وقصة الإنسانية لنظرة متأنية، إذا بى أعود أكثر تمسكا وأكثر تعلقا بتلك الأصالة، وبذلك الانتماء، ولا أخرج من حوار فكرى إلا وأنا مشفق على أولئك الذين يعتقدون أنهم تحضروا، فإذا بهم يلقون بنا فى متاهات الإنسان المتخلف.

لقد عدنا إلى التاريخ البعيد نسأله من هو العربى؟ كذلك عرفنا فى ضوء تلك الخبرة وما قدمت من تراكمات معنى الأرض العربية، ورأينا كيف أن هذين المفهومين لا يتطابقان، وأن كليهما سوف يقدم للتعريف وللتحديد بمعنى القومية العربية، ويجب علينا تحديد العلاقة بين العروبة والإسلام؛ لأنه شرط ضرورى ولازم، حتى نستطيع أن نقنن ـ بصورة محددة المقاطع والمتغيرات ـ مفهوم القومية العربية. عدم وضوح هذه العلاقة مكنت خصومنا من عملية تشويه مقنعة، ولكن بعيدة المدى، هذا التشويه أدى

إلى إضعاف موقفنا فى السابق بمواجهة التحدى الأوروبى، ومهد للاستعمار الغربى، ولولا ذلك لما حدثت مأساة فلسطين، واليوم تتم العملية ذاتها من خلال إبراز القومية العربية على أنها تعبير عن عنصرية تتجافى وتتعارض مع الإسلام، وهذا بحد ذاته ليس إلا عملية تشويه مقنعة الهدف، منها إضعاف الجبهة العربية تمهيدا لاختراقها، وفرض تمزق آخر عليها من نوع آخر، وفكرنا السياسى غير قادر على أن يواجه هذا التحدى ويكشف عن حقيقته، ويرفع الغشاوة عن أعين أولئك الذين سقطوا فى الفخ بلا وعى ولا تدبر.

ولكن نقبل التحدى.

العروبة والإسلام . . والعلاقة المركبة:

مرة أخرى نعود إلى التاريخ نستجوبه ونستهدى منه الإجابة، لنرفع الغشاوة، ونحن نحاول أن نفهم الواقع الذى تعيشه أمتنا فى الربع الأخير من القرن العشرين.

العلاقة التاريخية بين العروبة والإسلام فى حقيقة الأمر علاقة مركبة، فهناك أولا أثر الإسلام فى العروبة، وكيف طور تلك العروبة السابقة على الإسلام ذاته بعدة قرون من حيث المفهوم أولاً ومن حيث تشكيل ظاهرة الانتماء بخصائص معينة ثانيا، ولكن من ناحية أخرى هناك منجزات معينة للإسلام، لم يستطع أن يحققها ذلك الدين دون تلك العروبة التى قدمت للإسلام مجموعة من العناصر، تفاعلت مع جوهر الدعوة لتساهم فى تطور دعوة الإسلام، ولتفرض على ذلك التطور مذاقا خاصا، لتحقق ذلك البناء المتكامل الذى نصفه الآن بأنه تراثنا التاريخى والقومى، هذا التطور يملك أبعاده المتعددة، وأحد هذه الأبعاد التى تعنينا فى هذا النطاق على وجه التحديد هو مفهوم الدولة ذاتها، أى ذلك البناء الذى تمركز حول الوظيفة الحضارية للدعوة الإسلامية.

متابعة هذه الأبعاد الثلاثة، سوف تفصح عن حقيقة العلاقة بين العروبة والإسلام كما سجلتها خبرة الأحداث المتعاقبة منذ أكثر من عشرين قرنا ـ وحتى اليوم ـ فى حلقات متتابعة من التطور، فلنحاول أن نفهم دلالة هذا التطور ولو فى معناها العام.

(أ) أول تساؤل لا بد وأن نطرحه: ماذا فعلت العروبة للإسلام؟ ماذا قدمت لتدعيم تلك الثورة الإسلامية التى فرضها القرآن مع الدعوة المحمدية؟ لو أردنا أن نحدد عناصر

العروبة إزاء الإسلام، أو بعبارة أخرى: ما فعلته العروبة لتدعيم الدين الإسلامي - بحيث أضحت العروبة بمثابة القلب لتلك الحضارة ولذلك التراث - لكان علينا أن نعود إلى حقائق ثلاث يجب علينا أن نعي معناها ودلالتها الحقيقية في ذلك البناء الشامخ:

أولا: اللغة حيث يصير القرآن أداتها المعبرة، بل وبحيث فقط من خلاله تحول الكتاب المنزل إلى منطق عربي ثابت: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢)﴾** [يوسف: ٢]. لقد نزل القرآن باللغة العربية، واستخدمت العربية للتعبير عن مدركات الدعوة الإسلامية، واللغة ليست فقط رموز وألفاظ، إنها مدركات يتكون منها نظام كامل للتعامل الذهني من التصور للحقيقة، وهل يستطيع اليوم غير العربي أن يبلور منطق الإسلام إلا من خلال تلك اللغة التي هي لغة القرآن، إنها الأداة المعبرة عن منطق ثابت وهو منطق العروبة اللغوية.

ثانيا: كذلك فإن هذه العروبة هي التي قدمت التصور والمدركات الفقهية. الفقهاء - أي أولئك الذين أقاموا صرحا كاملا لقواعد التعامل والممارسة - إنما عاشوا على لغة القرآن ومدركاته، أو استطاعوا من خلال التعامل فقط مع ذلك التراث العربي لغة ومفهوما وإدراكا، واستنادا إلى الاستنباط الفكري والقياسي المتخصص المستند إلى جوهر التعاليم القرآنية أن يبنوا ذلك الإطار للممارسات اليومية، الذي تميز بالتكامل والتفريع والتناسق في آن واحد، وهل استطاع فقيه آخر غير عربي أن يقدم لنا نموذجا متميزا للتعامل والممارسة أيضا في نطاق التعاليم الإسلامية؟

الأئمة الأربعة تعاملوا مع نظمهم الفكرية، وبغض النظر عن خلافاتهم من منطلقات واحدة في جميع التطبيقات الإسلامية الأخرى غير العربية - من أقصى «الهند» حتى الولايات المتحدة اليوم - لا تحال إلا إلى فقيه عربي، وإلى فقه عربي وعندما حاول مفكرو «إيران» في لحظة فوران انتهوا بالفشل الذريع.

ثالثا: القيادات الكبرى والتي وحدها خلقت التعامل وفرضت إرادة الدولة واستطاعت بناء دولة تنتمي وتستمد مصادرها الحقيقية من الأصل العربي، إن الحضارة ليست مجرد تعاليم، ولكنها انطلاقة فردية في مواجهة المجهول، ومغامرة بشرية في عالم المثاليات، ولم يفعل ذلك إلا مجموعة من الفئات المختارة التي شكلتها وصاغتها الأمة العربية، فمن الذي واجه مشكلة بناء الدولة، وهو أول التحديات التي واجهت

الفيضان الإسلامى وأكثرها خطورة؟ لو اقتصرنا فقط ـ على سبيل المثال ـ على الأسماء الخلاقة التى أرست تقاليد هذه الدولة الكبرى، لكان علينا أن نتوقف بإعجاب ورهبة أمام أسماء خلفاء أربع هم: عمر بن الخطاب، ثم معاوية، وأكملها عمر بن عبد العزيز، وسمح لها بالانتقال إلى المفهوم العالمى هارون الرشيد، الأول: خرج بالدولة من الصحراء إلى المدينة، والثانى: انتقل بالدولة من عالم الانغلاق القُطْرى إلى عالم الانفتاح القومى، والثالث: استعاد مثاليات البناء السياسى من نقاء وإيمان كما صاغها الرسول ﷺ، ثم جاء هارون الرشيد فنقل الدولة إلى وظيفتها العالمية، أسماء عربية انطلقت جميعها من إدراك عربى وتعبير عن العقل العربى.

الإسلام إزاء العروبة

هذه هى العروبة وما قدمته للإسلام، وهذا هو ما قدمه المجتمع العربى لتحقيق الازدهار الإسلامى كدعوة وكحضارة، لكن يظل ثمة شطر آخر يجب أن نحدده بوضوح، وأن نجيب عليه بدقة: ما هى وظيفة الإسلام إزاء العروبة السياسية؟

(ب) ماذا قدم الإسلام لتلك العروبة التى رأيناها قبل الإسلام، والتى ما كانت تستطيع بجهودها الذاتية أن تحققه وأن تحصل عليه؟ أيضا بهذا الصدد وبتبسيط مطلق علينا أن نقف إزاء حقائق ثلاث:

أولا: نظام القيم، فالإسلام تعاليم ومثاليات، والأخلاقيات الإسلامية هى وحدها التى مكنت المجتمع العربى من أن يكتشف ذاته المثالية العربية. وما كان يستطيع أن يصوغها فى إطار متكامل سوى من خلال تلك القيم، وذلك النظام للقيم الذى وصفه وصاغه القرآن الكريم. .

ثانيا: الوحدة والتماسك. ماذا كان العرب قبل الإسلام غير مجموعة متفرقة من القبائل والشعوب؟ لقد سبق من متابعتنا التاريخية أن رأينا التعدد ـ ما بين الشمال والجنوب والوسط فى شبه الجزيرة ـ وكيف أن المجتمع العربى لم يستطع ـ رغم ازدهاره فى بعض المراحل ـ أن يحقق لنفسه أى وحدة، حتى جاء الإسلام فخلق الدولة الواحدة القاهرة التى فرضت الاحترام فى كل مكان.

ثالثا : الوظيفة الحضارية ، الإسلام هو دعوة لقيادة الشعوب والارتقاء بالفرد من مستوى التبعية والتخلف والأنانية ، إلى الأصالة والقدرة والاستعداد للتضحية . فقط الإسلام مكن العروبة من أن تفهم هذه الوظيفة ، فتنقل عالم الهمجية إلى ذلك النموذج الذى لم تستطع الإنسانية حتى اليوم أن تخلق مثيلا أو بديلا له .

(جـ) هذا الإطار العام الذى بلورنا عناصره بهذا التبسيط المطلق ، يسمح لنا أن نفهم كيف أن العلاقة بين العروبة والإسلام ، هى علاقة مركبة تختلف من حيث أبعادها ومستوياتها ، ويجب أن تتحدد تلك العلاقة بصراحة ووضوح ، ولو نظرنا إلى الدلالة التاريخية واقتصرنا مؤقتا على هذه الدلالة ، لوجدنا أن تلك العلاقة ، ورغم أنها أخذت صور التفاعل المتبادل بحيث إن الإسلام بدون العروبة ما كان قادرا على أن ينتشر ، ويحقق تلك الفاعلية التى بدأت واضحة منذ القرن الثالث الهجرى ، وأن العروبة دون الإسلام ما كان يمكن أن تشهد ذلك الإيناع الذى نعرفه ، والذى سمح لها بأن تثبت لتكون أول نموذج للدولة القومية خلال النصف الأول من العصر الأموى ، وبصفة عامة خلال القرن الأول الهجرى فى مجموعه ، إلا أن هذه العلاقة ـ فى حقيقة الأمر ـ تدور حول ثلاثة عناصر يكمل كل منها الآخر :

أولا : هناك العلاقة التاريخية بمعنى التوالد الزمنى ، حيث الدولة القومية العربية هى التى أعدت للدولة العالمية الإسلامية ، فهى مقدمة لها ومرحلة لازمة وضرورية للوصول إليها ، العروبة قدمت للإسلام من جانب ، وهى كمفهوم قومى أعدت للدولة العالمية التى هى جوهر النظام السياسى الإسلامى من جانب آخر .

ثانيا : وهناك العلاقة النظامية ، وهى النتاج الطبيعى للعلاقة التاريخية ، حيث إن الدولة العالمية ـ الدولة العباسية ـ قامت على الدول القومية . إن الدولة العالمية التى حولها يتبلور الإسلام فى حقيقتها هى نتاج للدولة القومية التى تم بناؤها بفضل العروبة السياسية .

ثالثا : ثم هناك العلاقة الوظيفية ، حيث إن الإسلام وظف العروبة لأهدافه المثالية وحيث إن العروبة وظفت الإسلام لتحقيق وحدتها العضوية ووظيفتها التاريخية .

لنستطيع أن نفهم معنى هذه العلاقة ذات الأبعاد الثلاثة ، ونستخلص نتائجها ونطلق هذه النتائج على واقعنا المعاصر ، علينا أن نعود مرة أخرى إلى المتابعة التاريخية ـ بناء

الدولة فى تراثنا ـ وفى ذلك النموذج الذى ينتهى بالعصر العباسى الأول ـ مر بمراحل ثلاث، مرحلة المدينة الدولة، ثم مرحلة الدولة القومية، وأخيرا مرحلة الدولة العالمية :

الأولى : وهى التى استمرت منذ الدعوة حتى مجىء عمر بن الخطاب إجمالا . خلال هذه المرحلة كانت الدولة تدور وتتحدد بما يسمى الدولة المدينة، إنها تذكرنا بالنماذج الأولى للوجود السياسى «كأثينا وروما» إنها مكة تستقبل محمدا ﷺ عقب غياب لتبدأ بوضع أصول الإدراك الجديد للحياة السياسية، وهى فى هذه المرحلة تستمر فى رسالتها السابقة على الدعوة الإسلامية، ولكنها وقد طعمت بدم جديد وبمثالية جديدة بصبغة خاصة ـ بوظيفة عالمية ـ لا تزال عناصرها لا تعدو أن تكون مبادئ عامة مجردة، الرسول ﷺ ربّى الرجال وقدم نموذج القيادة المثالية، وجاء عمر بن الخطاب ليخرج بهذا إلى العالم الفسيح الذى حوله فاتحا، ومنذ تلك اللحظة بدأت الدولة القومية ـ الدولة العربية ـ التى سوف تكون نموذج التحليل فى فلسفة «ابن خلدون» حيث يستخدم كلمة العصبية للتعبير عن مفهوم القومية، عمر بن الخطاب، ثم معاوية وعقبهما عمر بن عبد العزيز، كل منهم قدم إسهاماته ومعه آخرون فى بناء الدولة القومية، إنها الدولة العربية الأولى التى سوف تستغرق قرابة قرن كامل من الزمان على الأقل، فى خلال هذه الفترة سوف تتفاعل القيم الإسلامية مع القدرة العربية، ولكن فى نطاق محدد أساسه : أن الشعوب الأخرى تأتى وتنطوى تحت هذه المظلة، لتقودها الصفوة المختارة العربية، وعندما نصل إلى العصر العباسى، نجد مفهوم الدولة القومية قد اختفى، وتحلل ليحل محله مفهوم الدولة العالمية، ونجد كيف تغلغلت فى الإدراك مفاهيم أخرى أكثر توافقا وانسجاما مع مفهوم الدولة العالمية .

فلنقف مؤقتا إزاء النتائج التى يجب أن نعيها من هذه المتابعة التاريخية :

أولا : الدولة القومية مرحلة سابقة على الدولة العالمية ولازمة حتى نستطيع أن نصل إلى هذا التطبيق الأخير، والدولة القومية تاريخيا فى تراثنا سبقت الدولة العالمية، وأعدت لها، وما كانت الدولة العالمية تستطيع أن تتواجد قبل أن نجتاز مرحلة البناء القومى .

ثانيا : أن واقعنا المعاصر يرتبط ببقاء الدولة القومية، وليس ببناء الدولة العالمية، بل ولا ندرى هل يصلح الإطار المعاصر لبناء الدولة العالمية من عدمه؟

ثالثا : الدولة القومية فى تراثنا تعنى الدولة التى تستند إلى مفهوم العصبية . والعصبية لا تعنى سوى التماسك ، لا تعنى التفرقة ، ولا التمييز العنصرى ، مفهوم التمييز العنصرى مفهوم دخيل على تقاليدنا ، لم يتسرب إلى أمتنا العربية إلا عقب الاحتكاك بالعالم الغربى وفى ثنايا هذا الاحتكاك .

وكل من هذه النتائج تملك مقدماتها ، وتفرض أيضا مواقف معينة من حيث التعامل مع الواقع المعاصر .

فهل نحن قادرون على هذه المواجهة؟!

* * *

(١١)

أين العروبة من السياسة الأمريكية؟؟

سوف أظل عربيّا

أين العروبة من السياسة الأمريكية؟

ليس فقط لأننى هكذا ولدت، ولا يعود ذلك فقط لإيمانى بأن حضارة آبائى هى تعبير عن وجودى الذاتى، وهويتى القومية وحقيقتى الكامنة، حيث لو ابتعدت عنها لشوهت تكوينى النفسى ووظيفتى التاريخية، وليس فقط لأن العناية الإلهية التى اختارت أرض أجدادى لأن تكون هادية ومبشرة، لتضع على عاتق الأمة التى أنتمى إليها وظيفة القيادة للإنسانية المعذبة، وليس فقط لأننى عقب ربع قرن من التشرد الفكرى - بين حضارة وأخرى - لم أجد أى حضارة غير تلك التى أنتمى إليها، تجذبنى وتخلق فى ذاتى الإعجاب والانبهار الذى وحده قد يبرر أو يفسر الخيانة والتخلى، ولكن لأن هناك مجموعة أخرى من الأسباب تشدنى إلى أن أتحدث مع أولئك الذين شاءت الأحداث إلا أن تجعل لهم وزنا فى عالمنا المعاصر. أولئك الذين يخرجون علينا من آن لآخر يشنفون آذاننا بأسطورة الحضارة الغربية تارة، وتارة أخرى بحديث السلام، كذلك تلك المجموعة من الأذناب - التى تتكون من حصيلتها ما نسميه بظاهرة «الزفة السياسية» - فى حاجة إلى نوع من المنطق واللغة التى لا بد وأن تفرض عليهم أن يتساءلوا بينهم وبين أنفسهم عن حقيقة تلك الموجات الكاذبة التى تحيط بنا، والتى ليست إلا تعبيرا عن ظاهرة المرض التى هى بدورها تملى وظيفتها؛ لأنها ضرورة تفرضها طبيعة الوجود الإنسانى، حتى نستطيع أن نكشف مدى صلابة إيماننا ورسوخ عقيدتنا، ولماذا نذهب بعيدا؟ ألم يقل رسولنا الكريم: «خاطبوا الناس على قدر عقولهم»؟

ونحن نريد أن نخاطب اليوم أولئك القادة العرب، ومن يسيرون وراءهم من رجال «الزفة السياسية» فى ذلك الذى يسمى بعملية «التسوية» وتارة أخرى «المبادرة المصرية»، وذلك دون الحديث عن عملية الحج من جانب أغلب زعمائنا إلى «مكة الجديدة» «واشنطن» عاصمة الإمبراطورية الكبرى، لا بد وأن يتساءل القارئ: وما صلة ذلك بحديثنا عن العروبة والقومية العربية؟

مهلا يا بنى فلنبدأ من المقدمات.

علينا أن نقدم بمجموعة من الملاحظات:

أولا: تحليل أى ظاهرة قومية لا بد له من مقدمات ثلاث: مفاهيم أولا، ومواقف ثانيا، وسياسات ثالثا.

المفاهيم: هى مجموعة المدركات التى يتحدد من خلالها إطار معين للوجود الإنسانى، ولموضع مجتمع معين من ذلك الوجود الإنسانى.

ثم مواقف: وهى تعبيرات مختلفة فى مواجهة الأحداث - فكرية أو سلوكية - تترتب على ذلك الإدراك وعلى مستوى القناعة به، لتعلن عن قدرة وصلاحية للتعامل، باسم تلك المفاهيم والمدركات.

القومية: هى حرب سياسية ضد الذات أولا؛ لأنها صراع ضد المجهول، وضد الآخرين؛ لأنها تعنى انتزاع حقوق الذات من أنياب الذئاب ثانيا. وهذا لا يتأتى إلا من خلال المواقف الفردية والجماعية، وهى ثالثا سياسة، فهى تعنى تعاملاً بعيد المدى مع كل من يقف ضد تغيير وضع معين سواء لخدمة مصالحه الآنية والمستقبلية، أو الرهبة إزاء بروز عملاق جديد بما يعنيه ذلك من احتمالات فى تغيير فى موازين التعامل، وهذا لا يتم إلا من خلال التخطيط للحركة فى تنقلاتها المتتابعة، من موقف لموقف، ومن نصر إلى نصر، أو من هزيمة إلى نصر، بل ومن هزيمة لاحتمالات هزيمة أخرى.

ثانيا: فى هذا العرض المتتابع لفلسفتنا القومية، لا بد وأن نتابع المدركات، ثم من خلالها نجمع المواقف ونستخلص عقب ذلك السياسات، ولكن الظروف التى تعيشها الأمة العربية والمأساة التى تدور حولنا، قد تفرض علينا أن نقدم أو نؤخر، وإذا كنا

اليوم ننتقل بلا مقدمات إلى جزئية متعلقة بالسياسة الدولية ـ فى علاقتها بالقومية العربية ـ فليس ذلك خروجا عن الموضوع، ولكنه تغيير فرضته الظروف فى عناصر المتابعة المنطقية للتحليل، بل سوف نرى فى موضع آخر كيف أن إحدى نواحى النقص ـ فى تقاليد الفكر القومى العربى ـ هى أنه لم يول الإطار الدولى للتعامل مع الوجود العربى موضعه من الأهمية.

ثالثا: كذلك علينا أن نتذكر أن أى قومية جديدة لا بد وأن تواجه بالعداوة من جميع القوى الدولية، هذه حقيقة يعرفها كل من يرصد التاريخ، يقول «ديجول» فى حديثه التاريخى عقب عودته من منفاه وتحرير فرنسا: «يا أمتى، كل قومية وحيدة فى صراعها، وليس لها سوى إرادتها النقية الصافية» ولا ينتظر زعيم حقيقى يقود أمة فى تأكيد تكاملها القومى من حوله سوى أعداء وعداوات، وبراعته هو أن يحيل العداوة إلى صداقة ولو مؤقتة، وإن لم يستطع فعليه أن يعرف جيدا أنه لا صديق له سوى شعبه، وإرادة ذلك الشعب والتحدى الحقيقى الذى يتعين عليه أن يواجهه الزعيم، هو أن ينصهر هو وشعبه فى بوتقة واحدة. هذه هى إرادة القدر، وهذه هى قصة التاريخ، والأمثلة والنماذج لا تحصى «بسمارك» فى ألمانيا «وكافور» فى إيطاليا يشهدان على هذه الحقيقة.

رابعا: الاستسلام له منطقه وله إستراتيجيته، منطقه هو استجداء الحقوق، وإستراتيجيته أساسها الحصول على الثمن مقدما من جانب، وشىء خير من لا شىء من جانب آخر!.

نحن لسنا فى مقام الدفاع عن هذه الإستراتيجية، ولكننا نود أن نوضح لأولئك الذين يتحدثون عن ذلك أن هذه الممارسة بدورها فى حاجة إلى حنكة معينة. «السادات» عندما انطلق فى هذه الإستراتيجية لم يخطئ فقط فى أن اتبع إستراتيجية الاستسلام، ولكنه ـ وهذا ما هو أخطر ـ أخطأ فى أنه لم يفهم إستراتيجية الاستسلام. إنه وثق بنفسه وقدراته وصلاحية أعوانه، فكانت الطامة التى دفع وحده ثمنها، لقد فهم منطق السلام وهو استجداء الحقوق، ومن ثم عملية التمثيل، وإعادة التشكيل الكلى لإطار الحركة التى انطلق منها، فأسلوب «البذاءة اللفظية»، ثم منهاجية الاستعانة بعناصر هو أول من احتقرها فى جميع مراحل تاريخه السياسى، أمور

جميعها لا يمكن تفسيرها إلا من هذا المنطلق، ولكن لم يفهم أن هذا المنطق يفرض بدوره إستراتيجية معينة، فكانت الكارثة. فالكارثة برزت أولا فى صيف ١٩٧٧ عندما اندفع فى زيارة القدس ليفاجئ السياسة الأمريكية، وبرز ثانيا فى صيف ١٩٨١ عندما وجد الرئيس «ريجان» يقف منه موقف السلبية والترفع، فعاد إلى مصر وقد فقد توازنه، فانطلق فى رحلته المعروفة التى كلفته حياته.

ولكن ماذا نريد من هذه الملاحظات؟

إن السؤال الذى نطرحه بصراحة ووضوح هو : هل تساءل أولئك الزعماء والقادة الذين ارتبطوا بالأحداث السابق ذكرها، والذين يتبارون فى الحج إلى «واشنطن» عن ماهية حقيقة الإدراك الأمريكى للقضية العربية؟ وبصفة خاصة: ما هى خصائص الإدراك السائد فى الإدارة الأمريكية الحالية، والتى كان يقف على قمتها آنذاك الرئيس «ريجان» ؟

«واشنطن» تنظر إلى الوطن العربى على أنه ينتمى إلى العالم الثالث، ومن ثم يخضع لنفس المفاهيم التى يخضع لها ذلك العالم فى الإدراك الأمريكى. يكمل ذلك الموقع الإستراتيجى من جانب، وسيطرة تقاليد الحضارة غير الكاثوليكية من جانب آخر، ومن ثم تتحد عناصر هذا الإدراك بأربعة متغيرات أساسية :

أولا: مواجهة أى حركات ترمى إلى تغيير الوضع القائم فى أى بقعة من أجزاء الوطن العربى. إن أى حركة من هذا النوع هى نوع من الإرهاب الدولى، يقول «هيغ» بهذا الخصوص بصراحة مخيفة: «إن مفهوم مقاومة الإرهاب الدولى - وهو الاصطلاح الذى استخدم للتعبير عن حركات التغيير فى دول العالم الثالث، بما فى ذلك الوطن العربى - يجب أن يحل فى اهتمامنا موضع الدفاع عن حقوق الإنسان».

ثانيا: مواجهة حركات التغيير يجب أن تتم من خلال استخدام القوة العسكرية، وقد وضع «البنتاجون» لذلك برامج عديدة للتدريب ضد حرب العصابات فى نماذج متعددة: حرب العصابات فى المناطق الجبلية، حروب الكر والفر فى الصحارى المتسعة، حركات المقاومة للتدمير فى المدن ومواقع التجمع السكانى، ومنطق التعامل مع حركات التغيير فى الوطن العربى هو فقط القوة والقدرة العسكرية، والذى يعنى

القيادات الأمريكية المعاصرة هو القدرة على الاستئصال الجسدى والعضوى لأى قوة ثورية، أو رافضة للتعاون، وها هى القيادة الأمريكية قد أدخلت فى تخطيطها مفهوم التعامل داخل التجمعات السكانية. والواقع أن الحركات العسكرية فى داخل هذه التجمعات تفرض أبعادا جديدة: العدد الضخم من السكان مع ضيق المساحة، الأمر الذى يقيد من حرية الحركة، بل فى كثير من الأحيان ـ إن لم يكن فى أغلبها ـ انعدام أو ضيق الطرق، وذلك فضلا عن تعدد الأماكن الصالحة للاختفاء وللمفاجأة، وخبرة «بيروت» فرضت على القيادة العسكرية الأمريكية إعادة النظر فى جميع مدركاتها. بعض خبرائها يعتقد أن ثورة عنيفة فى مدينة «القاهرة» يستحيل إخمادها بأى قوى عسكرية تقليدية مهما بلغ حجمها، وعدد المدن المرشحة لنفس الظاهرة فى الوطن خلال فترة لن تتجاوز خمسة عشر عاما أكثر من عشر مدن عملاقة منها على سبيل المثال «بغداد، ودمشق، والرياض، والإسكندرية، وتونس، والجزائر، والدار البيضاء».

ثالثا: الأدوات التى تستند إليها الإستراتيجية الأمريكية الجديدة فى تعاملها مع الوطن العربى عديدة، ولكن يكفى أن نؤكد على البعض منها، ورغم أن هذا الموضوع ظل حتى وقت قريب تحيطه السرية، إلا أن التقرير المشهور الذى وضعه الأمريكى «كلارك» المستشار بمجلس الأمن القومى الأمريكى، والذى استطاعت مجلة «الوموند» الدبلوماسية الفرنسية أن تحصل عليه، وتنشره كاملا كافيا للكشف عن الكثير من الخفايا، ونحن نستطيع أن نؤكد استنادا إلى ذلك التقرير على الأدوات الأربع التالية:

(أ) مفهوم «الأمن الوقائى».

(ب) الثورة المضادة.

(جـ) التدخل السريع.

(د) التركيز على قوة النيران المكثفة.

أدوات أربع، ولكنها تنبع من مفهومين أساسيين: الوقاية أولا خير من العلاج، ومن ثم يجب ألا ننتظر حتى تنفجر الثورة أو حركات الرفض، بل يجب اقتطاعها مسبقا. والثانى: عندما نتدخل فلندع جانبا مفهوم التدرج فى التدخل، وإنما يجب أن يكون هذا

التدخل كثيفا صاعقا. وبعبارة أخرى: أول ما يجب أن تهتم به الإدارة الأمريكية هو عملية حصر حقيقية للقوى والقيادات، القادرة أو الصالحة لأن تكون بؤرة رفض على قسط معين من الفاعلية. وعندما تكتشف الإدارة الأمريكية ذلك عليها أن تلجأ لجميع الوسائل لاستئصال تلك القوى والقيادات، الترغيب والتطويع خطوة أولى. وإن لم تفلح فالقبض والسجن خطوة ثانية، وإلا فالقتل والاستئصال الجسدى، وهذا ما يسمح لنا بأن نفهم الوظيفة التى تؤديها مراكز البحوث المنتشرة خلف مزاعم الأهداف والاعتبارات الأكاديمية، يقول «كلارك» فى تقريره السالف ذكره: «ولتستطيع هذه السياسة أن تكون مجدية، فإن السياسة الأمريكية تفترض الملاحظة المستمرة لسلوك المواطنين من خلال البوليس وناقلى المعلومات للإدارة الحكومية، وكذلك من خلال وضع نظام حديث للتنصت والمراقبة، فضلا عن معالجة المعلومات».

رابعا: خلق تحالف إستراتيجى يحتضن المنطقة، فالتحالف الأمريكى الأطلنطى حقيقة قائمة. والتحالف أو التعاون الإستراتيجى «الإسرائيلى» الأمريكى الذى وقع عليه فى نوفمبر / تشرين الثانى ١٩٨٣ ورغم أن بنوده لا تزال سرية إلا أنه يقود إلى نتيجة واضحة، وهى أن إسرائيل قد أضحت الحليف الثابت لحلف الأطلنطى من خلال ارتباطها بالولايات المتحدة. فالتعاون بين القوات الثلاث أضحى حقيقة كاملة على مستوى التخطيط وتبادل المعلومات ومشاكل الأمن، وكل ما له صلة بعملية المواجهة، سواء لدول المنطقة أو الدفاع عن المنطقة.

ما الذى يعنيه ذلك؟

ثمة مجموعة من النتائج يجب أن يدخلها رجل الدولة المسئول فى وطننا العربى فى اعتباره، وأن يجعل منها محور تعامله مع السياسة الأمريكية، ويعنينا منها أساسا ثلاث نتائج:

أولا: الإدارة الأمريكية لا يمكن أن تقف من إمكانيات التغيير فى المنطقة إلا موقف الرفض العنيف. إنها تدافع عن الوضع القائم، وتحمى ذلك الوضع القائم بجميع الوسائل، إلا إذا كان ذلك التغيير فقط لصالح سياستها، الوضع القائم يعنى أولا التخلف، وثانيا التجزئة؛ ولذلك فهى تعمل على تنمية التخلف، وتدفع إلى ترسيخ التجزئة، وكما دافعت «بريطانيا» عن القوة الرجعية، حتى من خلال جامعة الدول

العربية، فكذلك «واشنطن» لا يمكن أن تدافع إلا عن كل ما يمثل الجمود والتيبس، بل إنها تخطط لتفرغ المنطقة من كل عناصر التغيير والتجديد، ولنتذكر سياستها التى أضحت معروفة بصدد تشجيع هجرة العقول العربية واستنزافها.

ثانيا: ثم يأتى فيكمل تلك النظرة إلى المنطقة على أنها إحدى بقاع الخطر بالنسبة لاحتمالات فيضان الشعوب الملونة، لقد تجمعت فى هذه المنطقة بالنسبة للإدراك الأمريكى جميع أسباب العداوة، شعوب ملونة أولا، وهى شعوب لا تدين للحضارة الغربية الكاثوليكية ثانيا، وهى تناصب إسرائيل ـ الطفل المدلل ـ العداء ثالثا. جميع المدركات الأمريكية تفرض على قيادة الدولة الإمبراطورية الوقوف من التطور القومى العربى موقف العداوة المميتة، فالإيمان بالوظيفة القيادية للعالم الرأسمالى الكاثوليكى الغربى الذى تتزعمه الولايات المتحدة، وهو وحده المحور الحقيقى للقناعة الأمريكية، هذه القناعة لا بد وأن تجد امتدادها فى السياسة الخارجية، ضرورة العودة إلى تقاليد أمريكا للأمريكيين، النظرة إلى القارة الأمريكية على أنها بمثابة قلعة محاصرة، والاعتماد فقط على الذات، وعدم الثقة فى أى حليف سوى الكيان الصهيونى، إن الحرب العالمية الثالثة قد بدأت مقدماتها، وإحدى هذه المقدمات هى الاستئصال التدريجى المقنع للشعوب الملونة، والشعب العربى هو أحد أخطر هذه الشعوب الملونة.

ثالثا: العلاقة بين «واشنطن، وتل أبيب» هى علاقة عضوية بين حليفين، ومعنى ذلك أن «واشنطن» لا يمكن أن تتبنى سوى وجهات نظر ومصالح الكيان الصهيونى، فهل نحن فى حاجة لأن نذكر أين يقف هذا الكيان من القومية العربية.

أيهما أكثر أهمية؟

على أولئك الذين يحجون إلى «واشنطن» أن يفهموا جميع هذه الحقائق. عليهم أن يعوا حقيقة اللعبة الدولية التى تدور رحاها حول المنطقة، وهل أستطيع أن أسأل الرئيس حسنى مبارك: أيهما أكثر هيبة فى «واشنطن» الرئيس «جمال عبد الناصر» وهو مهزوم عسكريا عقب حرب الأيام الستة، أم الرئيس «السادات» وهو منتصر عقب حرب أكتوبر؟ وكم مرة ذهب «جمال عبد الناصر» إلى الولايات المتحدة يستجدى رضاء رعاة البقر؟ وهل أستطيع أن أسأل «الملك فهد»: لماذا هذا الاستسلام وأنت الذى أنقذت الاقتصاد الأمريكى وأعدت للدولار الأمريكى هيبته بفضل الهبات السخية فى شكل

أذونات للخزانة الأمريكية عندما كان الدولار يتدهور وينزلق إلى أسفل يوميّا؟ أنت تمثل قوة معينة فلماذا الاستسلام؟ وإن كان الأمر كذلك، ألا تعلم أن لذلك فنا وإستراتيجية؟ هل أذكرك يا سيدى بواقعة: عندما أراد «نيكسون» أن يلتقى بـ «ماوتسى تونغ» تعين على زعيم الدولة الأمريكية المتغطرس أن يحج إلى «بكين» وفرضت عليه القيادة الصينية أن يخلع حذاءه قبل الدخول فى قدس الأقداس، وظل ينتظر على باب الزعيم الأكبر عدة ساعات، حتى سمح له بأن يمثل فى حضرة القائد، هكذا تعلمت الولايات المتحدة كيف تتعامل مع الدولة الصفراء.

فهل آن لنا أن نتعلم فن السياسة؟

نعم: نحن أمة السياسة لم نعد نعرف معنى السياسة.

رغم ذلك: سوف أظل أصرخ بعروبتى، وثقتى فى مستقبل تلك العروبة؛ لأننى أعلم أن كل ليل لا بد وأن ينتهى بشروق الشمس.

* * *

(١٢)

حول العروبة والمفاهيم الخاطئة

«نعم سوف أظل عربيّا»

هل تدرى يا بنى لماذا؟

نعم لن يصيبنى الكلل، ولن يعترينى الوهن، مهما كررت ورددت هذه الصرخة، إنها موسيقى تصدح فى آذانى، حتى ولو كانت الآذان الأخرى لا تسمعها، وهى إن سمعتها فهى على كلٍّ غير قادرة على أن تفهم معناها الحقيقى. أليست هذه العروبة هى وحدها التى أعلنت إنسانية الإنسان؟ و أليس هذا الإنسان فى أرض فارس شرقا، وفى أرض النيل والشام غربا، هو الذى أسرع لينصهر فى الإرادة الجديدة، وينطوى تحت القيادة العربية، وهو زارع الحضارات، وبانى المجد التاريخى، فإذا به يندمج فى جسد تلك القيادة، ليضع أصول مجد الدولة القومية العربية الأولى فى العصر الأموى، ممهدًا لتأسيس الدولة العالمية الوحيدة التى خبرها، وذاق مرها وحلوها الإنسان منذ وجوده وحتى اليوم، حول «بغداد» عاصمة العباسيين؟

ولكن لماذا نذهب بعيدا نلقى بأنفسنا فى متاهات التاريخ القديم؟ فلنقف ولو لعدة لحظات إزاء مأساتنا التى نعيشها منذ أكثر من قرنين من الزمان، ولا نزال ـ نحن المفكرين ـ ندور فى متاهاتها غير قادرين على أن نخرج من موجاتها المتعاقبة، ورغم أن الطريق واضح وليس فى حاجة إلى الكثير من الجهد أو المعاناة، هناك مجموعة من المفاهيم قد ترسبت فى مدركاتنا المعاصرة، وأضحت تمثل عناصر أساسية للتصور السياسى فى عالمنا العربى المعاصر، وهى جميعها مفاهيم خاطئة، بل إنها تعبر عن عملية إعادة تشكيل للمنطق العربى بقصد تسميم ذلك المنطق وتوجيهه فى مسارات

ليست فقط غير علمية ولكنها ـ وهذا ما هو أخطر ـ قادرة على خلق الإدراك الخاطئ والمشوه، بحيث تقود إلى ترسيب تصورات لا يمكن إلا أن تؤدى إلى تفتيت الوحدة القومية، وتشويه الإدراك الذاتى بحقيقة الوظيفة الحضارية.

■ **(أ)** علينا منذ البداية أن نحدد مجموعة من المنطلقات والثوابت الأساسية التى يجب أن تكون واضحة لكل من يحاول أن يتعرض لتحليل مفهوم القومية العربية:

أولا: كل انبثاق قومي هو حدث، وبقدر قوة الحدث تكون فاعلية النتائج، والفاعلية تعنى منطقا متميزا، وحركة تملك خصائصها الذاتية، وإدارة لتلك الحركة ذات الإدراك الذى يجب ألا يختلط بأى إدراك آخر، التاريخ بهذا المعنى لا يكرر نفسه، والدلالة من ثم فى تعميم نتائج الحدث تظل دائما نسبية، وقوميتنا العربية تملك من الخصائص ما يجعل لها منطقها الخاص ومفهومها المتميز، لا يجوز أن يختلط مع أى مفهوم أو تطبيق آخر للقومية السياسية.

١ ـ فهى ـ أى القومية العربية ـ قديمة قدم الإنسانية، إنها تمتد لقرابة عشرين قرنا من الزمان، وقد سبق ورأينا كيف أن تعبيراتها الأولى سبقت نفس الدعوة الإسلامية بعدة قرون.

٢ ـ وهى قومية مركبة متعددة الطبقات، إنها تحتضن العديد من القوميات الأخرى، والتى ليست إلا جزئيات تمثل مستوى من التكامل الذاتى، ولكنها تنصهر وتندرج فى الإطار الواسع الفضفاض وهو القومية العربية.

٣ ـ وهى كلية وشاملة. القومية العربية لا تملك فقط البعد السياسى خلافا لأى مفهوم آخر للقومية، إنها تملك أبعادا حضارية، بل ودينية، وقد سبق أن رأينا أن هناك علاقة ديالكتيكية بين القومية العربية والمفهوم الإسلامى للوجود الإنسانى.

ثانيا: كذلك فإن الواقع العربى الذى يرتبط بهذا المفهوم القومى، ويتفاعل معه، وبه يتضمن فى حقيقة الأمر تطورات ثلاثة لم تجتمع قبل اليوم فى تطور قومى آخر، وهى تطورات كل منها يملك مذاقه الخاص:

١ ـ التطور القومى، والذى يعنى الشعور والحاجة إلى التكامل القومى، بمعنى أن هذا المجتمع الواحد المتعدد الأجزاء ـ والذى يكون قومية واحدة، حيث اللغة واحدة،

وإرادة التعايش واحدة، والخبرة التاريخية واحدة ـ فى حاجة إلى أن ينصهر فى جسد نظامى واحد.

٢ ـ ثم هناك التطور الوحدوى، والذى رغم أنه قد يتشابك مع التطور القومى، إلا أنه مستقل عنه مداره ذلك الجزء من العالم الذى نستطيع أن نسميه القارة العربية، التى تحدها من الشمال المياه المتوسطية، ومن الجنوب الصحراء الكبرى، تشعر بحاجتها فى التكامل الاقتصادى، الأمر الذى يفرض عليها نوعا من الاندماج الذى يجعل من هذه المنقطة سوقا واحدة وإقليم دولة واحدة. بحيث تعبر عن ذاتها فى النطاق الدولى بشخصية قانونية واحدة.

٣ ـ كل من هذين التطورين لو تحقق أى منهما ـ وكل منهما يقود ويفرض الآخر ـ فهو يؤدى إلى إعادة تشكيل علاقة التوازن بين أقطاب التعامل على مستوى الأسرة الدولية، ولنتصور بإيجاز ولو مؤقتا ماذا يحدث لو تمت الوحدة العربية.

(أ) التحكم فى البحر الأبيض المتوسط ـ شرقا قناة السويس، وغربا مدخل جبل طارق ـ فضلا عن وقوع جميع الجزر الإستراتيجية فى دائرة النفوذ العربى «مالطة، صقلية ثم كريت».

(ب) التحكم بطريق مباشر فى البحر الأحمر، وبطريق مباشر فى المحيط الهندى.

(جـ) التحكم فى جميع المواصلات الجوية ـ بين الشرق والغرب وبالعكس ـ حيث يتعين عليها أن تجتاز الأجواء العربية.

(د) خلق سوق استهلاكية ـ وليست لها مشاكل ـ تملك القوة الديموجرافية باعتدال، والقدرة الرأسمالية مع الموارد الطبيعية، ومن ثم فهى قادرة على أن تخلق صناعتها، وأن تحقق نموذجها للتنمية دون عقبات حقيقية.

لم يعرف التاريخ السياسى ـ حتى اليوم ـ نموذجا مماثلا لتطور قومى قادر على أن يؤثر ويفرض إعادة تشكيل علاقة التوازن الدولى كنموذج الدولة العربية الموحدة.

ألا يكفى هذا البحث عن منطق ذلك التطور من منطلق خصائص متميزة؟

ثالثا : إذا انتقلنا إلى الفكر العربى السياسى المعاصر، لهالنا مدى ما نعيش فيه من سطحية وعدم قدرة على فهم هذه الحقيقة، وسوف نعود فى مواضع أخرى لنناقش هذا

الفكر تفصيلا لنحكم عليه باستبعاده عقب تحديد مسئوليته فى الانحطاط العربى، بل والتيبس الذى أصاب التطور السياسى، مما لا شك فيه أن آباءنا الأوائل فى الفكر القومى والذين قدموا إسهاماتهم خلال النصف الأول من القرن العشرين قد أدوا دورهم بما لهم وما عليهم، لكن الذى يعنينا من هذه المناقشة هو أن نسائل مثقفى اليوم الذين تخلوا عن وظيفتهم الحقيقية: ماذا فعلوا وماذا قدموا ـ منذ حلول النظم العسكرية التى غمرت المنطقة خلال الأعوام الثلاثين الماضية؟ أصاب الفكر العربى نوع من الجمود. وقد تحول مفكرو هذا العالم العربى إلى نوع من مهرجى البلاط، وظيفتهم التصفيق للحاكم، والمشاركة فى الزفة السياسية، وأضحى ذكر اسم البعض منهم يصيبنا بالغثيان.

فالمثقف موقف، والمفكر السياسى إبداع فى التعامل مع الموقف، وليس هذا الواقع الذى نعيبه قاصر على أولئك الذين وردتهم إلينا الجامعات الأجنبية. إن أحد عناصر المأساة التى نعيشها هو هذا الواقع، فقد أضحى كل من ذهب إلى إحدى تلك المنازل التى تسمى بأنها جامعات، وعادة ومعه حقيبة بها عدة كتب جمعها من هنا وهناك، قد أضحى ليس فقط مثقفا، بل ومؤهلا ـ ومؤصلا ـ للفكر القومى، وضليعا بتراثنا السياسى، وقد ساهمت السلطة فى ذلك الواقع، وعليها أن تعرف ـ بدورها ـ مسئوليتها، أليست مأساة حقيقية أن نسمع بأن مثل «أنيس منصور» الذى يجب أن يقف فى يوم من الأيام أمام محكمة الجنايات القومية يرشح اليوم عميدا للأدب العربى، ليجلس على كرسى المفكر والفيلسوف طه حسين؟ وأن يمنح زكى نجيب محمود جائزة الفكر القومى من المنظمة العربية للتربية والثقافية والعلوم؟ وأن يظل توفيق الحكيم موضع احترام وتقدير كمفكر قومى وكمحلل سياسى للواقع العربى؟ ولو تتبعت الجوائز التقديرية للمجلس الأعلى للثقافة والعلوم الاجتماعية فى «مصر» بتقاليدها التاريخية وتراثها العريق، لهان عليك أن تذرف الدموع، أما إذا بحثت عن علماء السياسة، فالكارثة أدهى، ويخيل إليك أن الشرط الأساسى للترقى إلى مستوى الأستاذية هو الجهالة. لقد أضحى من الضرورى أن نكتب مؤلفا باسم «علم الجهل» كل هذا سوف نعود إليه بالتفصيل من خلال الوقائع والأحداث، أليست هذه هى ما أسميناه بالمواقف؟ ولكن لنكتفى مؤقتا بأن نلاحظ ونسجل.

■ **(ب)** المفاهيم الخاطئة التى ترسبت فى مدركاتنا العربية، والمرتبطة بالمفهوم القومى عديدة، ولكن البعض منها يمثل خطورة معينة تفرض علينا منذ البداية أن نناقشها ونحدد موضعها الحقيقى من الإدراك السياسى، لقد أدت إلى فهم خاطئ لكل ما له صلة بالمدركات القيادية، فأوقعت زعماءنا والمسئولين عن حركة التطور السياسى العربى فى أخطاء قاتلة، هذه المفاهيم التى بدأتها الحركات الاستشراقية، وارتبطت بها حركات التبشير لا تزال حتى اليوم تعمق فى خلق التمزق العربى بأساليب مختلفة تتفق مع الواقع الجديد الذى تعيشه اليوم منطقة الشرق الأوسط.

نذكر على وجه الخصوص المفاهيم الثلاثة التالية:

أولا: مفهوم الدولة العلمانية، وربط هذا المفهوم بما يسمى بالدولة القومية من جانب، والمثالية السياسية من جانب آخر، حيث يصير مبدأ الفصل بين الدين والدولة مبدأ مطلقا لا يعرف الاستثناء، بحيث يصير المفهوم القومى للوجود السياسى بمثابة رفض يقف من الدين موقف التناقض المطلق.

ثانيا: ربط مفهوم الأقلية بالحقيقة السياسية، ومن ثم الحديث عما يسمى بالملة السياسية، وجعل الواقع العربى أحد تطبيقات ذلك المفهوم، بحيث إن الولاء الطائفى يتعارض مع المفهوم القومى ويقيد من دلالته.

ثالثا: النظرة إلى مفهوم القومية باعتباره مفهوما غير مقبول فى العالم المعاصر، بل ويتناقض كلية مع التعاليم الإسلامية.

كل من هذه المفاهيم فى حاجة إلى دراسة مستفيضة، ولكننا فى هذه العجالة الموجزة نحاول أن نؤكد على عناصر التشويه فى هذه المفاهيم، وكيف أن طرحها بهذا التصور إنما يتضمن نوعا من المغالطة التاريخية، يجب أن نحدد عناصرها.

أول هذه المفاهيم يرتبط بالدولة العلمانية، فتفسير هذا المفهوم الذى استوردناه من الفقه الغربى ـ خلال القرن الماضى ـ لا يمكن أن يكون واضحا إلا على ضوء مصادره التاريخية. فكلمة الدولة العلمانية تعنى الدولة غير الكهنوتية، ومعنى هذه الكلمة ـ أى «الكهنوت» ـ يستمد أصوله الحقيقية من الظروف المتعلقة بالتقاليد الكاثوليكية فى تاريخ أوروبا الغربية، فرجل الكهنوت كان يتميز بثلاث صفات:

الصفة الأولى : ليست له شخصية قانونية، فهو لا يملك ولا يستطيع أن يأتى أى تصرف قانونى كعقد أو هبة أو ما فى حكمه، إنه ملك الكنيسة.

الثانية : وهو لذلك لا يستطيع أن يمارس الحياة الطبيعية التى يمارسها الإنسان المدنى، بمعنى الحياة الزوجية، وتكوين الأسرة، إنه قد تزوج الكنيسة، وقد وهب للكنيسة حياته الاجتماعية.

الثالثة : وهو يلبس ملابس معينة تميزه عن غيره، ولا يجوز لأحد أن يلبسها إذا لم يكن من رجال الكنيسة، العلمانية عندما تلصق بالدولة تعنى أن رجال الدولة يجب عليهم أن يتخلوا عن هذه الخصائص التى تقتصر فقط على رجال الكنيسة، بحيث إن الممارسة السياسية تصير غير كهنوتية، وهذا يعنى مجموعة من النتائج، أولى هذه النتائج وأهمها مبدأ: ما لقيصر لقيصر وما لله لله. فالدولة هى لقيصر والكنيسة هى لرجل الكهنوت، وثانى هذه النتائج والمترتبة على هذا المبدأ: أن الكنيسة لا تتدخل فى السياسة ولا تتعامل مع تلك الظاهرة، وهذا يعنى بعبارة أخرى فصل الدين عن الدولة. الماركسية التقليدية جاءت فدفعت بهذه المفاهيم إلى الأمام: إن الدين أفيون الشعوب، ويجب إلغاء هذا العنصر من الحياة اليومية، هذا الواقع لا صلة له بتاريخنا؛ لأن الدولة لدينا لم يحدث أن كانت كهنوتية. بل إن تقاليد الكهنوت لم تعرفه تقاليدنا الدينية ذاتها، كذلك فإن مفهوم إلغاء الدين لم تعد تقبله الماركسية الجديدة، وقد أثبتت القراءة المتأنية لكتابات «كارل ماركس» أن ذلك الذى أراده هو تنظيم واضح للعلاقة بين الدولة والكنيسة، حيث إن إساءة استخدام الدين أدى إلى إفساد الحياة السياسية، الواقع أن هناك مفهوما آخر اختلط على علمائنا بسبب التشابه فى التعبير وهو علمية الدولة، وهذا لا موضع للمناقشة بخصوصه، فلا يمكن أن يشكك أحد فى أن الدولة يجب أن تقوم على مبدأ العلمية فى الممارسة، والتخطيط والتدبير والتعامل بهذا المعنى سواء مع الحاضر أو المستقبل.

ومفهوم الأقليات بدوره لدينا يعبر عن مفهوم مختلف اختلافا كليا عن تقاليد التعامل مع هذا المفهوم فى الواقع الغربى، فالأقلية فى المجتمعات الأوروبية تعنى فئة فى المجتمع القومى لا تنتمى إلى ذلك المجتمع بحكم التكوين العنصرى، ولكنها

تخضع للمجتمع القومى بحكم المصالح الجغرافية أو ما فى حكمها، فالإلزاس واللورين أرض سكانها ألمان ولكنهم يخضعون للحكم، ويتبعون السلطة الفرنسية، هم بهذا المعنى أقلية قومية، عنصر مختلف، ولكنه يخضع للإرادة القومية، الأقلية لدينا ليست كذلك، إنها توصف بأنها أقلية فقط نتيجة لمبدأ التسامح، حيث احتفظت بدينها غير الإسلامى، إنها أقلية دينية، إنها عربية ولكنها لا تؤمن بالدين السائد، وهو حقها بمقتضى تقاليدنا ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝﴾ [الكافرون : ٦]. وهى لذلك تنتمى إلى المجتمع القومى وتربطها به رابطة الولاء القومى، فمفهوم الولاء الكائن لا يعدو العلاقة المعنوية المتعلقة بالطقوس والممارسات الدينية، أقباط «مصر» عرب، ليس فقط لأن المسيحية دين عربى، بل ولأن أصلهم المصرى يجعلهم جزءا لا يتجزأ من الأمة العربية كمسلمى «مصر» سواء بسواء.

أما مفهوم العنصرية وعلاقته بالقومية فصار عنصرا آخر من عناصر التشويه. فالقول بأن القومية العربية هى تعبير عن المفهوم العنصرى يتضمن مغالطة حقيقية، القومية فى تاريخنا هى العصبية، والعصبية تعنى التماسك، ولا تفرض أكثر من ذلك، والواقع أن العنصرية فى المفاهيم والتقاليد الغربية تملك ثلاثة مستويات: الأول: يرادف عدم الاهتمام بالآخرين، والثانى: يعنى مبدأ التفرق، والثالث: يقود إلى التسليم بحق قيادة الآخرين من منطلق مبدأ الاختيار العنصرى. الأول نموذجه الواضح المجتمع الفرعونى، وكذلك المجتمع الصينى القديم، والثانى تطبيقه الحضارة الأوروبية قبل مرحلة الاستعمار، والثالث يقودنا إلى عصر استعمار الرجل الأبيض بتطبيقاته الثلاثة: الأوروبى، ثم الأمريكى والصهيونى، القومية العربية لا تعرف أيا من هذه المفاهيم، فحضارتنا منفتحة تتعلم من كل خبرة أخرى، البيرونى يدعو للتعليم من «الهند» مبدأ التفوق، وحمق السيطرة لا وجود له، ولا يستمد مصادره بمعنى الحق فى القيادة إلا من الوظيفة الحضارية، حيث الباب مفتوح لكل من أسلم، وانتمى إلى تلك الأمة، التى لا يوحدها ويربط بين أبنائها سوى الإدراك الواحد: «لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى».

هذه المفاهيم الثلاثة التى شوهت جوهر القومية العربية، فى حاجة إلى وقفة تأمل أكثر تفصيلاً وأكثر بحثا من حيث عناصر كل منها وتغيرات تطبيقها فى الواقع العربى

المعاصر، كذلك يجب أن نتذكر كيف أنها شوهت الواقع الذى نعيشه، ويجب أن نتابع ذلك؛ لنزيل كل ما أحيط بالمفهوم القومى العربى من عناصر دخيلة، لا موضع لها فى ذلك الإطار المتكامل لفلسفتنا فى الحركة والتعامل.

ترى هل آن الأوان لأن نخلق فقها قوميا ذاتيا قادرا على أن يصارع ويتحدى، ليس فقط ببلغة العاطفة، ولكن بعمق التأصيل وبتكامل البناء؟

* * *

(١٣)

مفاهيم الأمن القومى العربى والإدراك القيادى

«نعم سوف أظل عربيّا» .

ولن يرهقنى أن أردد هذه الكلمات التى أعلنها فى صحوتى ومنامى، فى يقظتى وغفوتى، فى نهارى وليلى، ولن يوهن من عزمى كل ما أراه من حولى، حتى تلك القيادات التى أضحت رائحة أعمالها تزكم الأنوف، وهى غير واعية بما تمثله من عفونة، فأنا أعلم أنها قشور سوف ينفضها الجسد عن نفسه، فى لحظة معينة، إنها بقايا الماضى الذى نسعى للتخلص منه، وسوف تسقط بمرور الزمن وتتهاوى أمام حركتنا القادمة .

العروبة منطق للوجود وفلسفة للحياة، إنها منطق للوجود؛ لأنها وحدها التى تفسر لنا كل ما يحيط بنا، وعلى ضوئها فقط نستطيع أن نفهم ونقيم الأحداث والوقائع والتطورات، وهى فلسفة للحياة؛ لأنها تقدم لى جوهرا نقيا صافيا أستطيع من خلاله أن أستشف علاقتى بالماضى، وأصوغ على ضوء ذلك نظرتى إلى المستقبل، منطق وفلسفة يتفاعل كلاهما فى إطار واحد من البناء الفكرى الشامخ، الذى سوف يفرض على الجميع فى يوم من الأيام الاحترام، بل الرهبة والإجلال .

لا تنظر يا بنى فقط إلى الصفحات المخزية التى تعيشها أمتك، ولكن عليك أن تقلب الصفحة الأولى لترى أيضا الصفحات الرائعة التى نسجلها بدمائنا، لا أريد منك أن تتهرب من الحقيقة، ولكن أدعوك لأن ترى الحقيقة كاملة .

وهذا نموذج نعيشه فى هذه اللحظة بكل أبعادها، الوعى بالأمن القومى للأمة العربية .

فى عام ١٩٧٧ عندما طرح هذا الموضوع على أحد المراكز المتخصصة فى دراسة الوحدة العربية أعلن خبراؤه نفى ما يسمى بالأمن القومى العربى.

فى العام الماضى، وفى ندوة أقامها نفس المركز وخلال خمسة أيام كانت اللغة الوحيدة المتداولة صباحا ومساء، تدور حول هذا المفهوم، ومنذ عدة أيام خرج علينا أمين جامعة الدولة العربية بمناسبة الاحتفال بعيد تأسيسها، يحدثنا بأن واجب الجامعة هو العمل على بناء إطار واضح لهذا المفهوم، لقد ترسب المفهوم فى جميع القيادات الفكرية، وأضحى اللغة السائدة لدى كل مواطن مؤمن بعروبته، فماذا حدث وكيف حدث ما حدث خلال ثمانية أعوام؟ إن التمزق والمعاناة إزاء الأحداث هو الذى فرض الوثبة العملاقة، ولا نزال فى بداية الطريق.

لو عدنا إلى تاريخ فكرنا السياسى لوجدناه قد مر بثلاث مراحل متميزة بهذا الخصوص، فى مرحلة أولى - وهى مرحلة الآباء الأوائل - نجد أن الفكر القومى لم يكن يدرك شيئا عن هذا المفهوم، هى مرحلة عدم العلم، ثم تعقب تلك المرحلة مرحلة مدرسة العلاقات الدولية. إنها مرحلة تتميز بتجاهل المفهوم رغم العلم بالمفهوم، وهى مرحلة التشويه المتعمد.

المرحلة الأولى: يمثلها «ساطع الحصرى»، **الثانية**: يقودها أمثال «بطرس غالى»، وتأتى **المرحلة الثالثة** - وهى مرحلة النظرية السياسية - التى تؤمن بأن على نفسها عملية تطويع للفكر مع الواقع العربى، وهكذا نجعل هذه المدرسة محور البناء الفكرى لنظرية الأمن القومى، وهذا ما أخذه على عاتقه كاتب هذه الأسطر منذ عدة أعوام.

ولكن هل قياداتنا الواعية تطرح على نفسها هذا السؤال من منطلق علمى واقعى، بقصد احترام هذا المفهوم كدستور للحركة، وكمبادئ مقننة تفرض المسئولية أمام الضمير التاريخى؟

نعم يا بنى، السؤال الذى يجب على كل مسئول عربى فى موضع القيادة أن يطرحه على نفسه، وأن يصوغ بخصوصه إجابة واضحة ومقننة هو التالى:

ما هى مصادر التهديد للأمن القومى العربى؟ لأن الإجابة على هذا السؤال هى وحدها التى تسمح له بصياغة سليمة لحركته الدولية والإقليمية، بما لا يتعارض مع الأهداف الحقيقية للتطور السياسى فى الوطن العربى.

من المعروف أن كل أمن قومى لا بد وأن يصطدم بما يحيط به من أهداف أمنية للأمة والدول الأخرى المنتمية أو المتعاملة مع نفس الإقليم، وأى أمن قومى لا يمكن أن ينمو ويقوى إلا على حساب مفاهيم الأمن القومى المحيطة به. كل اتساع لمفهوم معين للأمن هو على حساب طمأنينة واكتمال المفاهيم الأخرى للأمن الإقليمى. المأساة التى يعيشها الأمن القومى العربى حاليا أن يجد نفسه لأول مرة فى تاريخه موضع جذب وشد بين ستة تطبيقات أخرى لمفهوم الأمن، وذلك دون الحديث عن عناصر العنف الذاتى فى مقومات هذا المفهوم وتفاعلاته:

■ **(أ)** على المستوى الكونى أو الشمول، أى حيث ينظر إلى المنطقة العربية على أنها محور التقاء، ومن ثم صدام بين نفوذ القوى الكبرى نجد ثلاثة مفاهيم أمنية تحصر فى نطاقها وتضغط على الأمن القومى العربى، بل وتسعى إلى تضييق فاعليته بأقصى حد ممكن. هذه المفاهيم الثلاثة هى:

أولا: أمن البحر الأبيض المتوسط الشرقى، حيث تلتقى قوى حلف الأطلنطى فى أضعف مواقعه، والاتحاد السوفيتى فى أخطر نقاط إمكانية النيل منه. الأول لا يستطيع إلا أن يعانى من اليونان وتركيا اللتين ينقصهما العمق الإستراتيجى، والثانى يعرف أنه لم يحدث أن خضع لغزو حقيقى ناجح إلا من منطقته الرخوة الممتدة فى شمال تركيا وإيران.

ثانيا: أمن المحيط الهندى، حيث تتقابل الإرادة الأمريكية الساعية للاقتراب الهجومى بقدر الإمكان من خصومها، وحيث احتمالات الحرب العالمية الثالثة تجد أرضها الخصبة فى منطقة تفيض بالشعوب الملونة، مما يجعل جميع القيادات البيضاء تعيش فى هلع من احتمالات المستقبل.

ثالثا: أمن «إسرائيل» وهنا كلمة «إسرائيل» تصير لفظا مضللا، لأن المقصود بها هو أمن القوى الرأسمالية الغربية، والاتفاق الإستراتيجى الذى تم بين تل أبيب وواشنطن فى سبتمبر من العام ١٩٨٣ يعنى أن هناك تحالفا أو على الأقل تعاونا مقننا بين القوات الأوروبية فى حلف الأطلنطى، والقوات الإسرائيلية والقوات الأمريكية ترفرف عليه وتخطط له القيادة العسكرية فى «البنتاجون».

■ (ب) الأمن العربى بين المفاهيم الثلاثة السابقة، يخضع لعملية جذب على المستوى الدولى، ولكنه يخضع لعملية جذب مماثلة على النطاق الإقليمى، فهناك أمن الخليج من جانب، وأمن القرن الإفريقى من جانب آخر، ثم أمن «إسرائيل» بمعنى الأمن الذاتى للدولة اليهودية من جانب ثالث، وفى كل من هذه التطبيقات الثلاثة هناك دولة غير عربية تعمل على تطويع دولة أخرى عربية لمفهومها الأمنى ولمصالحها المتعارضة مع الأمن القومى العربى.

فى منطقة الخليج نجد أن إيران وصلت إلى عقد اتفاق دولى مع سلطنة عمان فى مارس ١٩٧٤ يعطى الدولة غير العربية حق الرقابة على مداخل الخليج العربى وباسم دولة عربية، وفى البحر الأحمر نجد الحبشة تلعب دورا مماثلا، بل وصل الأمر إلى أن القوات اليمنية الجنوبية (سابقا قبل توحيد اليمن فى أوائل التسعينيات) حاربت مع القوات الحبشية كلا من الصومال وأرتيريا، ورغم أن هذه الدول العربية الثلاث تجلس جنبا إلى جنب فى مجلس جامعة الدول العربية، ويتشدق ممثلوها بالحديث عن التضامن العربى. ويكمل هذا الثالوث «إسرائيل» التى وجدت لها أكثر من حليف فى المنطقة. فمن الخطأ الحديث عن سياسة «كامپ ديڤيد» واحدة، هناك سياسات عديدة بنفس المعنى، ولسنا فى حاجة إلى أن نتذكر الكتائب المارونية التى تستمد مصادرها الفكرية مع حزب حيروت الحاكم من أب روحى واحد وهو الفلسفة الفاشستية.

■ (جـ) على أن أخطر نواحى التهديد هى مصادر العنف الداخلى، إن عوامل التفتت فى الأمن القومى العربى عديدة وهى كذلك بفضل قياداتنا غير الواعية التى لا تزال تمارس لعبة الأنانية والكذب غير واعية بأن الرأى العام العربى قد استيقظ وأضحى قادرا على فهم حقيقة ما يحدث حوله ولنذكر أهم عناصر العنف:

أولا: الاختلاف الديموغرافى فى عملية التوزيع السكانى فى مختلف أجزاء الجسد العربى، أكثر من نصف كثافة هذا الوطن توجد فقط حول وادى النيل، بل فى جزئه الشمالى بينما باقى أجزاء الجسد تعانى من فراغ سكانى مخيف.

ثانيا: تحول البحر الأبيض المتوسط (آنذاك) إلى ميدان (كانت) تمرح فيه القوى البحرية للدولتين الأعظم (سابقا) «موسكو وواشنطن» ورغم أن أكثر من نصف شواطئ هذا البحر تقع فى أرض عربية، ورغم أن جميع مداخله تتحكم فيها الإرادة

العربية، بل ورغم أنه يمثل ورقة إستراتيجية هامة لصالح الدفاع عن أوروبا، فإن العالم العربى لم يعرف كيف يستغل هذه الإمكانيات، ولنتذكر أنه إذا كانت القدرات العربية لا تستطيع أن تفرض على القوتين الأعظم الانسحاب من المنطقة، فإنها قادرة ـ على الأقل ـ أن تطلب ثمنا ومقابلا لهذا التواجد، إن الشواطئ العربية مهددة بالتلوث واختفاء الحياة السمكية من حولها. وهذا التهديد بالنسبة لهذه الشواطئ أكثر خطورة منه بالنسبة للشواطئ الأوروبية بسبب طبيعة هذه الأخيرة وما تتميز به من التواءات ونتوءات، ثم وجود جزر فى مداخلها، فضلا عن طبيعة المناخ الذى يجعلها فى حماية ولو جزئية من هذه التلوثات، ومع ذلك فإن الأصوات الأوروبية العالمية قد حصلت على مقابل لهذا التواجد بالبناء الاقتصادى، والمساعدات التى انتهت بخلق المعجزة الأوروبية، فماذا فعل الجانب العربى؟

ثالثا: السيادة العربية فى كل من البحر الأحمر ومنطقة الخليج أحد عناصر التهديد التى أبرزتها الأحداث الأخيرة بصفة خاصة، والتى وقفت إزاءها الإرادة العربية تكاد تكون مشلولة على الرغم من أنها ترتبط بالسيادة العربية فى كل من البحر الأحمر والخليج، كان الخليج والبحر الأحمر يمثلان ممرات مائية تنساب فى الجسد العربى تربط المحيط الهندى بقلب الجسد العربى، وأى من هذين الشريانين قادر على خلق انشطار وتجزئة للكيان العربى. البحر الأحمر أكد ذلك فى أكثر من تطبيق واحد، ولنتذكر ما حدث منذ عام ١٩٦٤ حتى عام ١٩٧٥ وهو واقع يمكن أن يتكرر، قفل قناة السويس يحيل مصر إلى دولة إفريقية و«إسرائيل» بحدودها الحالية تمنع المشرق العربى من أن يتصل بريا بباقى أجزاء الوطن العربى، وهو أمر لم يحدث قبل ذلك فى جميع مراحل تاريخ المنطقة. وأيضا الخليج قادر فى الغد على أن يؤدى نفس الوظيفة. فإن وثبة من «إسرائيل» عبر «الأردن» إلى «الكويت» قادرة على أن تحقق نفس الهدف لتشطر الشمال عن الجنوب، ومن الطبيعى أن يكون الرد المباشر على مثل هذه المخاطر هو أن تكون السيادة العربية على كل من البحر الأحمر والخليج العربى سيادة كاملة ومطلقة، وكان يجب لتحقيق ذلك الهدف بناء قوة عربية بحرية ضاربة تمثل إرادة تتحكم فى كل من تلك البحيرات وتصير بمثابة الذراع الطويلة القادرة على الدفاع عن المصالح العربية وفرض الهيبة العربية.

رابعا : أخطر نواحى الضعف فى الأمن القومى العربى من حيث مقوماته الذاتية هو اختفاء كل نوع من أنواع التكامل الوظيفى فى عملية الدفاع العسكرى عن الوطن العربى، فالأرض العربية تعانى من نواحى معينة من الضعف فى عملية الدفاع العسكرى عنها : فطول واتساع الشواطئ من جانب، مع عدم وجود أى عقبات طبيعية خلفها أو قبلها سواء فى شكل جبال تحمى تلك الشواطئ أو جزر قادرة على أن تعوق عملية الغزو والهجوم من الخارج من جانب آخر، ثم الطبيعة الصحراوية الممتدة التى كانت فى لحظة معينة مصدر قوة بسبب صعوبة اجتيازها فأضحت اليوم مصدر ضعف بسبب التقدم الرهيب فى أدوات الاتصال العسكرى من جانب ثالث، وأخيرا عدم وجود مواصلات حديثة وسريعة قادرة على الربط بين مختلف مراكز التجمع السكانى العربية، فى مثل هذا الواقع فإن مبدأ التكامل الوظيفى هو وحده الذى يسمح بالتخفيف من حدة نتائج هذا الضعف الإستراتيجى : إنه مسألة حياة أو موت؛ لأنه هو وحده الذى يسمح بانتقال جميع القوات القتالية من جميع المواقع ولو بنسبة معينة إلى موضع القتال.

خامسا : ويأتى فيكمل مبدأ التكامل الوظيفى ليصير الوجه السياسى فى الدفاع عن الإقليم العربى. ذلك الذى يجب أن نسميه مبدأ المساندة المطلقة بين عناصر منطقة القلب، الكتلة الديموغرافية تقع فى الدائرة التى تتوسطها القاهرة، والتاريخ يعلمنا أن التحالف بين «دمشق، والقاهرة» هو وحده محور النجاح فى صد أى غزو للمنطقة، وأن الفرقة بينهما هى مقدمة ضرورية للقضاء على كليهما، والتطور المعاصر يفرض توسيع الدائرة فالقاهرة ودمشق تمثل كلاهما فقرا اقتصاديّا، وآن الأوان لأن تفهم الرياض أن لتلك المنطقة حقوق فى ثرواتها، وبغداد تكمل هذا الإطار. إنها عاصمة الشموخ فى مواجهة الطوفان الهمجى القادم من المشرق، إنه فقر الشعوب الملونة فى سعيها نحو لقمة العيش فى منطقة جاذبة حيث الثروة المتراكمة والفراغ السكانى والضعف فى القدرة على الدفاع عن الذات.

سادسا : نجد هناك مخاطر الجسور الخلفية ومخاطر الالتفاف حول الجسد العربى فالمصدر السادس للتهديد ينبع من وجود جسور خلفية قادرة على تفتيت الجسد العربى تقع فى غير الأرض العربية، النموذج الواضح هو منابع النيل التى تتوزع بين أوغندا

الوثنية والحبشة القبطية، الجسور الخلفية بهذا المعنى لا تقتصر على وادى النيل، بل تتعدى ذلك إلى جميع أجزاء إفريقيا العربية، بعض التقارير المتداولة فى سرية وخفاء تحدثنا عن مشروعات قيد البحث والدراسة أساسها تفجير جبال «الكونغو» الأمر الذى سوف يسمح بسحب مياه النيل إلى «الكونغو» ومن ثم تحويل مصر ، والسودان إلى صحراء قاحلة، هذا التهديد الذى تدرسه مراكز البحوث فى «تل أبيب» يجب أن يؤخذ على محمل الجد وألا ينظر إليه بالاستخفاف المعتاد.

■ (د) هذه العناصر المختلفة لمفهوم الأمن القومى يجب أن تكون دستورا للممارسة من جانب القيادات المسئولة. ولو عدنا نتابع تطور هذه الممارسات منذ اتفاقية فك الاشتباك الثانى على الجبهة المصرية عام ١٩٧٥ لهالنا مدى تجاهل القيادات المسئولة فى مختلف أجزاء الوطن العربى لمعنى هذه المبادئ، هل هو نقص فى الإدراك؟ أم عدم الصلاحية؟ أم احتقار الشعوب التى حملت تلك القيادات إلى السلطة؟ إنه على كلٍّ يعنى أن هذه القيادات التى خالفت هذه المبادئ لم تعد صالحة وقد فقدت شرعيتها.

إن متابعة قصة العلاقات الدولية العربية منذ حرب أكتوبر وحتى هذه اللحظة نجدها نموذجا واضحا للفشل العربى فى فهم معنى تقاليد الأمن القومى العربى. فليس فى هذه الفترة التى تستغرق أكثر من عشرة أعوام صفحة واحدة من أى طرف من الأطراف العربية تعلن عن فهم قائد حاكم عربى واحد معنى الأمن القومى العربى ومتغيراته، ورغم أن هذا الحكم قد يبدو مبالغا فيه فليس علينا سوى أن نتابع الوقائع، ونرصد الأحداث لندرك مدى التدهور الذى يميز هذه الفترة من تاريخنا المعاصر:

أولا: تبدأ الفترة بفتح باب التعامل المصرى الإسرائيلى خطأ من جانب الرئيس المصرى قاد المنطقة إلى التهلهل الذى تعيشه على وجه الخصوص، منذ أحداث «لبنان» وخطره من الجانب العربى، وكانت فى موقف الانفعال والعاطفية باسم جبهة الصمود والتصدى.

ثانيا: حروب متعددة إقليمية ومحلية تارة بين الحبشة وجيرانها العرب، وتارة أخرى بين ليبيا ومصر. دون الحديث عن حرب الصحراء، لا تعبر إلا عن عدم فهم لكل ما له صلة بمفهوم الأمن القومى العربى، وما حدث من تعامل بين اليمن الجنوبى والحبشة والذى صمتت عنه الدول العربية وجند اليمن الجنوبى يحاربون إخوانهم الذين

ينتمون إلى دول أعضاء فى جامعة الدول العربية، إنما قدموا نموذجا لما سوف يقدر له أن يحدث فى حرب الخليج عقب ذلك.

ثالثا: حرب لبنان بكل عناصرها جاءت تطرح موضوعا آخر، وهو سيادة المفهوم الطائفى والولاء الطائفى على المفهوم القومى، ومقتضيات الأمن القومى، وقاد ذلك التفتت طبقة مسئولية بحكم الوظيفة التاريخية. التى تمثلها وموقعها فى منطقة القلب عن سيادة مفاهيم الأمن القومى.

رابعا: ثم جاءت الحرب العراقية الإيرانية لتقدم نموذجا آخر، أكثر خطورة، ولا يقل من حيث آثاره المستقبلية عن اتفاقات «كامپ ديڤيد» عندما قسمت دول الوطن العربى إلى فريقين:

أحدهما يناصر إيران، بل ويمدها بالسلاح والعتاد، وفى بعض الأحيان بالجند دون الحديث عن التأييد الدولى، والآخر يقف موقف التأييد الرمزى الذى لا يتعدى لغة الكلام والمزايدات الخطابية، إن مقتضى الأمن القومى أن جميع الدول العربية يجب أن تحمل وزرها من المسئولية إزاء حرب الخليج، أما عن مصر فيبدو أن قيادتها قد نسيت وظيفتها التاريخية التى فرضتها عليها جميع متغيرات التطور فى منطقة الشرق الأوسط، وتقوقعت فى نظرة سلبية لا تعبر إلا عن الخوف وعدم القدرة على تحمل المسئولية.

عندما خالف القائد والرئيس مبادئ الأمن القومى، قال فيه كلمته شعبه العظيم، ونفذ ما تعنيه تلك الكلمة جيش مصر الظافر فى محاكمته التاريخية، فمتى يتردد هذا الصوت مرة أخرى قويا بإيمانه، عميقا بثقته، صارما بصلابته، لا يعرف التردد ولا الانحناء؟

نعم، لهذا سوف أظل أنادى بعروبتى انتظارًا تلك اللحظة التى أشعر بها قادمة ترفرف على المنطقة بلغة الرجولة، وقد ارتفعت من الضمير والوعى الجماعى لتفيض أيضا على تلك القيادات المتلاعبة التى آن لها أن تختفى من ساحة صراعنا القومى».

* * *

(١٤)

العروبة السياسية ونظام القيم الحضارية

«الرجولة السلوكية فى تقاليدنا التاريخية»

«سوف أظل عربيّا».

نعم يا بنى سوف أظل أردد الكلمة وأدعو إلى هذه القناعة حتى لو انفض من حولى الجميع، إنها ليست فقط صوت القدر ولكنها إعلان من طبيعة التطور الذى تعيشه أمتنا، منذ قرابة نصف قرن من الزمان، ولا نزال نعيش فى بدايته، ما هى وظيفة المحلل السياسى؟ أن يبحث وينقب ليكتشف حقيقة المتغيرات التى تحيطه وثمار تفاعلات تلك المتغيرات ، وعندما يكتشف الحقيقة الخفية التى لا تراها العين المجردة العادية والتى لا يفهمها إلا من وهبته الطبيعة إمكانات معينة صقلتها الخبرة والتجربة من جانب، والمعرفة من جانب آخر، فيصير واجبه أن يدفع بالتطور نحو ذلك المصير الذى فرضته القوة العليا وجوهر الأشياء، ليس هذا تواكلا واستسلاما، ولكن هذا هو علم السياسة فى أدق معانيه، وأخص جزئيات منطقه المتكامل، أليس هذا هو المحور الوحيد الذى تلتقى حوله الماركسية فى تقاليدها الفكرية، والمدارس الغربية فى مفاهيمها الوضعية؟

العروبة يا بنى هى جوهر الوجود السياسى لهذا الجزء من العالم الذى إليه تنتمى وهى بمعنى القومية، لا تعود ولا تستمد عناصرها فقط كما يتصور البعض من ذلك القريب المعاصر ومن أحداث الصدام بين الثورة العربية . والخلافة العثمانية فى بداية القرن العشرين التى أعقبتها صراعاتنا المختلفة مع المستعمر الغربى، ثم المغتصب الصهيونى، ومواجهتنا اليوم مع «رعاة البقر» القادمين من العالم الجديد، إنها جوهر التطور الحضارى الذى عاشته المنطقة منذ قرابة عشرين قرنا، وهى موجات متعاقبة تارة

ترتفع إلى القمة فإذا بها شامخة عنيفة قوية، وتارة تنخفض إلى القاع فإذا بها قد تحولت ضعيفة متهاوية تتردد حتى فى أن تعلن عن وجودها، وهى كما سبق وذكرنا مركبة من حيث طبيعتها، وهى كذلك، وهذه ناحية أخرى آن لنا أن نقف إزاءها وقفة تأمل وتحليل، كلية وشاملة، العروبة القومية ليست مجرد علاقة سياسية، إنها نظام متماسك من القيم حيث تندرج تلك العلاقة السياسية كأحد عناصر ذلك النظام من الأخلاقيات والمثاليات. العلاقة السياسية أى كل من له صلة بالعلاقة بين الفرد أو المواطن والمجتمع القومى الذى إليه ينتمى، ومنه يستمد وجوده الحضارى فى مفهومنا العربى تنصهر فى بوتقة المثاليات، هذه البوتقة هى قيم العروبة بحيث لا يمكن فصلها عن ذلك الكل المتكامل بأى دعوى كانت، العروبة نظام متكامل من الأخلاقيات والمثاليات تفرض، وتقود إلى مفهوم وإدراك معين من العلاقة السياسية، فهل يستطيع المفكرون لدينا والمنظرون لعالمنا السياسى الذين تعودوا كلما أطلقنا هذه الكلمة- أى القومية - أن يسرعوا يهرولون نحو «فيشت» و«روسو» وغيره أن يعوا معنى ذلك ليفهموا أن عليهم أيضا أن يسرعوا ليستعيدوا كتابات «ابن خلدون» و «الفارابى» ويقرءوا بعناية ودقة خطب «علىّ، ومعاوية» ورسائل خلفاء الإسلام ليستطيعوا أن يفهموا معنى هذه العروبة وليربطوا بين العناصر التى منها تتكون فى نسيج واحد من الإدراك الحضارى القادر على أن يتسع ليحتضن واقعنا المعاصر، ويحدد مستقبل أمتنا وحركتنا الكفاحية الخلاقة ووظيفتنا الحضارية فى الأعوام القادمة؟

■ (أ) فلنبدأ بأن نتابع نماذج التاريخ القومى المعاصر فى خارج الواقع العربى. كيف ظهرت القومية، وكيف تبلور المفهوم القومى. القومية فى العالم الأوروبى خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يقول «هانز كوهن» خير من أرخ للمفهوم القومى والمنظر العالمى لمبدأ القومية: (القومية لا تعود إلى أكثر من النصف الثانى من القرن الثامن عشر). ويضيف: (القومية لم تتبلور إلا مع الحضارة الحديثة وهى عديمة الصلة بغير تلك الحضارة) هذه الملاحظات مردها فقط الخبرة الأوروبية، والواقع أن المفهوم القومى يفترض عناصر ثلاثة ليستطيع أن يمارس تفاعلاته السياسية:

أولا: الثورة على الأوضاع القائمة؛ لأن المفهوم القومى فى ذاته هو ثورة، وقد تحقق ذلك مع الثورة الفرنسة حيث تحددت الثورة ضد النظم الإقطاعية.

ثانيا: التسليم بمبدأ السيادة الشعبية حيث تصير الشرعية مردها الإرادة الكلية الشاملة للجماعة.

ثالثا: نظام سياسى مركزى حيث تسعى إرادة عليا لاستيعاب مختلف القوى فى ذلك النظام.

ارتبط المفهوم القومى بهذا المعنى للوجود السياسى بخصائص خمس تكون من مجموعها ذلك النموذج المثالى للوجود والتعامل الذى أطلق عليه الفقه الأوروبى اصطلاح القومية السياسية.

أول هذه المفاهيم «الحرية القومية» المجتمع القومى حر، وليس من حق أى مجتمع قومى - بأى دعوة كالوظيفة الحضارية أو التقدم الاجتماعى - أن يسيطر أو يتحكم فى أى مجتمع قومى آخر، الحرية القومية هى الوجه المعنوى لمبدأ القومية السياسية. ارتبط هذا المفهوم بظاهرة النظم الديمقراطية، لقد ترسبت فى مفاهيم القرن التاسع عشر علاقة ثابتة بين التحرير السياسى وتأسيس النظم الديمقراطية، إن مجتمعا تحكمه أو تتحكم فى مصيره قوى غير قومية لا يمكن أن يعرف الواقع الديمقراطى.

والديمقراطية فى أوسع معانيها هى المحور الحقيقى لاحترام كرامة الفرد أو المواطن، فالمواطن لا يعتبر حقيقة فاعلة إلا فى نظام يقوم على مفهوم الديمقراطية، حيث المساواة ترتفع إلى مستوى القاعدة الأساسية المثالية المطلقة للوجود، وللممارسة السياسية، الحق فى اختيار النظم والقوانين، أى فى وضع القواعد التى يتعين على المواطن أن يتبعها فى ممارساته اليومية، يأتى فيكمل هذه العناصر المختلفة لمفهوم القومية على أن هذا الحق يرتبط بحق الأغلبية. بمعنى أنه إذا كان من حق المواطن باسم المعارضة المشروعة أن يناقش ويفند أى قانون يراد اتخاذه، فمتى صوتت عليه الأغلبية التزمت به الأقلية وأضحى ساريا أيضا على المعارضة الرافضة.

هذه العناصر الخمس التى يتكون من حصيلتها المفهوم القومى هى قيم سياسية، وهى فى التقاليد الغربية تقف فى ذاتها ولذاتها مستقلة عن أى قيم أو أخلاقيات أخرى، القومية العربية تنطلق من تصور آخر. ورغم أنها تنتهى إلى هذه القيم أيضا وتسلم بها إلا أن نقطة البداية فى بنائها الفكرى هو أن القيم السياسية جزء من نظام متكامل للقيم

والأخلاقيات المثالية، فما هى تلك المثاليات والأخلاقيات التى تنطلق منها العروبة والتى لا بد وأن تقود إلى المفهوم القومى كنتيجة لازمة لتلك الإرادة المتكاملة؟

■ **(ب)** القومية فى تقاليدنا وتراثنا هى نظام للحياة، ومضمون للسلوك الإنسانى، وجوهر للتعامل اليومى، ونظرة للوجود. إنها كل ذلك فى آن واحد ولا يستطيع المحلل أن يفهم تلك الأبعاد المختلفة إلا إذا تعمق فى جوهر العروبة كأخلاقيات ومثاليات. فما هو ذلك الجوهر؟ العناصر الأساسية التى يتكون منها الإنسان الكامل فى تراثنا التاريخى والذى منه نبعت جميع مفاهيمنا الحضارية بما فى ذلك تلك السياسية، نستطيع أن نبلورها حول أربعة عشر عنصرا متداخلاً بحيث إنها تكاد تكون نوعا من الأوانى المستطرقة، ولكنها فى مجموعها تقدم لنا ذلك النسيج المتكامل للأخلاقيات العربية:

أولا: الرجولة.

ثانيا: الكبرياء.

ثالثا: الكرامة.

رابعا: الوفاء.

خامسا: الشعور بالمسئولية.

سادسا: احترام الآخرين.

سابعا: حب الآخرين وعدم الأنانية.

ثامنا: المساواة.

تاسعا: الاعتدال.

عاشرا: التطور.

حادى عشر: الإيمان والثقة بالذات.

ثانى عشر: الإيمان بالوظيفة الحضارية.

ثالث عشر: النظرة إلى الحياة الدنيوية على أنها معاناة.

رابع عشر: القدرة على التضحية.

هذه المبادئ الأربعة عشر هى الخلفية الحقيقية التى فرضت مفهوم القومية السياسية فى تقاليدنا العربية. إن القومية رجولة، إنها تعنى أولا - وقبل كل شىء آخر - الصلابة فى المواقف والقدرة على تحمل المسئولية، والاستعداد للتضحية بالذات مهما كانت النتائج، إنها مواجهة لموقف حيث لا نصير ولا سند إلا الثقة فى الذات، إنها رفض للخنوع، إنها مغامرة غير محسوبة، إنها إلقاء بالذات فى تيار المجهول حيث لا سند ولا نصير إلا الإيمان بأننا على حق، إنها تعنى أن المجتمع قد تحول فأضحى كل رجل فيه بطل وكل امرأة فيه رجل وكل منزل فيه قلعة فى مواجهة أولئك الذين لا يريدون إلا الاعتداء واغتصاب الحقوق المشروعة، إنها قصة الحرية الإنسانية، بلغة الدماء التى تروى الأرض بكرم وسخاء، والشجاعة والشهامة العربية اعترف بها الخصوم قبل الأصدقاء، وقصة الحروب الصليبية عامرة بالنماذج.

لذلك فالعروبة السياسية تفرض الاعتدال، ليس بمعنى التردد فى المواجهة وإثبات القدرة على العطاء، ولكن بمعنى أن كل عنصر فى الجماعة له نفس الحقوق، وهكذا تصير الأفضلية فى الجماعة السياسية مردها الأصل أو الانتماء الطبقى، فهذه عناصر لا يعرفها المجتمع العربى.

ولكن «التقوى» كلمة واسعة فضفاضة تعنى الكثير ولكن فى جوهرها تحدد الاقتراب من الإنسان الكامل، الذى هو وحده محور مثاليتنا السياسية وغير السياسية، كل مواطن له حقه فى احترام كرامته، إذا كانت هناك تفرقة بين العامل ورب العمل أو بين الرجل والمرأة فإن هذا مرده الأساسى هو فقط مبدأ التخصص وتقسيم العمل. كل عضو فى الجماعة له كرامته، وله حقوقه، وهو متساو مع الآخرين فى كل ما يتصل باحترام تلك الكرامة.

القومية هى ثورة، وهى ثورة دائمة، وفى مرحلة الثورة المرأة لها دورها الذى لا يقل عن دور الرجل وهى لا تملك فقط حقها فى المشاركة بل الالتزام بالمساهمة الفعلية فى أداء الوظيفة المرتبطة بذلك الصراع القومى، من يريد على ذلك دليلا فليذهب يتحرى قصة الثورة الفرنسية وقواتها تخرج غازية أوروبا باسم الحرية والإخاء والمساواة وليتتبع قصة القومية الألمانية التى تقف فى مواجهة ذلك الغزو بصلابة ورجولة لم يعرفها التاريخ المعاصر، إلا فقط حين تبرز كلمة القومية، لتسطر أروع صفحات ملحمة الصراع الإنسانى فى سبيل تحقيق ذاته.

ولكن لماذا نذهب بعيدا وأمامنا التاريخ العربى فى أكثر من نموذج واحد، وقد تعود مؤرخو قوميتنا أن يتناسوه وأن يتصوروا أن العبر نستمدها فقط من التاريخ الأوروبى؟ أين صفحات الملحمة العربية التى أعدت لبناء الدولة القومية الأموية؟ ألم تكن النساء اللاتى حققن النصر العربى فى معركة اليرموك عندما أخرجن سيوفهن ليهددن أزواجهن بالقتل لو حاولوا الفرار؟

القومية رجولة بكل وبأوسع ما تعنيه تلك الكلمة من معان: قدرة على اتخاذ المواقف، صلابة فى مواجهة الأخطار، تواضع إزاء الضعيف، ليست الرجولة تبذلا وليست عنفوانا وليست غرورا بالقوة وليست عنفا فى التعامل مع غير القوى، إنها أيضا اعتدال، وهى بهذا المعنى حنان وعطاء، وهى لذلك صراحة مع النفس واعتراف بالأخطاء، وهى من ثم انفتاح على الآخرين، وتقبل لكل ما تقدمه الخبرة من سمو أو تميز، والتميز فى الرجولة ليس الاستعلاء، ولكنه التعلم، وليس الغرور، ولكن إعطاء كل ذى حق حقه.

هذا الإطار المتكامل للأخلاقيات والمثاليات هو المصدر الحقيقى لمفهوم العروبة السياسية، كتعبير عن مبدأ القومية، تفسير للعلاقة بين المواطن والدولة، وعندما نصل إلى هذه العلاقة نجد أن الترتيب التصاعدى للقيم السياسية التى دون أن تنفصل عن النظام الكلى للأخلاقيات العربية تأتى فتكمل هذا الإطار للفهم الواعى لإدراكنا بالتميز الحقيقى لمفاهيم القومية والعروبة فى تراثنا الذاتى.

العروبة السياسية يجب أن تفرض الترتيب التنازلى فى المبادئ التالية:

أولا: مبدأ الطاعة لولى الأمر.

ثانيا: مبدأ التضامن مع الأمة.

ثالثا: مبدأ التماسك بين جميع أجزاء الجسد السياسى.

رابعا: مبدأ الجهاد مع خلاف فى تفاصيل جزئيات تطبيقه.

خامسا: مبدأ السيادة المطلقة للقيم الإسلامية.

وجميع هذه العناصر فى حاجة إلى تفصيل.

■ (جـ) الذى نريد أن نصل إليه من هذا العرض المعقد لمفاهيم قد تبدو مركبة ولكنها واضحة من حيث دلالتها:

أولا: القومية العربية تنطلق من مفاهيم أخلاقية، وهذا يفسر منذ البداية لماذا وقفنا وسوف نقف ضد سياسات كامپ ديفيد، ليس فقط لأنها تخالف المصالح العربية، ولكن لأنها تخرج عن مقتضى أخلاقياتنا ومثالياتنا السلوكية.

ثانيا: العلاقة بين الإسلام والعروبة، إن الإسلام يقدم المبادئ التى تنطلق منها العروبة، إنه الروح حيث تعتبر العروبة الجسد والأداة المنفذة لتلك المثالية فى بعض عناصرها.

ثالثا: القومية العربية تختلف عن كل قومية أخرى. إنها تملك منطقها الذاتى وطبيعتها المتميزة، بل وتاريخها المستقل.

رابعا: كذلك فإن القومية العربية لا يمكن أن تنفصل عن عملية إحياء التراث القومى: وجهان لعملة واحدة.

هذا هو منطقنا: تميز واستقلال وأصالة. وهذه هى حركتنا السياسية: أخلاقيات ومثاليات تنبض بالرجولة وتنطلق من الشهامة والبطولة.

ترى متى تعى قياداتنا هذه الحقائق؟ ومتى تفهم كيف أن سلوكها الدولى والإقليمى وهى تتحدث باسم هذا المجتمع يجب أن ينطلق فقط من هذه المفاهيم؟

* * *

(١٥)

أين الدولة القائدة من مسئوليتها الجماعية؟؟

«نعم سوف أظل عربيًا» .

سوف أظل أردد هذه الصرخة لا من منطلق العاطفة واللغة الغوغائية ، ولكن من منطلق العلم بمنطقه الجامد ، حيث تصير قراءة التاريخ هى أساس منهاجيتنا . وتحليل الواقع ومعايشته هو محور تأصلينا . وهدفنا النهائى هو البناء الحقيقى المكتمل لنظرية كلية شاملة للقومية العربية تنطلق من هذه الأرض لتربط الماضى بالحاضر بالمستقبل ، ليس فقط لتحقيق ذاتية كل عربى فى أرض أجداده ، بل ولتسمح للأجيال القادمة أن تسير فى طريق قد أناره التدبر ، حيث وظيفة هذه الأمة قد خطت العناية الإلهية ملامحها ومسالك تطويرها .

نعم يا بنى ، نريد أن نعرف موقفنا المتميز فى تاريخ الإنسانية ، لا يكفينا أن نتحدث عن الذات ولكن هذا الحديث عن الذات هو المنطلق الذى سوف يسمح لنا بفهم أهمية هذه الذات فى التراث الإنسانى القديم والمعاصر ، وما يفرضه علينا ذلك فى المستقبل . يجب أن نفهم ذاتنا ، ليس فقط التاريخية والحضارية ، بل وكذلك موضع تلك الذات من التطورات التى تعاصرنا وتحيط بنا ، كفانا تشبها بالآخرين ، وكفانا نقلا عن الآخرين ، وكفانا عبودية إزاء فكر الآخرين . علمنا آباؤنا أن نتتفع بكل خبرة ولكن بشرط أن يظل وجودنا عملاقا يجذب إليه الآخرين ليلقى بظلاله عليهم وليقدم لهم دروسا . قدسية السمو فى أخلاقيات التعامل ومعنى عظمة التعامل مع أخلاقيات الوجود الإنسانى .

■ (أ) التطور السياسى الذى يعيشه الوطن العربى خلال النصف الثانى من القرن العشرين يحتضن ثلاث ظواهر كل منها يمثل فى ذاته حقيقة مستقلة، تخضع لمنطق متميز، العناق بين هذه الظواهر الثلاث المستقلة والمتميزة كان ولا بد وأن يؤدى إلى تشابك واضطراب فى المفاهيم وهو ما آن لنا أن نوضحه فى صورة قاطعة.

أولا: الظاهرة الأولى وهى ظاهرة القومية العربية، وهى تعنى اتجاه جميع العناصر التى تصف نفسها بأنها تعبر عن الانتماء العربى لأن تتكتل وتنصهر فى إرادة واحدة ترتبط بظاهرة القومية العربية وتنبع منها:

١ ـ ظاهرة التحرر القومى، وهى ظاهرة تتسع لتشمل وضع حد لتواجد أى عنصر دخيل استطاع أن يقتطع جزءا أيا كان من الأرض العربية. تحرير «فلسطين» وتحرير عربستان، وتحرير الإسكندرونة، وتحرير الجولان. تنتهى جميعا إلى هذا الفصل من أبواب الثورة العربية.

٢ ـ إعادة بناء الدولة والإصلاح السياسى لهذه الدولة المعبرة عن الوجود القومى بمعنى الإحياء العربى الذى سوف ينتهى بخلق الدولة العصرية ذات الفاعلية، والتى سوف تسمح للمواطن العربى بأن يحقق ذاته من جانب وأن تحترم كرامته الفردية من جانب آخر يمثل العنصر الثانى فى التحرك القومى للعروبة السياسية.

٣ ـ وهذا يعنى أن القومية العربية تقوم على فكرة الترابط التاريخى بين التراث القومى والواقع المعاصر، بما ينطوى تحت ذلك من تأكيد مفهوم الاستمرارية للوظيفة الحضارية.

ثانيا: الظاهرة الثانية والتى قد تبدو لأول وهلة مختلطة بتلك الأولى ـ أى بالتطور القومى رغم استقلالها شبه الكامل ـ وهى التطور الوحدوى ليس بمعنى صهر المجتمع العربى فى إرادة سياسية واحدة، ولكن بمعنى تجميع مختلف القوى الإقليمية التى تنتمى إلى القارة العربية فى إطار واحد من الوحدة السياسية، والتكامل الاقتصادى، مما لا شك فيه أن القومية العربية مقدمة للوحدة السياسية ولكن علينا أن نتذكر أيضا أنه من منطلق التنظير المجرد فإن الوحدة السياسية يمكن أن تتم بمعزل عن القضية القومية. وهنا يصير محور التساؤل ليس هو فقط اللغة الواحدة أو الحضارة الواحدة

ولكنه لا بد وأن يتلون هذا السؤال بمنطق التكامل الاقتصادى والتميز الوظيفى فى نطاق الأسرة الدولية.

والتطور الوحدوى بهذا المعنى يطرح مشاكل أخرى:

١ ـ أسلوب التوحيد السياسى: هل هو القوة والعنف أم الرضا والاتفاق، أم من خلال عملية الاندماج التدريجى، أو جميع هذه الأساليب دفعة واحدة؟

٢ ـ كذلك فإن الوحدة السياسية تملك نماذجها التى لا تتفق مع نموذج الدولة القومية، الوحدة السياسية تثير فى أغلب الأحيان مفهوم الدولة الفيدرالية والدولة الفيدرالية تعنى فى حقيقتها إضعافا للقوى؛ لأنه يتدرج فى إطار أكثر اتساعا تقوية للضعيف؛ لأنه من خلال الوحدة السياسية وإطارها الفيدرالى سوف يجد من يسانده فى مواجهة القوى، فدولة كـ «ألمانيا» قادرة على أن تبتلع أى دولة أوروبية من حولها لو تعاملت معها على حدة، ودولة كـ «بلجيكا» لو ووجهت بدولة فرنسا دون إطار نظامى يضع قواعد للتعامل فإنها لا يمكن إلا أن تصيبها الرهبة والخوف، ولكن فى إطار نظامى، كالذى تسعى إلى إقامته أوروبا من خلال السوق المشتركة نجد أن «بلجيكا» تستمد قوتها من صوت المجموع، و«ألمانيا» لن تستطيع إلا أن تنحنى إزاء أى قرار يصدر عن الأغلبية، بهذا المعنى فإن النموذج الفيدرالى يسمح بخلق نوع من التوازن، حيث يضعف القوى ويقوى الضعيف.

٣ ـ كذلك فإن مفهوم الدولة العربية الواحدة المتحدة تسمح بتخطى مشكلة الأقليات غير العربية والمنتشرة على حدود الإقليم العربى والتى تثير الكثير من المشاكل التى يصعب تخطيها بسهولة من المنطلق القومى المجرد، وذلك مثل: منطقة الأكراد، ومنطقة جنوب السودان، ومنطقة البربر، جميعها تنتمى إلى هذا الوطن العربى بحكم المصالح والتكامل الاقتصادى، ورغم أن مفهوم الأمن القومى يفرض على تلك الأجزاء بدورها الانتماء العربى إلا أننا نعلم أيضا بأن هذا المفهوم ينطلق من مبدأ: الضرورة تبيح المحظور، على العكس من ذلك فإن الوحدة الاقتصادية لهذه القارة تجعل من هذا الانتماء وقد انطلق ليس من مبدأ مصالح الوطن العربى ذاته، ولكن من المصالح الذاتية لنفس تلك الأجزاء، فالوحدة العربية هى فى جوهرها مشروع تنموى.

ثالثا: الظاهرة الثالثة والمستقلة عن كلتا الظاهرتين: القومية من جانب والوحدوية من جانب آخر ترتبط بإعادة تشكيل علاقة التوازن بين عناصر ومقومات الأسرة الدولية، هذه الظاهرة الثالثة مترتبة على تحقيق الظاهرتين الأولى والثانية. اتساع الأرض العربية من جانب وموقعها الإستراتيجى من جانب آخر، بما يعنيه ذلك من قدرتها على التحكم فى المداخل البحرية للبحر الأبيض المتوسط، ثم الإمكانيات الاقتصادية التى سوف تتضخم فى حالة الوحدة من جانب ثالث، لا بد وأن يؤدى إلى تطور معين فى علاقة القوة الدولية المتحكمة فى إطار التوازن الدولى.

التمييز بين هذه الظواهر الثلاث لا يمنع من وجود علاقة ثابتة تربط بينها، يبدو ذلك واضحا فى قنوات الاتصال التى تفرض التفاعل المستمر، بحيث إن النجاح فى التطور السياسى المرتبط بأى من هذه الظواهر لا بد وأن يسجل نجاحا آخر فى التطور المرتبط بالظاهرتين الأخيرتين، والعكس صحيح، إحدى هذه القنوات التى لم يولها الفقه القومى العربى حتى اليوم أهميتها الحقيقية والتى شوهت فى مفاهيم التعامل فى المنطقة وحول المنطقة هو مفهوم «الدولة القائد».

■ **(ب)** الدولة القائد أى الدولة التى يجب أن تقود الحركة السياسية، سواء بمعنى تكتيل الإرادة القومية أو بمعنى فرض الحركة الوحدوية أو بمعنى التصدى للتعامل مع القوى الدولية تمثل مشكلة أكثر عمقا مما قد يبدو لأول وهلة، وأكثر خطورة مما تتصور، إنها أحد العناصر الأساسية لنجاح التطور السياسى فى أى بعد من أبعاده، إنها أداة خلق الترابط بين مختلف أبعاد التطور، وهى لا تعنى فقط حقوقا لتلك الدولة بل وتفرض عليها التزامات، إنها تعنى كذلك حنكة سياسية معينة محورها الحذر الكلى والشامل لأنها فى تحركها وفى كل ما يصدر عنها بشكل أو بآخر إنما تتحدث باسم هذه المنطقة رضيت بذلك أم أبت.

ما معنى الدولة القائد؟

هذا المفهوم أول من طرحه «فيشت» فيلسوف الوحدة الألمانية فى أوائل القرن الماضى، وكانت المناسبة تدور حول الصراع العنيف، بصدد تحقيق الدولة الألمانية الكبرى التى تمثل أكثر النماذج قربا من الواقع الغربى، ما هى الدولة التى كان يجب

أن تقود الحركة الوحدوية فى ألمانيا الذليلة فى مواجهة فرنسا الغازية؟ بروسيا أم النمسا؟

الفقه الألمانى تنازعته الاتجاهات، «فالنمسا» أكثر تحضرا وأكثر اتساعا وأكثر ثباتا وقوة، بينما تواجهها بروسيا التى تكاد تكون منعزلة متقوقعة حول نفسها لا تمثل تلك الأبهة التى يمثلها بلاط ڤيينا. «فيشت» فى كتابه الأشهر بعنوان «الحديث إلى الأمة الألمانية» وقف يدافع عن حق «بروسيا» والتزامها فى قيادة الحركة الوحدوية الألمانية، وذكر فيشت أن حق بروسيا المشار إليه مصدره أن تلك الجماعة هى وحدها التى تمثل النقاء الجرمانى، وهى أكثر قدرة على تمثيل الحضارة التيوتونية الأصل، وهى ذات التقاليد العسكرية الحقيقية وهى التى تصدت لغزو «نابليون بونابرت» فى موجاته المتلاحقة، ومن ثم فإن حقها فى القيادة لا تستطيع أن تنازعها بخصوصه أى جماعة أخرى، الدولة القائد بهذا المعنى تصير وظيفتها واضحة: تكتيل للقوى الإقليمية والقومية، تحمل الالتزام بالسعى نحو تكون الدولة الموحدة ذات الإرادة الواحدة.

هذا المفهوم لم تعرفه ـ العكس من ذلك ـ الخبرة القومية الإيطالية، ولكن التحرك الوحدوى فى أوروبا الغربية وبصفة خاصة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية طرحه بوضوح، وانتهى بأن سلم لفرنسا بحقها فى قيادة تلك الحركة الوحدوية، وقد ظهرت معالم ذلك واضحة خلال فترة وجود ديغول فى الحكم، الذى لم يتردد فى خلق ما سُمِّى فى حينه محور (بون ـ باريس)، وقد سار على نفس الدرب كل من «بومبيدو، وديستان»، ولكن الشخصية القيادية التى تبلورت فى ممارسة «ديغول» لم يقدر لها أن تعيد النموذج مع «ميتران» مما كانت له آثاره فى تأخير التطور الوحدوى الذى تعيشه أوروبا الغربية منذ عدة أعوام.

ولو انتقلنا إلى الوطن العربى، وطرحنا هذا الموضوع بصراحة ودون حساسيات، لكان علينا أن نلاحظ منذ البداية كيف أن جميع المتغيرات فرضت على «مصر» هذه الوظيفة القيادية، ورغم أنه فى لحظة معينة وجد التنافس بين «القاهرة» وبعض عواصم المشرق العربى، ورغم أن دولا أخرى اعتقدت أنها قادرة على أن تؤدى وظيفة «مصر» فى هذه القيادة، إلا أنه قد آن الأوان لأن نفهم ما تعنيه كلمة «الدولة القائد» بخصوص

التطورات المقبلة، إنها التزامات وحقوق، إنها مسئولية وقيود، قبل أن تكون امتيازات وتطلعات، إنها قواعد يجب أن تقنن بصراحة ووضوح.

ولكن قبل أن نتصدى لذلك، أى لتقنين العلاقة بين «مصر» والدول العربية فى ضوء هذا المفهوم، أى وظيفة الدولة القائد، علينا أن نتذكر الأسباب الحقيقية التى تفرض على مصر تلك المسئولية:

أولا: «مصر» هى الهيبة الدولية «مصر» تثير فى كل قائد ومسئول تاريخا يمتد إلى قرابة سبعة آلاف عام، ومن ثم تفرض هيبة معينة تتفاعل جميعها فى تشكيل العنصر النفسى فى القيادات الدولية والخارجية، الأمر الذى لا بد وأن يقود إلى نوع من الاستسلام إزاء ما تحتله مصر من قدرة جماعية، قد يبدو هذا القول متضمنا نوعا من المبالغة، وقد يتصور البعض أنه تعبير عن تعصب معين، ولكن هذا غير صحيح. «جمال عبد الناصر» استطاع أن يرهب العالم لا بقدراته فقط ولكن بهيبة مصر، وليس أدل على ذلك من رهبة القيادات الدولية- أيضا - عقب حرب الأيام الستة، ورغم الهزيمة الساحقة، كذلك علينا ألا ننسى أن أغلب التطورات فى المنطقة لم تنبع إلا من القيادات المصرية، السادات كعبد الناصر اتفقا فى حقيقة واحدة: كلاهما فرض أحداث المنطقة بغض النظر عن إيجابياتها وسلبياتها، وكما كانت موجة المد مردها قدرة «عبد الناصر» فإن موجة الانحسار مردها سياسة الرئيس «السادات».

ثانيا: مصر هى المفتاح الحقيقى للمنطقة الممتدة من «إيران» حتى «موريتانيا»، والتى أضحت المحور الحقيقى للتوازنات بين القوتين الأعظم، إن المتحكم فى هذه المنطقة يستطيع أن يضمن ٥٠٪ من النصر النهائى لو قدر له أن يصطدم بالطرف الآخر، لم تفهم ذلك واشنطن عام ١٩٥٦، ولم تفهمه «موسكو» عام ١٩٧٣ ولكن كليهما أضحى اليوم ومنذ بداية الثمانينيات على علم بهذه الحقيقة، إن مصر هى الطريق الوحيد للتحكم فى هذه المنقطة.

ثالثا: موضع إستراتيجى: «مصر» هى نقطة الالتقاء بين القارات الثلاث القديمة، ومن ثم فهى المفتاح الحقيقى للبحر المتوسط، وهى الأداة المتحكمة فى البحر الأحمر، وهى الطريق الطبيعى والقادر على أن يصل ليس فقط إلى قلب إفريقيا بل وحتى إلى

جنوبها . فوصول الاتحاد السوفيتى إلى قلب القارة الإفريقية فى لحظة معينة إنما كان بفضل التعاون مع النفوذ والفاعلية المصرية .

رابعا : المجتمع المصرى يعيش مرحلة فيضان بشرى وحضارى فى آن واحد، لقد اقترب من خمسين مليونا (وقت كتابة المقالة فى أواخر الثمانينيات) وسوف يصل إلى الثمانين فى خلال أقل من عشرين عاما، أكثر من ٥٠٪ من أبنائه سنهم أقل من العشرين، تعود البراعة المهنية والقدرة التكنولوچية خالق للحضارات، ومصدر للإبداع منذ العصر الفرعونى. . ورغم أنه اليوم يبحث بإلحاح عن قيادات جديدة أكثر وعيا وأكثر قدرة على التعبير عن قدراته الكامنة، فإنه هو وحده القادر على أن يخلق فى المنطقة الكثير من التفجرات التى لا يمكن توقعها، خبراء «البنتاجون» يعلمون جيدا بأن أى انفجار فى «القاهرة أو الإسكندرية» لا يمكن لأى قوة عسكرية أن توقفه، وفى الغد القريب يجب أن ينسحب هذا الحكم على «طنطا» وأسيوط، وأسوان» .

إن «مصر» هى مفتاح منطقة الشرق الأوسط، وهى المدخل الحقيقى للتحكم فى الوطن العربى، فهّم ذلك أكثر من قائد دولى حصيف. بل وأعلن عنه بصراحة ووضوح ولكن حتى اليوم لم تفهم ذلك معظم القيادات العربية، والقيادات المصرية الحالية غير واعية بهذه الحقيقة، فعقب حرب عام ١٩٥٦ دعا الرئيس الأمريكى «أيزنهاور» أحد خبرائه لدراسة الوظيفة الدولية لمصر فصدر تقريره بهذا الكلمات : «القوى العظمى فرض عليها أن تجذبها ضفاف النيل، أولئك الذين عرفوا كيف يتربعون فى هذه المنطقة ارتفعوا إلى القمة العالمية، وأولئك الذين فشلوا كان قدرهم فى النهاية هو الفناء»، «خاتمة نابليون» سجلت على ضفاف وادى النيل قبل أن تكتمل فى «ووترلو». و «هتلر» فقد معركته الحقيقية فى العلمين وليس فى «ستالينجراد» .

فهل نستطيع أن نتصدى لهذا الموضوع بشىء من الصراحة والاعتدال؟ وقد وضعنا فى اعتبارنا فقط المصالح القومية الدائمة التى لا تعرف حاكما ولا تتقيد بنسبية زمنية معينة؟

إن التعرض لهذا الموضوع يفرض التصدى لأربعة استفهامات :

أولا : ما هى التزامات «مصر» فى تعاملها مع الدول العربية؟

ثانيا : وما هى واجبات القيادة المصرية فى تحركها الدولى؟ حتى وهى تتحرك باسم مصر دون أى تفويض رسمى من القيادات العربية؟

ثالثا : وما هى التزامات الشعوب والقيادات العربية فى كل ما له صلة بمساندة شعب مصر؟ ليس فقط فى لحظة النجاح، بل وكذلك فى حالة الفشل

رابعا : ويقدم لكل ذلك : ما هى وظيفة «مصر» الدولية والإقليمية؟

ترى هل آن لنا أن نبدأ لغة العلم بمنطقه الصارم الذى لا يلين؟

* * *

(١٦)

أين العروبة المصرية من مصر العربية؟؟

«نعم سوف أظل عربيّا» .

ورغم أن هذه العبارة راحت تتكرر على لسانى منذ أكثر من سبعة أعوام . وقد جعلت منها عنوانا لعقيدتى ورمزا لفلسفتى وتلخيصا لقناعتى لكل ما له صلة بتطورات مستقبلية أو تعاملات فكرية تنبع أو تدور حول هذه المنطقة التى هى وعاء الوطن العربى، إلا أننى لا أزال أرددها فى يقظتى ومنامى بنفس القوة والعنف التى قد أطلق بها صيحة الأمل مرة .

الأيام تزيد من ثقتى فى الذات العربية، والأحداث تدعم من الولاء، وتجعل من كل ما يرتبط بالقناعة دينا وعقيدة .

رغم ذلك فلنترك العاطفة ولندع الانفعالات . تعالوا معى نتحدث مرة أخرى بلغة العلم الصماء . فلنهرع إلى منطق الوجود الإنسانى، بوضعيته المطلقة نستنبط منه دلالة الأحداث ونستقرئ من خبراته حقيقة التطور الذى تعيشه منطقتنا العربية .

منذ عشرة أعوام، وعلى وجه التحديد منذ بداية الحرب الأهلية فى «لبنان» والأحداث تتوالى أمام أعيننا بسرعة مذهلة، ولكنها جميعا تنبع من هدف واحد، وتسعى نحو غاية واحدة: تكريس التفرقة وإبعاد «مصر» عن الصف العربى، تضافرت الجهود واتحدت الأهداف، ورغم أن كل محلل على قسط من العلم بخفايا السياسة الدولية، كان يجب أن يتنبأ بذلك ومنذ اتفاقية فك الاشتباك الثانى، إلا أننا لا نزال حتى هذه اللحظة ومنا الكثيرون الذين لا يزالون يأبون إلا أن يضعوا رءوسهم فى الرمال، فى مؤلفنا عن «الحرب النفسية فى المنطقة العربية» الذى كتب من قرابة خمسة

عشر عاما أعلناها بصراحة ووضوح، وذهبنا نبحث عن مستمع، أو نتلمس استجابة ولكن دون جدوى، فماذا يتعين علينا ونحن نرى اليوم جرائم القتل ترتكب أمام أعيننا مع سبق الإصرار فى أرض لبنان الحبيبة، بل ويساهم فى ارتكابها زعماء وقادة محسوبون على القومية العربية؟

■ (أ) القومية العربية والعروبة السياسية لا تزال تبحث عن اكتمال أيديولوچيتها المتكاملة ونظريتها السياسية التى تسمح ببناء إطار واضح لحركتها فى النطاقين الإقليمى والدولى. ولنحدد منذ البداية مجموعة العناصر التى تعكس حالة التخلخل بل والتهلهل الذى يعيشه الواقع العربى والذى يتعين عليه أن يتخطاه لو أراد له أن يصارع خصومه من منطلق الإدراك الواعى فى الأعوام القادمة.

أولاً: أول ما نلاحظه أن المنطقة تعيش عملية تسميم خطيرة متعددة الأبعاد. لو تركنا جانبا السلوك الدولى فى المنطقة العربية واقتصرنا على تحليل عناصر المدركات السياسية، ودلالة تلك المدركات كمؤشر حول طبيعة التصور، لكان علينا أن نقف إزاء ثلاثة مفاهيم أطلقت وأكد عليها خلال هذه الفترة التى حددناها بالعشرة أعوام الماضية والتى لا نزال نعيش أحداثها. لو تتبعنا المنطق العام للإدراك السياسى، وبصفة خاصة من حيث علاقته بموضوع تأملاتنا، لاحظنا أن البداية كانت مع موضوع عروبة «مصر» ثم أعقب ذلك مفهوم الأقليات والفتنة الطائفية، وبين الأول والثانى برز متلصصا فى أول الأمر خافتا ليتأكد عقب ذلك، ولتتبناه قيادات عربية مسئولة باسم جامعة الدول الإسلامية، علينا أن نسرع منذ البداية لنلاحظ كيف أن هذه المفاهيم ليست خاطئة فى ذاتها، ولكن استخدامها فى غير موضعها هو أحد أساليب الدعاية الحديثة وهو الذى يعنينا والذى يجب علينا أن نفضحه بقوة ودون أى مهادنة.

ثانيا: يساعد على تعميق التسميم السياسى للمنطقة وللإدراك القيادى بالوطن العربى عدم قدرة الفكر السياسى العربى على أدائه لوظيفته، لقد اقتصر على نقل المفاهيم الغربية التى عرفتها المجتمعات الأوروبية، خلال القرن الثامن عشر ووجد فيها ضالته، ومن ثم ترتب على ذلك ترسيب مفاهيم فى ذاتها قد تكون صحيحة فى تعبيرها عن الواقع الاجتماعى والسياسى الأوروبى، ولكنها تصير خاطئة عندما تطبق على الواقع العربى، سبق أن رأينا بهذا الخصوص ثلاثة مفاهيم، كان لها أكبر الأثر فى تشويه

إدراكنا السياسى: مفهوم الدولة العلمانية، ومفهوم الأقليات القومية، ثم النظرة العنصرية للمفهوم القومى.

ثالثا: نقل الفكر السياسى العربى، مفاهيم خاطئة من حيث صلاحيتها للواقع العربى، كذلك هو لم يلمس خصائص الحركة العربية فى إطارها الواقعى خلال الربع الثالث من القرن العشرين، وبصفة خاصة لم يدرك طبيعتها المتميزة سواء من حيث أصولها التاريخية أو من حيث واقعها السياسى، ومن ثم فهو فى معظمه لم يلمس طبيعتها كمشروع تنموى من جانب، وبعدها الدولى من جانب آخر، وهو كذلك لم يستطع أن يرتفع لتأصيل مفهومها للأمن القومى من جانب ثالث.

رابعا: على أن أخطر ما يمكن أن يُعاب على الفكر السياسى العربى التقليدى أنه لم يطرق من أوسع أبوابه المشكلة الأساسية التى يجب أن يدور حولها البناء الفكرى والتنظيمى لأى أيديولوچية سياسية، وهى أدوات الانتقال من ذلك الواقع الذى نحكم عليه بالرفض والتعفن وعدم الملاءمة، إلى ذلك النموذج المثالى الذى نسعى إلى تحقيقه ونقله من حيز التصور إلى حيز الممارسة الفعلية. إن أى أيديولوچية يجب أن تجيب بوضوح وبدقة على سؤالين: ما هى خصائص ذلك النموذج الذى يجب أن تسعى إلى تحقيقه الحركة؟ ثم ما هى الأدوات العملية، وقد أدخل فى الاعتبار نسبية المكان والزمان، التى لا بد وأن تسمح بتحقيق ذلك النموذج ليصير واقعا حيا؟ فلسفة القومية العربية لم تستطع أن تقدم إجابة على هذين السؤالين حتى اليوم، سوى بعض الشعارات دون أن تطرق التساؤلات بصراحة ووضوح.

موضع «مصر» من العروبة ومن القومية العربية، يبرز على جميع هذه المستويات ليمثل أحد الخيوط الثابتة التى تربط جميع عناصر النقص فى الإدراك السياسى وفى التعامل مع المشاكل المختلفة التى كان لا بد وأن يثيرها التطور الوحدوى فى الأعوام العشرة الماضية.

■ **(ب)** أين مصر من العروبة؟ وما علاقة مصر بالعروبة؟

هذا هو السؤال الذى يجب أن نبدأ من منطلقاته، لنحدد وظيفة مصر فى تحقيق الدولة القومية بوصفها الدولة القائد وما يعنيه ذلك من حقوق وما يفرضه من التزامات.

فلنحدد كنقطة بداية الإطار الفكرى لهذا المفهوم : «عروبة مصر» ولندع ـ أيضا ـ بهذا الخصوص لغة الزعماء، لقد عودنا معظم هؤلاء أن يعيشوا فى أوهام، وأن ينطلقوا من أحلام اليقظة، وأن يسلكوا فى تصرفاتهم منطق الذين لا خبرة لهم ولا دراية، والنماذج حولنا كثيرة، أليس أحد صور ومظاهر هذا المنطق ما يكرره البعض اليوم باسم " الأرض مقابل السلام؟ كيف يمكن أن يكون هناك سلام دون أرض؟ متى حدث ذلك فى التاريخ؟ ولتتصور معى أنك تعرض على رجل عادى أن يغادر منزله وتقوله له : «الطمأنينة دون منزلك»!! نعم سوف تكون مطمئنا وأنت تبيت وتعيش فى الطريق العام، هكذا يتصور هؤلاء الزعماء قضايا القومية والمصير القومى! لنتحدث لغة الواقع والتاريخ، ولنترك هؤلاء الزعماء حتى تذيبهم الأحداث، ولنبدأ فنطرح مجموعة من التساؤلات :

لماذا أنشئت إسرائيل؟ ألم تكن لمنع «مصر» من أداء وظيفتها العربية؟ ألم تكن لمنع يد القاهرة من أن تصافح اليد الممدودة من «دمشق» لتساند القلب النابض فى «مكة» وقد أحاطت كلٌ بسياجها التاريخى بغداد؟ إنها عواصم الجسد الخلاق التى كان يجب أن تساند العاصمة الكبرى وقد تمزقت وتبعثرت كل فى طريق، وهل لو كانت مصر قد أدركت بوعى حقيقى وظيفتها العربية خلال الأعوام العشرين السابقة على الحرب العالمية الثانية هل كانت قد أنشئت «إسرائيل» أو قدر لها الوجود؟ إن إحدى مسئوليات الفكر السياسى المصرى والقيادات المصرية التى نبتت فى تلك الأرض خلال النصف الأول من القرن العشرين هى أنها لم تفهم وظيفة «مصر» القيادية والحضارية، فجاءت الصفعة التى سمحت بإنشاء الدولة اليهودية، والفكر المصرى فى المرحلة المشار إليها لم يفهم وظيفة مصر التاريخية لأنه تشبث بالفكر القومى الأوروبى التقليدى الذى يعود إلى القرن الثامن عشر والذى لم يكن له موضع فى أرضنا العربية.

ولنطرحها منذ البداية : العرب بدون «مصر» ليسوا العرب ، «ومصر» بدون العرب ليست «مصر». التعريب هو نصف قومية العرب، والتمصير هو نصفها الآخر.

هذه الكلمات التى أطلقها كاتب لبنانى ليست إلا تلخيصا واضحا لحقيقة العلاقة بين «مصر» والعروبة، وعلى كل حاكم أن يفهم معناها ودلالتها، والغريب أن القيادات الأمريكية التى نحج إليها بمناسبة ودون مناسبة قد فهمت ذلك جيدا،

ووضعت مخططها للتعامل مع المنطقة على أساسه منذ ما لا يقل عن ثلاثين عاما، وعلى وجه التحديد منذ حرب عام ١٩٥٦ وما أعقبها من دروس تعلمتها القيادة الأمريكية عقب أن دفعت ثمنا غاليا.

كيف ولماذا؟

مهلا يا بنى . . .

لا تتعجل فسوف تسمع، وسوف أدعوك للتأمل، وسوف أقدم لك سجل الأحداث، وسوف أطرح الوقائع وأدعها تتحدث، وعليك أنت أن ترتب وتستخلص النتائج.

■ **(جـ)** عقب حرب السويس فى عام ١٩٥٦ دعا الرئيس أيزنهاور أحد خبرائه فى سرية تامة ليدرس له وظيفة مصر الدولية، فقدم له تقريرا نشر فى العام التالى، وتستطيع أن تبحث عنه عبثا فى أى مكتبة عربية فلن تجد له موضعا، هذا التقرير الذى وصفه المؤرخ الأمريكى «لينجل Lengyel» الأستاذ فى ذلك الوقت بجامعة «نيويورك» بعنوان «الدور المصرى فى الشئون الدولية» نستطيع تلخيصه فى عدة أسطر. إن مستقبل الأوضاع المرتبطة بالصراع الدولى تتوقف على مصر وبصفة خاصة فى الأبعاد التالية:

أولا: لن تستطيع الأمة العربية أن تحقق وحدتها الاندماجية وتتحول إلى دولة واحدة تمتد من الخليج العربى إلى المحيط الأطلسى إلا من خلال التسليم لمصر بالقيادة الحركية والحضارة. إن الذى سوف يحقق تلك الوحدة لو قدر لها أن تتحقق لن يكون البترول العربى ولا الأرصدة المتراكمة فى خزائن الدول الصحراوية ولكن هذه الوحدة سوف تتم لو قدر لمسالك الهجرة المصرية ولأدوات الإعلام والتعليم المصرى أن تخلق الترابط وتدعم التجانس.

ثانيا: كذلك، فإن العالم الغربى يعلم أنه لن يستطيع أن يظل متحكما فى المنطقة العربية من خلال ربيبته «إسرائيل» إلا إذا حيد «مصر» فى التعامل مع الدولة العبرية. لن يقضى على «إسرائيل» أو يعيدها إلى حجمها الطبيعى ويجعلها مجتمعا للجيتو فى منطقة الشرق الأوسط إلا الفيضان الحضارى المصرى. قد توصف فلسطين بأنها ليست مشكلة الشرق الأوسط، وقد تتحدث القيادات السورية عن القدرة العسكرية التى

تملكها، بل وقد يقول البعض: إن «مصر» لم تكن عاصمة للإمبراطورية العربية، ومن ثم لم تشعر بما يعنيه ذلك من مسئولية، ولكن فلنترك جانبا جميع ذلك ولنتذكر فقط أن الجيش المصرى والقدرة القتالية المصرية هى القادرة على أن تتصدى للجيش الإسرائيلى، حيث الكيف يواجهه الكم، وحيث الصلابة والخبرة والتقاليد تصير عناصر ثابتة فى التعامل العسكرى. إن «ابن غوريون» عندما كتب فى وصيته لأبنائه وأتباعه الذين يحكمون إسرائيل:

«احذروا من «مصر» عندما تصير ذات الثمانين مليونًا» لم يكن إلا تعبيراً عن وعى رجل الدولة بنظرة ثاقبة وهو يسطر آخر كلماته.

ثالثا: كذلك فإن العالم الأوروبى يعلم جيدا أنه لن يستطيع أن يظل فى ممارسة عملياته المختلفة من سلب ثروات العالم الإفريقى إلا إذا حيد العلاقة بين «مصر» والمجتمع الأسود، فلنترك أيضا بهذا الخصوص جانبا الحديث المتكرر عن أهداف الرئيس «القذافى» ومخططات الجزائر، فهى قشور لا تستحق أى اهتمام.

إن فهم مختلف هذه الحقائق وكيف سقطت الإرادات العربية من جانب، والدبلوماسية المصرية من جانب آخر، فى الخطة التى أعدت بإحكام فإذا بمجموعة الأخطار التى تحيط بنا والتى تعكس مدى عدم القدرة على فهم حقيقة الإطار الدولى، وتعاملاته الخفية مع التطورات السياسية المحتلة للوطن العربى، هو أحد الأهداف الأساسية التى يجب أن نسعى لإبرازها ونحن نكتشف جوهر القومية العربية، وبصفة خاصة فى أبعادها الدولية، وما يعنيه ذلك من بناء خطة حركية تتفق مع حقيقة الإطار الدولى الذى يجب أن تكتمل من خلال التعامل معه.

■ (د) لماذا يُثار منذ عدة أعوام ما يسمى بعروبة «مصر»؟ وكيف نسمح بالتشكيك فى حقيقة العلاقة بنى منطقة وادى النيل والوطن العربى؟ ومتى أثيرت مشكلة عروبة «مصر» كمشكلة فكرية؟ من العودة إلى المصادر لا نجد أى نص يثير أو يشكك فى أن «مصر» جزء من المجتمع العربى الإسلامى، حتى نهاية القرن التاسع عشر أو على الأقل حتى فشل الثورة العرابية، فكيف حدث عقب ذلك أن سمعنا الحديث عن مصر الفرعونية ومصر المستقلة عن العروبة؟

عندما سئل «إبراهيم باشا» من جانب القنصل البريطانى: أين ستقف فى فتوحاتك؟ أجاب القائد المصرى: حيث أجد من ينطق العربية، سوف أظل أسير بجيشى، وعندما قيل له: ألست تركيًا؟ أجاب الوالى: «لقد أتيت إلى مصر طفلا وأحرقتنى «مصر» بشمسها فأضحيت عربيًا.

وفى خطاب من «نابوليون» إلى صديقه الجنرال «جورجود» أثناء وجوده فى جزيرة «سانت هيلانه» يقول: ما فتئت الدولة العثمانية منذ اضمحلت أحوالها توجه الحملات ضد المماليك التى كانت تنتهى دائما بالفشل والهزيمة، والذى يقرأ بالتفات تام تاريخ الحوادث التى توالت على «مصر» فى المائة عام الأخيرة، يوقن أنه لو عهدت إلى وال من البلاد لاستقلت الأمة العربية التى تتألف من أمة تخالف غيرها من الأمم مخالفة كلية بعقليتها وأوهامها ولغتها وتاريخها، وشملت مصر وبلاد العرب ـ أى المشرق العربى ـ وشطرا فى إفريقيا.

كيف حدث أن أثارت عروبة «مصر» التساؤلات، وطُرح ما سمى بمصر الفرعونية، خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر؟ وكيف ظل هذا الطرح مسيطرا على الفكر المصرى، حتى جاء «جمال عبد الناصر» فحطم هذه الأسطورة ليخلق المد القومى، الذى سرعان ما عاد ليصيبه مرة أخرى انحسار مماثل بدا فى أول الأمر خافتًا مترددًا مع هزيمة حرب الأيام الستة، ليصير سياسة كاملة مع اتفاقية «كامپ ديڤيد» وما ارتبط بها، وأعد لها، وأعقبها من مواقف وتطورات، لا نزال نعيش فى أمواجها؟

أسئلة عديدة يجب أن نطرحها بصراحة ووضوح . . .

والحديث ذو شجون.

* * *

(١٧)

أين مصر الفرعونية من العروبة المصرية؟؟

«نعم سوف أظل عربيًا .

إن إيمانى بالعروبة وقد اختلطت وتفاعلت مع القيم الإسلامية كمنطلق لفهم معنى القومية العربية ، هو وحده الذى سوف يظل الدستور الفكرى الذى ينبع منه جميع أنواع الرحيق الفكرى ، الذى جعلنى أنظر إلى المستقبل بهدوء وثقة .

الإسلام يا بنى ليس لغة المحبة . إنه أكثر من ذلك ، إنه لغة أساسها أن يخاطب كلا على قدر عقله ، وأن نتعامل مع كل باللغة التى يفهمها ويعيها ، وتسمح له بأن يعرف معنى النبل والمثالية ، إن لغة قيمنا وتقاليدنا هى لغة التضحية والوظيفة العالمية ، ولكن بلغة الواقع والتجاوب مع حقيقة الطبيعة البشرية . ألم يوصف ديننا بأنه دين الفطرة؟ إنها معادلة ترتفع عن لغة الضعف والخنوع ، وتأبى إلا مواجهة الأشياء بأسمائها الحقيقية ، هل تفهم يا بنى معنى دعوة الرسول ﷺ إلى الهجرة وحمل السلاح؟ هناك مواقف تأبى إلا القوة وترفض المهادنة ، ولكن من يستمع ومن يعى ، دلالة هذا التاريخ الذى هو صفحة وجودنا ، وقصة المعاناة التى عاشها آباؤنا ومنها انطلق ذلك المارد الذى التقت فيه الشهامة العربية بالقيم الإسلامية؟

لا بد وأنك يا بنى تتساءل : ترى ماذا يريد هذا الكاتب؟ وهو يدور بنا فى حلقات متتابعة تارة لنعيش فى الماضى بعظمته وقوته ، وأخرى لنعيش فى الحاضر بما يحمله من عناصر للتمزق والفرقة ، ثم إذا بنا نحلق فى سماء المستقبل لننطلق فى متاهات أقرب إلى التنجيم منها إلى استقراء الواقع؟

تساؤل مشروع، ولكن دعنى أذكرك بأن الماضى هو قراءة للحاضر، والحاضر ليس إلا تلمسًا لعناصر التطور الذى سوف يحمله المستقبل، أما عن المستقبل فهو الحركة المعاصرة بكل قوتها وإيمانها تتجه إلى الإمام وقد استمدت قوتها من مأساة الحاضر وخبرة الماضى.

وهكذا تنصهر جميع هذه الأبعاد فى بوتقة واحدة حيث يجتمع التساؤلان: لماذا وكيف؟ لماذا الفشل وكيف نتخطى ذلك الفشل لتحقيق النجاح؟

■ **(أ)** التساؤلات التى طرحناها عديدة، وقد أجبنا على البعض منها بدقة وبوضوح، ولكن البعض الآخر لم نتوقف إزاءه بالتحليل الكافى، أحد هذه التساؤلات يدور حول هذا الاستفهام: ما هى الأدوات التى يجب أن تستند إليها الحركة القومية فى تعاملها مع الواقع بقصد تحقيق تلك المثالية التى تسعى إليها؟

مما لا شك فيه أن نقطة البداية هى أن كل موقف يملك خصائص، وأن هذه الخصائص هى وحدها التى تسمح ببناء خطة الحركة أى خطة التعامل مع الموقف، وأحد عناصر هذه الخطة هى أدوات التعامل، على أن هذه الحقيقة لا تمنع من ضرورة الانطلاق من تصور عام لأدوات هذا التعامل، استنادا إلى طبيعة الواقع العربى والحركة القومية.

هناك فى قناعتنا أربع أدوات أساسية يجب أن تكون على وعى بوضع كل منها فى إطار الحركة القومية بصدد الواقع العربى:

أولا: الدولة القائد.

ثانيا: الأحزاب السياسية المؤمنة بالحركة الوحدوية.

ثالثا: الطليعة الثورية فى كل مجتمع عربى تؤمن بهذه الحركة.

رابعا: الطبقة المثقفة.

أول هذه العناصر هو تلك الدولة التى يجب أن تتمركز حولها جميع القوى فى أدائها ومساندتها لدورها القيادى، ولتحمل نتائج ذلك الدور بكل ما تعنيه هذه الكلمة من مخاطر والتزامات ومسئوليات، والحركة الوحدوية تتميز بخصائص ثلاث:

١ ـ هى حركة سياسية .

٢ ـ وهى حركة سياسية جماعية .

٣ ـ وهى حركة سياسية جماعية فوق شعوبية .

ومن ثم، فلا بد أن تملك قيادة تعبر عن هذه الخصائص، لا يكفى القائد الفذ أو الموهوب ولا تكفى الجماعة المؤمنة بالحركة الوحدوية، وإنما يجب أن توجد تلك الدولة التى تملك من القدرات التكنولوچية والاقتصادية والبشرية ما يسمح لها بأن تقود العمل الوحدوى، وأن تملك أيضا ذلك الموقع الذى يسمح لها بأن تمد يدها لكل أجزاء الوطن العربى بالمساعدة وقت الضرورة، وأن تمتد إليها تلك الأجزاء أيضا بالمساندة والمشاركة عندما تدق ساعة الحاجة، ويجب أن يحاط كل ذلك بإطار من الهيبة التى يفرضها التاريخ ويبرزها التراث القومى والخبرة الماضية .

فمن يستطيع أن يملك جميع هذه العناصر فى الوطن العربى؟ ألا يقودنا هذا إلى وظيفة «مصر» كدولة قائد للعمل الوحدوى؟ ونسرع منذ البداية لنحدد موقفنا بصراحة ووضوح، فمن الوجهة التنظيرية نرفض أن نصف ذلك الواقع بما يسميه بعض المفكرين بكلمة «الدولة القاعدة» فهذا اصطلاح غير موفق، لأن أى دولة قادرة واجب عليها أن تصير قاعدة لانطلاق العمل الوحدوى، ولكن الذى نريد أن نؤكد عليه هو تلك الأداة التى يجب أن تقود العمل الجماعى الكلى، بما يعنيه ذلك من حقوق والتزامات، إن كل دولة فى الكيان العربى هى دولة قاعدة للعمل الوحدوى، أو هى صالحة لأن تكون كذلك. دولة كسورية أو ليبيا قادرة على أن تكون دولة قاعدة، ينطلق منها مفهوم العمل الوحدوى بجميع معانيه، ولكن الدولة القائد لا يمكن أن تكون سوى واحدة، دولة واحدة تعقد لها الزعامة، وسورية بضعفها الاقتصادى والتكنولوچى والمهنى، و«ليبيا» برخاوتها البشرية لا تصلح. ولن تصلح لأن تؤدى وظيفة الدولة القائد، لو اتحدت «سورية مع العراق» فمن الممكن طرح هذا التساؤل، ولكن فى الواقع المعاصر ليس هناك سوى «مصر التى خلقت لتؤدى هذه الوظيفة».

كذلك فإننا عندما ننطلق فى تأكيد وظيفة «مصر» كدولة قائد للعمل الوحدوى، فإن ذلك لا ينبع من انتمائنا الشعوبى لأرض الفراعنة، ولكن من ولائنا الوحدوى لأرض العروبة بأقصى مبالغاته وأكثر تطرفا، حيث لا موضع لمفهوم الانتماء الشعوبى أو

الولاء الطائفى، الإيمان القومى والقناعة بالمصير الوحدوى هى وحدها التى تحدد مصادر إدراكنا بهذه الوظيفة.

■ **(ب)** ولكن أين ذلك من الحديث المستمر عن الطبيعة الفرعونية للشخصية المصرية؟

فلنبدأ نتحدث لغة التاريخ، ومعنى ما يقدمه من دروس، والتاريخ خير معلم للإجابة على مثل هذه الاستفهامات. أول درس نستطيع أن نستشفه ونكتشف معالمه الخفية هو أن التشكيك فى عروبة «مصر» لم يبرز تاريخيا - وبصفة خاصة فى التاريخ الحديث - إلا فى أعقاب الهزائم، وكما لو كان لتبرير قوقعة «مصر» على نفسها، القرنان التاسع عشر والعشرون حافلان بأكثر من نموذج واحد، أول نموذج واضح فى دلالته المباشرة يرتبط بالثورة العرابية، فطيلة القرن التاسع عشر لم يشكك أحد فى أن «مصر» جزء من المجتمع العربى، ومن تلك الأمة العربية، والكتابات عديدة بذلك الخصوص، والوثائق التى كشف عنها النقاب تؤكد أن قادة الثورة العرابية كان تفكيرهم أساسه أن تلك الثورة هى مقدمة لإنشاء الدولة العربية الموحدة، التى تضم أرض الشام والسودان والحجاز إلى جوار مصر، بل وتتصور أن ذلك التكوين السياسى الجديد سوف يأخذ صورة الدولة الفيدرالية الذى يعيد للذاكرة النموذج السويسرى.

وتؤكد لنا كتب التاريخ أن «محمود سامى البارودى» فى أحاديثه الخاصة كان يردد أن «فكرة إعلان الجمهورية فى« مصر» كانت تتضمن انضمام سورية إليها ثم الحجاز» والذى يعنينا أن ندخله فى الاعتبار هو أن المفهوم الأساسى للحركة السياسية كان ينبع من فكرة الوحدة السياسية، وليس من مفهوم الاستقلال المصرى، وأن قيادة الثورة العرابية وهى تؤمن بذلك قررت أن تخفى أهدافها الحقيقية حتى لا تصطدم بالقوى الدولية العظمى، وهى تعلم موضع تلك القوى من حركة الوحدة العربية كما صاغه، وحاول قبل ذلك أن يطبقه، سواء على بك الكبير أو «محمد على» بمساعدة ابنه «إبراهيم باشا». رغم ذلك، فإن ذلك التصور القيادى المصرى تسرب إلى الأوساط البريطانية فى القاهرة ودمشق والقدس، وقامت السلطات المسئولة بإبلاغه إلى لندن، والوثائق المؤكدة لذلك موجودة حتى الآن تحت تصرف الباحثين، فى أعقاب الهزيمة بدأ يبرز فى الإدراك المصرى منطق جديد، وهو منطق دافع عنه فى مرحلة أولى

«عبد الله النديم»، ثم تغلغل تدريجيا فى الفكر السياسى المصرى، ليسيطر على تقاليد السياسة المصرية، خلال النصف الأول من القرن العشرين. وقد استطاع أن يجد فى أسماء عديدة لها وزنها أبواقا تؤكد هذا الفكر، سواء فى قناعة ذاتية أو فهم خاطئ أو مسايرة لأهداف المحتل البريطانى، حتى جاء «عبد الناصر» ووضع حدا لهذا الإدراك.

«عبد الله النديم» هو أول من طرح هذا الموضوع، ولكن علينا أن نعترف بأن ما طرحه «عبد الله النديم» لم يكن مداره هل مصر عربية أم فرعونية؟ ولكن محور تساؤلاته هو هل العظمة العربية والتراث العربى قد اندثرا إلى غير رجعة أم لا؟ بما يعنيه ذلك أن على «مصر» إن أرادت أن تعيد بناء نفسها أن ذلك لن يتم إلا من منطلق قدراتها الذاتية فقط، الإجابة التى قدمها المفكر المصرى استحدث مصادرها من المفاهيم الأوروبية. والنموذج الذى تبلورت حوله تلك المفاهيم استمد إطاره من الحضارة الرومانية، فكما اندثرت الحضارة الرومانية لتحل محلها دول قومية، فإن العالم العربى قد اندثر ولن يعود وعلينا أن نعيد بناءنا على هذا الأساس، المجتمع العربى قد دفن ولن يعود بما له وبما عليه.

هذا التصور ينبع من الفكر الغربى ومن خبرة الدولة القومية الأوروبية حيث هذه تقوم على أنقاض، وضد الدولة الأوروبية كما قدمتها تقاليد العصور الوسطى، فى إطار تصور الدولة العالمية الكاثوليكية، على أن هذا المفهوم ازداد تفحلا عقب ذلك، وإذا به أضحى قطيعة فى كل العلاقة بين «مصر» والعروبة، لقد اختفت القناعة بالانتماء العربى، ومظاهر التعبير عن هذا الاختفاء عديدة ومتفاوتة من حيث درجات الرفض، ومستويات المواجهة لمفهوم الانتماء العربى، وهو يصل فى أحد تطبيقاته إلى حد جعل العلاقة بين مصر والعروبة علاقة تناقض وتضاد، ويجعل أصحاب هذا الرأى يطالبون بقطع كل علاقة مع كل ما له صلة بالعرب، وقد وصل الأمر إلى أن جريدة المقطم عام ١٩٣٦ تبنت دعوة المصريين لعدم الاهتمام بالمشكلة الفلسطينية وجاء أكثر من مؤرخ واحد يذكرنا بأن الإسلام مسئول عن إهمال تاريخ مصر القديمة، ووصل هذا التطور حتى لدى كتاب معتدلين إلى آفاق بعيدة.

ففى كتاب «توفيق الحكيم» عن «عودة الروح» لا يتردد الأديب المصرى فى أن يعلن «. . . . الروح المصرية هى تلك التى تفهم الأهرام وليست تلك التى تتحدث عن

«خالد بن الوليد» أو «عمرو بن العاص» . . كان المصريون فى ثورتهم يستمدون شعورهم بعاطفة الاستقلال من مصر المستقلة، استنجدوا بالفراعنة لأن عاطفة الاستقلال لا تربطهم إلا بهؤلاء.

أما العاطفة التى تربطهم بالعرب فهى عاطفة أخرى، أما والأمر أمر العزة القومية والاستقلال فلا نجد غير مصر المستقلة القديمة، هى التى تلهمنا الروح وتمدنا بالذكريات القديمة القوية المضيئة التى تبعث فى النفس روح الحماس، وسوف يصل هذا الاتجاه إلى قمته مع «سلامة موسى» عندما يصرخ فى كتابه «اليوم والغد» قائلا: «ليس علينا للعرب أى ولاء . . يجب أن يعرفوا أننا أرقى من العرب . . . فلنولى وجوهنا شطر أوروبا» حتى «لطفى السيد» و «عبد العزيز فهمى» لم يتردد كل منهما من جانبه أن يهاجم اللغة العربية وأن يطالب باستخدام الحروف اللاتينية، ثم جاء «طه حسين» هو الآخر ليعلن أن مصر إنما تنتمى إلى ثقافة البحر الأبيض المتوسط ، وهو نفس المفهوم الذى سوف يردده عقب ذلك بثلاثين عاما «آبا إيبان» وزير خارجية العدو الصهيونى، وهو يحاول أن يحدد موضع «إسرائيل» من خريطة منطقة الشرق الأوسط.

نموذج آخر لنفس هذا الواقع سوف يبرز فى مصر، عقب حزيران يونيو عام ١٩٦٧ عندما يقدر لأنغام الفرعونية أن تصدح من جديد خافتة خلال فترة انكسار «عبد الناصر» ثم قوية صارخة خلال فترة حكم «السادات» لتنتهى بسياسة «كامب ديفيد» وخروج «مصر» من الصف العربى.

ومرة أخرى سوف نجد هذا الاتجاه وقد احتضنه أكثر من اسم واحد، كان لها تاريخها ومجدها السابق ولو فى معنى معين، فلنتذكر أسماء كـ «كتوفيق الحكيم و«حسين فوزى» و «نجيب محفوظ» دون الحديث عن «لويس عوض» و«أنيس منصور» وغيرهما.

ما هو منطق هذا الفكر المصرى الذى تواضعنا على تسميته الشخصية الفرعونية لوظيفة «مصر» التاريخية؟ مما لا شك فيه أن «مصر» دولة لها تاريخ قديم، وتملك تراثها الذاتى الذى سبق الإسلام.

والمجتمع المصرى يملك طبيعته المتميزة، ولنتذكر على سبيل المثال الخصائص السلوكية للمواطن الذى ينتمى إلى تلك المنطقة: الاعتدال، وعبادة السلطة، والمهارة المهنية والفنية، والإبداع الصناعى، كذلك فإن «مصر» بحكم موقعها وتاريخها تملك انتماءات ثلاثة: فهى دولة إفريقية حيث ينتمى إقليم وادى النيل إلى تلك القارة، وحيث تبعيتها لمياه النيل تجعل من «مصر» دولة مترابطة مع وسط إفريقيا، وهى دولة بحر متوسطية، ويكفى أن نتذكر أنها تقع على شواطئ البحر المتوسط، بل وفى لحظة معينة كانت عاصمتها - أى عاصمة مصر - هى عروس البحر المتوسط، أى مدينة الإسكندرية.

أليس تاريخ مصر فى العصور السابقة على الفتح العربى هو تاريخ التعامل بين شاطئ البحر المتوسط الجنوبى أى مصر والشاطئ الشمالى، أى أثينا والمدن اليونانية تارة وتارة أخرى روما؟ الانتماء العربى ليس إلا أحد أجزاء ذلك الإطار حيث يخلق التطور نموذجا تاريخيا مهما ارتفعت قيمته وأهميته، فهو لا يعدو أن يكون أحد النماذج والتطبيقات التى عرفتها الدولة المصرية فلا هو أهمها ولا هو المسيطر عليها.

والتنازع بين الانتماءات الثلاثة لا يمنع من أن من حق مصر أن تفضل أيا من هذه الانتماءات تبعا لمصالحها ولمصالح شعبها، والواقع أن تعدد الانتماءات لأى مجتمع سياسى ليس ظاهرة جديدة أو فريدة من نوعها فى تاريخ البشرية. فرنسا تذكرنا بنموذج مشابه حيث تتمزق بين انتماء أوروبى وانتماء أطلنطى، ثم انتماء بحر متوسطى. تفضيل أى من هذه الانتماءات بما يعنيه ذلك من ترجيح كفة سياسية معينة، وجعل الانتماءات الأخرى تنحدر إلى مستوى ثانوى من حيث الأهمية أن ينبع من متغيرات الموقف وخصائص المصلحة العليا فى لحظة معينة، بحيث تفرض التضحية ولو مؤقتا بعض هذه الانتماءات على حساب الأخرى.

هذا المنطق قد يبدو لأول وهلة يملك قدرا من الوجاهة، يعنينا أن نتناوله بالتحليل والتفسير؛ لأنه فى حقيقة الأمر أحد مظاهر التسميم السياسى الذى عاش ويعيشه الإدراك المصرى، وبصفة خاصة عقب حرب أكتوبر عام ١٩٧٣، أخطر ما يجب أن نلاحظه بذلك الخصوص أمران: الأول أن هذا الفكر تصدى له - العقاد - فى مرحلته الأولى - أى قبل مجىء عبد الناصر. واستطاع بمفرده أن يقف فى مواجهته يمنع موجاته

من أن تغرق المجتمع المصرى، ولكن عقب السادات لم يجد الفكر المصرى بعد ذلك العملاق القادر على أن يقف من هذا الفكر موقف الرفض الثابت بصلابة وقوة وإيمان العقاد وفاعليته. الأمر الثانى أن هذا الفكر قبل مجىء عبد الناصر لم يستطع أن يرتفع ليتحول إلى سياسة إقليمية محددة المقاطع مقننة الجزئيات، ولكن عقب الرئيس السادات استطاع أن يتبلور فى سياسة إقليمية واضحة من حيث مقدماتها ونتائجها: قادت المنطقة إلى العديد من المآسى التى لا نزال نعيش أحداثها.

لنستطيع أن نطرح وبتفصيل كاف مختلف العناصر التى يثيرها المنطق السابق، ولإثبات كيف أن به يتجافى مع مصالح الشعب المصرى ذاته، يتعين علينا أن نتناول بالتحليل أربعة منطلقات أساسية:

أولا: العلاقة الوظيفية بين الحقيقة الشعوبية والتكامل القومى.

ثانيا: طبيعة العلاقة بين التاريخ السابق على الدعوة الإسلامية والتطور اللاحق لتلك الدعوة.

ثالثا: مفهوم الوظيفة الحضارية الإقليمية لمصر، وعلاقته بالبناء التاريخى للعروبة المصرية.

رابعا: سياسة الانتشار الإقليمى وموضعه من المستقبل الحضارى للشعب المصرى.

ترى .... هل آن لنا أن نبنى نظريتنا المتكاملة فى فلسفة الوحدة العربية؟

* * *

(١٨)

العروبة السياسية واستقلالية منطقها

«نعم سوف أظل عربيًا».

وسوف أظل أدافع عن عروبتي أيضا بقوة منطق الأشياء، انظر يا بني من حولك سوف تسمع الصراخ والعويل، وسوف تسمع الجميع يتحدث عن التمزق العربي والتحلل العربي والفساد العربي، وهو صحيح، ولكن هل هذا هو الوجه الوحيد للحقيقة العربية؟ هل يستطيع أي محلل محايد أن ينسى أو يتجاهل النواحي الأخرى البراقة والساطعة التي سجلتها هذه المنطقة بفخر وشموخ خلال هذه الفترة التي نعيشها بكل ما فيها من تمزق وتهلهل؟

تعال معي يا بني نستذكر الأحداث:

أليست حرب الاستنزاف التي شنها «عبد الناصر» وهو محروق مهزوم وحيد لا نصير له حتى من رجاله الذين وقفوا حوله، وهو زعيم مهاب بكامل صحته، وتفرقوا عنه وهو مريض مدحور، ولكن شعبه الوفي لم يتركه، وأبى إلا أن يسانده بصلابة وقوة، هي قصة الإرادة المقاتلة المصرية تواجه أعداء الأمة العربية وحيدة إلا من ثقتها في قائد عروبتها الأصلية والحقيقية؟ مَنْ من القادة العرب قد مد يده إلى عبد الناصر، وهو يفرض على شعبه وعلى جنده تمرينات قاسية لم يعرفها جيش آخر في تاريخ الإنسانية؟ وهل ثار شباب جامعات مصر وقد انخرط في ذلك الجيش استعدادا ليوم الثأر، يعيش على أكل الثعابين ويتدرب زحفا على بطنه في المستنقعات لأيام وليال، بل ولأشهر كاملة؟ لم تكتب بعد قصة حرب الاستنزاف ولكن عندما تسجل فسوف يعلم العالم العربي أن قيادة مصر لهذه الأمة لم تكن إلا بالألم والمعاناة والتضحية عن كبرياء أصيل

وقدرات حقيقية. جيش له تاريخه الصلب وطبقة مثقفة عرفت كيف تحافظ على كبريائها فى صمت ودون ضجيج، إن قيادة مصر الحقيقية ليست ذلك الوجه القبيح الذى أحاط بالرئيس السادات فى لحظة معينة، والذى لا يزال يحيط بخليفته، ولكن هذه قصة أخرى سوف نعود لها فى موضع آخر.

وهل حرب أكتوبر فى حاجة إلى أن نعود لنذكر بوقائعها؟ ألم تقلب جميع موازين التعامل العسكرى فى تاريخ الإنسانية المعاصرة؟ ألم يستطع جيش من المشاة أن يحطم جيشا مصفحا من الدبابات؟ وألم يفرض على مخططى الإستراتيجية الأمريكية أن يستعيدوا جميع تعاليمهم عقب ما فعله أهل السويس العزل بالدبابات والمصفحات الإسرائيلية.

وعندما تراجع «أنور السادات» عن قناعة أو سذاجة وقفت القيادات المصرية الحقيقية قبضة واحدة فى وجهه، نقابة المحامين تجتمع فى «القاهرة» وتقسم على محاكمته بتهمة الخيانة العظمى، والمثقفون يساقون إلى السجون، ومن استطاع منهم أن ينقل نشاطه إلى خارج «مصر» لا يتردد فى أن يغامر بحياته متحديا طبقة المتنفعين الجديدة التى خلقها الاستعمار الجديد، من هو الشعب الذى استطاع فى العالم الثالث وبإمكانيات «مصر» استطاع أن يرفع راية التحدى؟ ومرة أخرى وقف شعب «مصر» وحيدا دون أى نصير من أى أرض عربية، فليجبنى أولئك المزايدون الذين تعودوا الأكل على كل مائدة!!

ثم هناك أيضا قصة المقاومة فى «لبنان» وهى تذل ليس فقط القيادة «الإسرائيلية» بل والإمبريالية الأمريكية، وتمرغ شرفها وكرامتها فى الأوحال، هل هى فى حاجة إلى تفصيل؟

وهذا الشعب السودانى يكمل هذا بأن يسطر صفحة أخرى براقة من القوة والشجاعة والتصميم لا تزال فى أول فصولها.

نعم يا بنى إننا لا نزال فى بداية التطور، وثق أن القادم أكثر قسوة وأشد رهبة. «جولدمان» الزعيم الصهيونى الأشهر، اعترف بذلك قبل مماته، وقال كلمته المشهورة التى توج بها كتابه: «إلى أين إسرائيل؟» «لقد استهانت القيادة الإسرائيلية بما تمثله القومية العربية من جذور تمتد فى تلك الأرض ذات التقاليد التاريخية».

علينا أن نعرف أين قوتنا الحقيقية، وهذا هو أحد الأهداف الأساسية التى يجب أن تسيطر على أى بناء متكامل للمفهوم القومى للعروبة السياسية فلنحدد منطلقاتنا الأساسية.

■ **(أ)** هناك بعض الملاحظات يجب أن نبدأ بها وتستوجبها هذه المعاناة المستمرة فى الأخذ والرد حول المصير المستقبلى للقومية العربية:

أولا: فأول ما يجب أن نذكر به ونكرره مرة أخرى، أن مأساة الفكر العربى القومى الحقيقية ليست فقط فى أن كل من هب ودب يتصدى له بسطحية وسذاجة، بل فى أن هذا الفكر القومى وخلال قرابة قرن من الزمان لم يستطع أن يقدم تصورا واضحا وشاملا لكيفية تحقيق الدولة القومية الموحدة، لم يعد الفكر القومى بل والأيديولوچية السياسية بصفة عامة مجرد فكر عاجى، وإنما أضحى أساسه العناق مع الحركة، بحيث يصير الفكر مقدمة للحركة ومحوره الأساسى بناء أساليب التعامل مع الواقع، ومن ثم يتم تطوير ذلك الواقع للوصول من خلال مسالك معينة إلى ذلك النموذج المثالى الذى نسعى إلى بنائه، وإذا كان البعض يريد أن يتعلم من خصومه فليذهب ليعيش مع الصهيونية فى مساراتها المختلفة منذ أول مؤتمراتها حتى اليوم، وخلال قرابة ثمانين عاما من التطور والتطويع المتتالى لأساليب التعامل، فهل فهم معنى ذلك أولئك الذين يتشدقون بمناسبة وبغير مناسبة بالحديث عن القومية العربية؟

ثانيا: كذلك فإن مضمون القومية لا يمكن أن يكون واحدا، إنه يتحدد ويتنوع تبعا لكل واقع، وكما أن مضمون القومية يختلف من تطبيق لآخر فكذلك المفكر القومى لا بد وأن تكون له أصالة فى التعبير عن ذلك الواقع، من الطبيعى أن الإطار العام قد يكون واحدا أو قد يتشابه، ولكن فى داخل ذلك الإطار العام المياه المتدفقة لا بد وأن يكون مذاقها مختلفا، ولو اقتصرنا على الفكر القومى فقد تعودنا أن نميز فى تطوره بصفة عامة بين مراحل ثلاث:

استقبال وهضم ثم إبداع. المرحلة الأولى تعنى تقبل المفاهيم الأخرى المستوردة.

المرحلة الثانية تفرض هضم تلك المفاهيم وسحقها فى داخل الذات المستقبلة ثم تأتى المرحلة الثالثة حيث ننتقل إلى الإبداع والابتكار، لو تابعنا الفكر العربى لوجدنا أنه

حتى هذه اللحظة لا يزال عند الكثيرين من المتعاملين معه يعيش المرحلة الأولى أى أن يستقبل ويجتر دون حتى القدرة على هضم ما يستقبله.

لو قدر لنا شيء من الإبداع لكان علينا أن نفهم أن القومية العربية تملك مذاقها الخاص، وأحد عناصر ذلك التميز، وقد طرحناه من قبل هو: إنها قومية مركبة. إنها من حيث طبيعة تكوينها الاجتماعية تتكون من طبقات متتابعة من الولاء، وعلى الفكر القومى أن يفسر هذه الحقائق، وأن يبنى بخصوصها إدراكه ويقنن قواعد التعامل مع ذلك الواقع، بحيث يقدم لنا أساليب تحقيق الدولة القومية الكبرى من منطلق ذلك الواقع ورغم ذلك الواقع.

ثالثا: كذلك فقد أثرنا فى مفهومنا عن أدوات التعامل «نظرية الدولة القائد» وهى «مصر» ورغم أننا لا نزال فى بداية الطريق، إلا أننا نود أن نذكر بأن هذه ليست هى الأداة الوحيدة بل يجب أن تأتى إلى جوارها أدوات أخرى قد تنبع منها وقد تستقل عنها، ولكنها دائما تتفاعل معها فى إطار واحد متكامل، لا بد وأن يتصف بالتناسق مع حركة الدولة القائد الإقليمية والجماعية.

■ **(ب)** ناحية أخرى يجب على كل من يتصدى لبلورة الفكر القومى العربى أن يدخلها فى اعتباره، وأن يجعل منها منطلقه فى تحليل فهمه للواقع السياسى الذى نتعامل معه، وهو الإجابة على هذا التساؤل: ما هى حقيقة التطور الذى تعيشه الإنسانية المعاصرة وعلى وجه التحديد منذ تلك الفترة التى بدأت تبرز من خلالها ملامح تفجر العروبة السياسية فى دلالتها الحديثة؟ الإجابة على هذا السؤال سوف تسمح لنا بطرح التساؤل الآخر: لماذا الخوف من المنطقة العربية ومن أهل هذه المنطقة؟

هناك حقائق ثلاث نستطيع أن نكتل حولها التطور الذى تعيشه الإنسانية منذ انفجار الثورة الفرنسية أو الثورة الكبرى، التى افتتح بها القرن التاسع عشر قصة الوجود المعاصر والتى لا نزال نعيش نتائجها، لقد عودتنا كتب التاريخ الحديث عن ثورة الإنسان ضد الظلم والعبودية، وعن الثورة التى أعلنت مبادئ الحرية والإخاء والمساواة وعن الانفجار الذى أعاد للإنسان كرامته وللفرد إنسانيته وللوجود الإنسانى معناه المثالى وجوهره النقى ومع ذلك فأين الحقيقة من كل ذلك؟ ومتى يخرج من أبنائنا من يكتب قصة التاريخ بلغة الوثائق فى معناها الحق يسجل الوقائع ويبرز الخفايا التى تعودنا

أن نمر عليها مر الكرام دون وقفة تأمل، ودون الغوص فى أعماق التطورات نسألها ونستلهم من ثناياها ما تواصت الأقلام الأوروبية على إحاطته بسياج من التجهيل؟

فلنتابع هذه الخبرة نستقرئ معالمها الرئيسة ونحن نحدد منها موضعنا:

أولا: حقيقة التطور الذى عاشته الأسرة الأوروبية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ـ بصفة خاصة ـ والذى ظل ولا يزال يسيطر على أغلب التطورات الدفينة التى يخضع لها المجتمع الذى ينبع من مفهوم واحد، رفض التقاليد الدينية وطردها من الحياة السياسية، جميع التقلبات التى خضع لها المجتمع الغربى لم يكن لها سوى معنى واحد: إلغاء الوجود الكنسى فى الحياة العامة وتقليص العلاقة بين الحاكم والمحكوم إلى مجرد رابطة مدنية لا موضع فيها لأى دلالة تستمد وجودها من أخلاقيات التعاليم المنزلة. فإعطاء «ما لقيصر لقيصر وما لله لله» ليس له سوى دلالة واحدة: إبعاد الدين وكل من يمثله من الحياة اليومية، وإكراهه على أن يصير وجودا رمزيا. ترى هل هى الديانة المسيحية التى لم تستطع أن ترقى بالإنسان الأوروبى إلى مصاف الرجل العربى فى شفافيته وتقديسه لمفاهيم الخضوع والطاعة للتعاليم الربانية؟ الحضارة الغربية تؤكد وبلا حياء منذ ما يسمى: عصر «حضارة النهضة» أن سعادة الفرد لن تتم إلا عندما يزيل عن جسده تلك الملابس الممزقة التى شوهت وجوده باسم الانتماء الدينى.

ثانيا: كذلك فإن التطور الفكرى الذى انتهى بالانفصام السياسى بين المجتمع الأوروبى الرأسمالى، والمجتمع الاشتراكى الشيوعى، لا يجوز أن يخفى الحقيقة المستترة خلف ذلك التناقض والتعارض، كلاهما حقيقة غربية، وكلاهما تعبير واستمرار للمفاهيم الغربية واللصيقة بحضارة عصر النهضة الأوروبى. إن ما فشلت فى تحقيقه الثورة الفرنسية هو الذى حققته الثورة الشيوعية، وما كانت اليسارية السوفياتية قادرة على أن تتكامل فى نظام سياسى متناسق، لو لم تقدم لها حضارة عصر النور والعقل «العقد الاجتماعى» كما صاغه «روسو» الفرنسى، من أين نبعت مفاهيم «كارل ماركس»؟ أليست التقاء وتفاعلا بين المدرسة الاشتراكية الفرنسية، والمعاناة العمالية البريطانية، وقد تبلور كل ذلك من خلال قنوات القومية الألمانية؟ استمرارية وترابطا يبرز أكثر وضوحا عندما تخلق العلاقة المنطقية بين هذه الملاحظة وما سبق وذكرناه، أليست الثورة الفرنسية وكذلك الثورة الشيوعية تنتهى بطرد المثاليات الدينية

من الوجود السياسى؟ وخلف ذلك تستتر حقيقة أخرى أشد خطورة: المادية المطلقة والمتحكمة فى كل ما له صلة بالسلوك الفردى والجماعى، إنها تنظير للوجود السياسى باسم الديالكتيكية فى المفاهيم الماركسية، ولكنها سلوك وممارسة باسم الرأسمالية فى تقاليد الحرية البورجوازية.

ثالثا: رفض التقاليد الدينية من جانب، وسيطرة النظرة المادية من جانب آخر، ثم اكتمال مفهوم القومية السياسية، بمعنى التفوق العنصرى من جانب ثالث. عناصر ثلاثة خلقت ذلك الإطار اللازم لسيطرة مفاهيم الغزو الاستعمارى فى التعامل مع الشعوب، إن الثورة الفرنسية التى قامت على أساس الحرية والإخاء انتهت برفع علم الظلم، والحضارة الغربية التى جاءت تخرج الإنسان من ظلام العصور الوسطى أدخلت الرجل غير الأوروبى فى دهاليز الاستبدادية والعبودية القانونية، والقيم الأووبية وهى تعلن عن عالمية الإنسان لم تفعل سوى أن تدمج حضارة العنصرية فى عنصرية الحضارة. إن جوهر القرن التاسع عشر، ليس فقط فى القطيعة الخفية مع التقاليد الدينية والأخلاقيات المثالية، بل هو أساس تلك العودة غير المعلنة إلى تقاليد الإلحادية «الرومانية» بما قدمت عليه من عنجهية القوة وسيادة مفاهيم التعصب. إن «شيشرون» الذى كان يزهو بقوله: «إننى رومانى ولست فى حاجة أن أتعلم من أحد»، أضحى هو قاموس القومية الفكرية الأوروبية، ومفاهيم «أرسطو» عادت لتتبوأ الصدارة، بدعوى حضارة عصر العقل والنور، وهكذا الفيلسوف اليونانى الذى يؤكد بطمأنينة وبساطة أن الطبيعة قصدت أن تجعل من البرابرة عبيدا، وليس على اليونانى سوى أن يحترم تلك القوانين. صاحب هذا الفكر جلس على مقعد الصدارة الفكرية، بل ونسى الفكر الأوروبى جميع المفاهيم الكاثوليكية التى قامت عليها نفس الحضارة الأوروبية، أين تعاليم القديس «بولس» من تأكيد المساواة بين أهل الكتاب وأولئك الذين لا يؤمنون؛ لأنهم رغم ذلك مرآة لعظمة الإله؟ وهكذا فإن الفشل الذى منيت به القيم الكاثوليكية مع الثورة الفرنسية مزدوج، ليس فقط فى رفض قدسية التعاليم المسيحية، بل وفى الانطلاقة نحو عصر الجاهلية الأوروبية، ولكن وقد أضفى على تلك الجاهلية رداء فضفاضا من المثالية المزيفة.

هذه المقدمات كان لا بد وأن تقود إلى مجموعة من النتائج، **أولها وأخطرها**: هو كيف أن حضارة القرن التاسع عشر قامت على مبدأ العنصرية، **سيادة الرجل الأبيض**

الذى تجمعت فى شخصه جميع عناصر السمو والارتقاء هى التى بررت وحددت جميع العلاقات السياسية بين القارة العجوز وباقى أجزاء العالم، أليس هو المتميز حضاريا وتاريخيا وعنصريا؟ إنه الرجل الأبيض الأوروبى الذى تجمعت فى تراثه جميع الحضارات الكبرى ـ اليونانية والرومانية والكاثوليكية.

فهل هذا التطور ـ بهذه الخصائص الواضحة ـ هو الذى عاشته المنطقة العربية؟ هل تطورنا القومى أساسه طرد الدين من حياتنا اليومية؟ وهل دلالة وجودنا هو سيادة المادة على أى قيمة روحية؟ وهل نحن عنصريون نؤمن بمفاهيم التفوق العرقى؟ أم أن تطورنا يملك منطقا آخر متميزا؟!

السؤال فى حاجة إلى إجابة واضحة وصريحة.

* * *

(١٩)

حول طبيعة القومية العربية وموضع الولاء الشعوبى

«نعم سوف أظل عربيًا».

نعم يا بنى، فالعروبة هى جزء من حياتى، وهى محور قناعتى، ومصدر فخرى وكبريائى وسندى فى الصراع الذى قبلته وتحملت ما يعنيه من مخاطر ومنازلات، إننى أعلم جيدا أننى أنازل خصوما لا يملكون من عناصر القوة إلا القليل، قوتهم الحقيقية هى ذلك الضعف الذى ألم بأمتنا فى لحظة معينة. ولكن هذا الضعف سوف ينقشع وعندئذ سوف تبرز صلابتنا التاريخية وإرادتنا القاهرة التى لا بد وأن تسيطر على قصة الوجود الإنسانى.

عندما تنظر يا بنى إلى الغابة فلا تقصر نظرتك على الشجرة التى أمامك ولكن عليك أن تمد بصرك لتحتضن كل ما حولك، هنا تكمن حقيقة الدلالة، أعداؤنا كثيرون وقد تعودنا الاستهانة بهم، وليست هذه من الحنكة السياسية، ووظيفة جيلنا هى أن يتعلم من أخطاء أولئك الذين سبقونا، نحن القوميين العرب قد آمنا بأن ما يجب علينا فى الوقت الحاضر هو فقط أن نبنى أمة جديدة قوية بعطائها، ثابتة بإيمانها، صلبة بترابط حاضرها بماضيها، كما ألقيت علينا الأوحال ولكننا سوف ننظر إلى ما حولنا بصمت واحتقار وكبرياء، وسوف نركز على أسناننا انتظارًا للحظة الانتقام، وهى قادمة، وعندئذ سوف يعرف كل منا من هو المنتصر الحقيقى؟ ومن هو الذى سوف يسجل التاريخ اسمه فى قائمة البطولة والشرف؟

العروبة السياسية هى رداء فكرى يغطى ويفسر كل ما له صلة بعلاقة من يقيم على الأرض العربية بذلك الوجود المعنوى المجرد، والذى تعودنا أن نسميه بالقومية العربية،

هو تطبيق من تطبيقات المفهوم القومى الذى ساد الوجود السياسى، وسيطر على جميع الحركات السياسية منذ الثورة الفرنسية وحتى اليوم، ولكنه رغم ذلك يملك خصائصه المستقلة والمتميزة، والذى يعطيه ذلك الرصيد الذى يجعل أى محاولة للتشبيه بين القومية العربية والقوميات الأخرى لغواً لا موضع له، وقد سبق وطرحنا أهم تلك الخصائص وجعلناها تدور حول حقائق خمس كل منها يضفى ذاتية واضحة على التطبيق العربى للمفهوم القومى:

أولا: فالقومية العربية قديمة تعود إلى قرابة عشرين قرنا من الزمان خلافا لأى قومية أخرى عرفتها الإنسانية المعاصرة.

ثانيا: وهى حقيقة كلية حيث البعد السياسى ليس سوى أحد مداخلها، فالقومية العربية حقيقة أخلاقية وحضارية واقتصادية وسلوكية فى آن واحد.

ثالثا: الوظيفة الحضارية للعروبة السياسية بدورها تقدم عنصرا آخر يختلف فيه المفهوم القومى بالحقيقة الدينية وهى الإسلام.

رابعا: كذلك فإن هذه العروبة تملك وزنا دوليا، واكتمالها لا بد وأن يؤدى إلى اختلال علاقة التوازن بين القوى الدولية، بما يعنيه من ضرورة إعادة تشكيل علاقة التوازن هذه.

خامسا: وهى بطبيعتها مركبة: إنها ـ أى المفهوم العربى للقومية السياسية ـ تحتضن العديد من الحقائق الاجتماعية التى قد تختلط بالبعد السياسى، والتى تتابع فى تصاعد مستمر، معبرة بهذا عن علاقة تبعية داخلية فى الترابط بين المفاهيم ذات نتائج عديدة وحاسمة.

فَهْم هذه الحقائق ضرورة أساسية للإدراك الواعى بطبيعة وخصائص العلاقة السياسية المترتبة على الانتماء القومى وحدود تلك العلاقة من حيث آثارها ونتائجها، وبصفة خاصة عندما يقدر لها الصدام أو أى علاقة اجتماعية أخرى. فلنقف قليلا إزاء أخطر هذه العناصر ونقصد بهذا العنصر الأخير:

■ **(أ)** العلاقة القومية فى صورتها التقليدية المتداولة، والتى عرفتها التقاليد الغربية الأوروبية وعنها نقلت إلى جميع الخبرات الأخرى المعاصرة هى علاقة بسيطة ومباشرة، بل إنها تستمد من هذه الصفة ـ أى من كونها مباشرة ـ منطقها وقوتها.

فالقومية عندما برزت فى المجتمعات الأوروبية وسادت التطورات السياسية كانت تقوم على مبدأ رفض أى علاقة أخرى من الممكن أن تزاحم العلاقة بين المواطن والدولة :

١ ـ فهى ترفض علاقة المواطن بالسلطات الأخرى أيا كانت صورتها، وتصل فى هذا إلى مبالغات سوف تخضع فى مرحلة لاحقة لنقد عنيف، فهى تلغى اللامركزية الإدارية من جانب وتحطم التجمعات المهنية من جانب آخر، بل تجعل من قيام التجمعات العمالية جريمة قد تصل عقوبتها إلى الإعدام. وهى تفرض على الكنيسة أن تتقوقع على نفسها وألا يكون لها أى تواجد سياسى، ومحور ذلك أن المفهوم القومى كما صاغه فقه السياسة فى بداية القرن الثامن يأبى تعدد العلاقات السياسية، أو التزاحم فى العلاقة السياسية بين المواطن والدولة، وأى علاقة أخرى. إنها علاقة وحيدة مطلقة مباشرة لا تعرف الوسيط ولا تقبل التعدد وترفض المزاحمة ولا تسمح بالتعايش وتأبى إلا عدم المنافسة.

٢ ـ وهى تبعا لذلك تجعل من وحدة النظم القانونية أحد مظاهر القومية السياسية، الوضع الداخلى لا يحتمل تعددا فى الحلول ولا يقبل تنوعا فى النظم، الدولة واحدة، والولاء واحد، والنظام القانونى واحد، والجزاء واحد لا يتعدد ولا يتنوع.

التقاليد العربية تنطلق من مفهوم متناقض، ومن ثم فهى تختلف من حيث جوهرها إنها تحقق الوحدة من خلال التعدد. فالوحدة السياسية، وتبعا لذلك العلاقة القومية، لا تمنع من تعدد علاقات المواطن بالدولة، وبالمجتمع السياسى، ولكن كل علاقة يجب أن يكون لها مستواها، وأن تتحدد على هذا الأساس حدودها ومدى فاعليتها، ومن هنا تبرز حقيقة التداخلات بين عناصر الجسد السياسى.

أولا : فهناك العلاقة الطائفية، والتى تنبع من العلاقة الدينية بين المواطن والطائفة الدينية التى ينتمى إليها كل مواطن يملك انتماءه الدينى، والانتماء الدينى قناعة وإدراك و«الأمة الإسلامية» تتكون من العديد من المذاهب والفرق، كذلك فمقتضى التسامح الإسلامى هو ترك المواطن حرا فى قناعته، ومن ثم فى عقيدته، لكم دينكم ولى دين، ومن ثم الانتماء إلى غير دين الأكثرية إنما تتقبله التقاليد العربية، فمفهوم التسامح الإسلامى يسمح بالاحتفاظ بدين الآباء وبأن يكون لذلك نتائجه على أن ذلك الولاء الطائفى قاصر على العلاقة الدينية المقيدة بذلك الانتماء الطائفى، بحيث لا يرتفع ذلك

الولاء إلى حد التعارض أو التناقض مع العلاقة الكبرى التى تربط المواطن بالأمة والجسد السياسى، إنها مقيدة بمجموعة من القواعد التى تكاد تعبر عن ذلك، الذى نسميه اليوم بالنظام العام، أى مجموعة القواعد التى تمثل الحد الأدنى للتماسك السياسى بين عناصر الجسد الكلى بغض النظر عن التنوع الطبقى أو الفئوى أو الطائفى.

ومعنى ذلك:

١ ـ إن الممارسات المرتبطة بالطقوس الدينية يجب أن تتم بحيث إن أحيطت بعلانية معينة لا تؤدى تلك العلانية إلى خدش الحياء العام لمجتمع تسوده مفاهيم وقيم السيادة الإسلامية.

٢ ـ إن الولاء الطائفى يظل دائما فى نطاق العلاقة الدينية المرتبطة بالتبعية للطائفة الدينية لا تتعداها، وبحيث يجب أن ينصهر ذلك الولاء فى خاتمة الأمر فى تلك العلاقة الأكثر اتساعا، والتى تضم وتحتضن الوجود الطائفى ذاته، أى علاقة الأمة.

ثانيا: ثم هناك العلاقة الشعوبية، الدولة العربية لم تقم على أنقاض المجتمعات الأخرى، لم تحطم لتبنى وإنما جاءت لتكمل البناء، اعترفت بما قدمه السابقون طالما كان لا يتعارض مع مبادئها، وسارت على الدرب الذى سلكه من سبقها من بناة الأمم والشعوب، قراءة البيرونى عامرة بالتعاليم بهذا الخصوص وهى تلك الدولة العربية يعترف فقهها حتى بالتشريعات السابقة على نظامها القانونى. مفهوم «شرع من قبلنا» ليس مجرد كلمة تُطلق، ولكن نظام متكامل فى الفقه التشريعى الذى أقام صرحه بناة الشريعة الإسلامية، وهى لذلك قبلت تقاليد وتراث الحضارات الأخرى التى سادت الشعوب التى غزتها، هذه العلاقة الشعوبية لا تعنى أكثر من درجة من درجات الولاء الاجتماعى للخلية الأولى التى ينتمى إليها المواطن، ولكن هذا الولاء الاجتماعى يجب أن ينصهر فى ولاء أكثر اتساعا وهو الولاء السياسى القومى، حيث تصير العلاقة وقد اتسعت لتحتضن جميع أجزاء الأمة العربية.

ومن ثم:

١ ـ علاقة الولاء الشعوبى بدورها علاقة تابعة تتحكم فى جميع عناصرها علاقة الولاء القومى حيث تتحدد العلاقة بأنها ولاء للأمة.

٢ ـ علاقة الولاء الشعوبى رغم ذلك تمثل درجة أكثر علوا من الولاء الطائفى، بحيث إن هذه الأخيرة تتبع وتنصهر فى دائرة الولاء الشعوبى ولا تتجاوزه.

ثالثا: ثم يغلف كل ذلك ويضمه ويحتويه الولاء القومى: ولاء لأمة وليس لشخص الحاكم، ولاء كلى ومطلق فهو من جانب يضم ويحتوى جميع أنواع الولاءات الأخرى ومن جانب آخر لا يعرف أى قيد أو استثناء.

■ **(ب)** مفهوم الولاء القومى وعلاقته بالولاء الشعوبى يثير مفهوم الشخصية الحضارية، هذا المفهوم ـ الشخصية الحضارية ـ كثيرا ما يطرح على أنه تعبير عن تعارض، إن لم يكن هدما للمفهوم القومى أو للعروبة السياسية، والنموذج الواضح بهذا الخصوص هو مصر، وإن كان الموضوع قابلا لأن يثار فى أكثر من تطبيق واحد.

ما معنى الشخصية الحضارية؟ وهل استقلال الشخصية الحضارية يعنى رفضا للقومية العربية؟

كلمة الشخصية الحضارية اصطلاح يبرز أساسا من خلال المناقشات العديدة حول حقيقة العلاقة بين مصر الفرعونية ومصر العربية، هل نحن بصدد نموذجين كل منهما مستقل عن الآخر؟ أم أننا إزاء واقع واحد يعكس استمرارية ثابتة تؤكدها تلك الطبيعة المتميزة التى تملكها مصر كشخصية حضارية؟ المشكلة ـ وكما سبق وذكرنا ـ يمكن أن تثور بدلالات مختلفة بصدد أى مجتمع شعوبى فى الوطن العربى، حتى تونس ورغم استئصال وجودها الحضارى فى القرن الثانى قبل الميلاد من الجانب الرومانى، فإن تاريخها السابق على الفتح العربى يملك تلك الذاتية المستقلة التى تسمح له بطرح مثل هذا التساؤل. عودة إلى كيف أثير هذا الاستفهام، ومن خلال استقراء أدبيات الفكر السياسى، وبصفة خاصة كتابات طه حسين وردوده المعروفة أثناء حكم جمال عبد الناصر، وعقب الانفصال بين مصر وسورية، فإننا نستطيع ـ بقناعة كاملة ـ أن نؤكد حقيقة أساسية: الفتح العربى هو تعبير عن صفحة جديدة فى تاريخ المنطقة، حيث حدث انصهار حضارى من جانب، وبلورة لوظيفة قيادية من جانب آخر فى نموذج جديد للوجود السياسى، لم تقتصر نتائج الفتح على تغيير اللغة واستقبال وسيادة نظام جديد للقيم، بل تعدى ذلك حتى لمظاهر التعامل الحركى مع مختلف أجزاء الجسد والكيان المصرى كحقيقة متكاملة، فعاصمة مصر لم تعد تقبل أن تتمركز على شاطئ

البحر المتوسط كما كانت فى عهد البطالسة وأضحت تأنف أن تهرب إلى أعالى الصعيد كما كانت تقاليدها الفرعونية، وإذا بها تتحرك إلى وسط الجسد حيث الالتقاء بين الدلتا والصعيد، لأنه هذا الموقع هو الذى يعنى من جانب آخر اللقاء الحقيقى بين المشرق العربى والمغرب العربى.

من الذى فى مصر ـ ومنذ الفتح العربى حتى اليوم ـ يشعر بأن أجداده الحقيقيين هم الفراعنة؟ من يعرف اللغة الفرعونية؟ من يتحدث ويعود إلى النصوص الفرعونية؟ وبصفة خاصة فى الفترة الحديثة، عندما غزا نابليون مصر، من ذا الذى كان يتذكر أن الفراعنة هم أجدادنا وأجداد أهل هذه المنطقة؟ ألم تكن اللغة مجهولة كلية حتى عثر على حجر شامبليون وأمكن فك رموزها؟ مما لا شك فيه أن مصر هى استمرار للتاريخ الفرعونى. ولكنها عقب الفتح العربى أضحت تمثل شخصية مستقلة انقطعت علاقتها التاريخية بما سبقها أو تحددت، بل إن هذه العلاقة لم تنقطع فجأة. إن التطورات التى سبقت هذا الفتح وخلال ما لا يقل عن خمسة أو ستة قرون إنما تتابعت بالأحداث لتعد مصر للدور الجديد الذى كان على مصر أن تلعبه. مصر الفرعونية المنغلقة على نفسها أضحت مصر العربية التى فتحت ذراعيها تقود وتوجه الأمة العربية، استمرارية منطقية ووظيفة إقليمية جديدة، وعى وضمير جماعى بتلك الحقائق.

والخلاصة أن الشخصية الحضارية مفهوم لا يتعارض مع المفهوم القومى للعروبة السياسية، تصور عكس ذلك هو تعبير عن خطأ فكرى وقع فيه طه حسين وأمثاله.

ماذا تعنى الشخصية الحضارية؟ إنها تعبير عن تضافر وانصهار حقائق ثلاث أساسية:

أولا: وظيفة إقليمية.

ثانيا: استمرارية تاريخية.

ثالثا: وعى وضمير جماعى.

الوظيفة الإقليمية ويقصد بها أن منطقة معينة أو كيانا معينا لا يستطيع أن يحقق ذاته إلا من خلال القيادة الفعلية لإقليم معين، حيث بقدراته وبموقعه يكون قادرا على أن يكتل ذلك الإقليم خلف قيادته، استمرارية تاريخية تعنى أن المتغيرات الجغرافية

والديموغرافية لتلك الوظيفة الإقليمية إنما تنبع من ذلك الواقع المكانى وخصائصه، وأنها بهذا المعنى لتتكامل لا بد وأن تمر عبر مراحل متعددة.

الوعى والضمير الجماعى يدور حول القيادة القادرة على الشعور بوظيفتها وتحمل مسئولياتها، مصر بهذا المعنى لم تملك وظيفتها الحضارية إلا فقط مع الفتح الإسلامى ومع الالتقاء العربى، بل إنها كان عليها أن تنتظر قرابة ستة قرون قبل أن يقدر لها الإطار الذى يسمح لها ويفرض عليها أداء تلك الوظيفة، مصر فى العهد الفرعونى لم تكن تؤدى أية وظيفة إقليمية: إنها متقوقعة على نفسها، إنها سيدة الكون فى عظمة وشموخ، ولكن باستعلاء وعنصرية، العالم من حولها لا يعنيها لأنها غنية وسط عالم فقير، متقدمة وسط عالم متخلف، كبيرة وسط عالم صغير، عقب الفتح العربى تحولت مصر إلى أحد أقاليم الإمبراطورية الجديدة، وظلت كذلك حتى سقطت بغداد، فكان هذا إيذانا بتحول الراية التى تحملها القيادة العربية من أقصى المشرق إلى قلب القلب، المجتمع العربى الذى كان يعلم بوعى جماعى لم يستطع أى فيلسوف سياسى أن يعبر عنه أن قوته فى تماسكه، وأن مصدر سيادته هو مبدأ التضامن. قدم فى تاريخه خلال القرون الأولى نموذجا واضحا لتلك الحقيقة، فالراية التى تحملها اليد العربية تنقلت بين عواصم القلب تبعا لكل موقف وهذا التنقل هو الذى أعد مصر لوظيفتها الإقليمية. بدأت القيادة فى عهد الرسول ﷺ فى وسط شبه الجزيرة، ثم انتقلت مع معاوية لتطل على البحر الأبيض المتوسط إيمانا بخروجها لعالم الحضارات الكبرى، وعقب ذلك انتقلت إلى بغداد، والإرادة العربية تتجه للفيضان فى الأرض الملحدة وسط آسيا، ولكن عندما برز الخطر واضحا عقب غزو «هولاكو» لبغداد، ودخلتها جحافل التتار كان لا بد وأن تنتقل هذه القيادة إلى القاهرة، وكان لا بد وأن تتصدى القاهرة إلى مخاطر الاستئصال للحضارة العربية، ومنذ تلك اللحظة فقط تبلورت الوظيفة الحضارية الإقليمية لمصر العربية.

ولكن متى نستمع إلى صوت التاريخ؟!

* * *

(٢٠)

القومية العربية وصراع المدركات

«نعم سوف أظل عربيّا».

نعم سوف أظل أصرخ وأردد هذه الكلمات، ورغم أننى أعلم منذ البداية أنها تفرض علينا أن نعيد تركيب المفاهيم، وتحديد المنطلقات الفكرية بحيث يستطيع القارئ أن يتابع هذا التصور، وأن تترسب فى وعيه وضميره القناعة، ليس فقط بأن العروبة والإسلام هما وجهان لحقيقة واحدة، بل ولأن قيم العروبة إن هى إلا لغة تتفاعل وتتبلور من خلال القيم الإسلامية، إن أرض الأديان التى خلقت حضارتها المتميزة لم تفصل فى واقع الأمر بين القيم الإسلامية والقيم غير الإسلامية فى نطاق التراث العربى، أو بعبارة أكثر دقة، فإن تلك القيم هى التى خلقت قنطرة الاستمرارية والاتصال ما بين التصور الإسلامى والتصور غير الإسلامى، بحيث أضحى التصور غير الإسلامى لا يعدو أن يكون نموذجا آخر لقيم الممارسة العربية. ولكن دائمًا من منطلق التفاعل بين العروبة والإسلام فلنذكر مرة واحدة حقيقتين يجب أن يقف إزاءهما كل مفكر، وأن يراجع نفسه فى حساب عسير وبوضعية مطلقة، وبحياد لا يقبل الاستثناء. كل من يتصدى للعروبة السياسية فى أى ممارسة لتحديد دلالتها ومقوماتها:

أولا: المسيحية دين عربى، وقيم المسيحية الشرقية إنما تنبع فى حقيقتها وجوهرها من ذلك التفاعل بين العروبة والإسلام. وإذا كانت الكاثوليكية تقف منا موقف المعارضة والتناطح فلأنها صبغت منطقها بفلسفة التعامل الغربى، ولنتذكر أيضا بهذا الخصوص كيف أن الكاثوليكية رغم ذلك فشلت فى تعاملها مع الحضارة الغربية، الثورة الفرنسية طردت الكنيسة من الحياة السياسية، وأكرهتها على العودة إلى الأديرة

تلعق جراحها طيلة القرن التاسع عشر، وإذا كان البابا فى روما بإعلانه المشهور باسم «الأشياء الجديدة» خرج من تلك العزلة فى نهاية ذلك القرن، فهو إنما قد خرج ليلبس رداء التعامل السياسى الأوروبى، وليس ليعود للتقاليد الحقيقية للكنيسة فى عصرها الذهبى.

ثانيا: وكما حدث هذا فى التراث الكنسى حدث أيضا فى التاريخ اليهودى، المجتمع اليهودى لم يعرف الإيناع الحقيقى إلا فى مجتمعات عربية وإسلامية، أقصى إيناع له كان فى الأندلس، ثم فى الدولة العثمانية، العروبة فتحت له صدرها، وكان وسيطها فى التعامل مع الثقافة الأوروبية خلال حضارة العصور الوسطى، على العكس من ذلك ما إن قدر لهذه اليهودية أن تعايش المجتمع الأوروبى إلا وانتهت بالفشل، بل والفشل المخيف، لم تستطع أن تخلق إطارها السياسى، وجاءت الصهيونية لتكتب أسوأ صفحات ذلك التاريخ.

إن الصهيونية ما هى إلا التقاء بين التعاليم اليهودية والتقاليد الغربية والتعصب العنصرى، الذى هو وليد التراث الأوروبى القديم، وبصفة خاصة الممارسات الرومانية والمفاهيم التيوتونية. هذه الروافد هى وحدها التى شكلت المنطق اليهودى المعاصر باسم الصهيونية السياسية.

رغم ذلك، فهناك من أبنائنا ومن ينتمى إلى عروبتنا بالوجود العضوى، من جعل وظيفته أن يسىء إلينا وأن يؤدى دوراً خسيسا أعدته له طبيعته ليصير عنصراً مخربًا فى جسدنا. لقد مضت علينا فترة كنا نتحرز فيها من أن نهاجم إخوتنا فى العروبة، ونحن نؤمن بأنه سوف يأتى يوم يعودون فيه إلى منزل الآباء، ويعلنون التوبة طالبين المغفرة، ولكن هذه اللحظة قد انتهت، لقد أضحى واجبا على كل قومى أن يرى تلك العناصر وأن يحاصرها، بل وأن يسحقها بلا رحمة، إنها وصمة فى جبين أمتنا ويجب أن تحاكم مرتين: الأولى أمام محكمة الرأى العام ليحتقرها، والثانية أمام محكمة القضاء ليستأصلها، عندما كتب أحد علماء الإسكندرية كتابه المشهور «حصوننا مهددة من الداخل» لم تكن صيحته إلا تعبيراً عن ذلك الواقع، علينا أن نعى جيداً حقيقة قدراتنا وحقيقة خصومنا، وما ينطوى تحت هذا المفهوم، وينبع منه البعد الدولى لمفهوم القومية العربية.

■ (أ) القومية العربية لا يمكن أن تكون سوى ظاهرة تلك أبعادها الدولية: الأسرة العربية فى سعيها نحو وحدتها القومية والعروبة السياسية فى إرادتها الثانية نحو تحقيق تكاملها الوظيفى، وبغض النظر عن الأصول التاريخية لتلك الوظيفة العالمية التى عهدت بها العناية الإلهية للأمة العربية، لا يمكن إلا أن تؤدى إلى اختلال حقيقى فى جميع التوازنات الدولية المعاصرة. هذا الاختلال الذى يعنى إعادة تشكيل الأوضاع المحيطة بالوطن العربى، تعى به جيداً القوى الكبرى وتفهم بوضوح نتائجه، وهى بذلك تقف من تلك الوحدة موقف التربص والحذر الذى أساسه واحد من اثنين:

إما منع الوحدة من أن تتحقق، وإقامة جميع العراقيل فى سبيل تحقيقها، وإما قيادة عملية الوحدة بحيث تنتهى بأن تطوع النموذج الأول وهو الأكثر تكراراً وهو الذى نعيشه فى هذه اللحظة، والذى يسيطر على الإدراك الأمريكى، ولكن النموذج الآخر بدوره له تطبيقاته وأحد أهم تلك التطبيقات هو ميثاق جامعة الدول العربية.

هذه الملاحظة فى حاجة إلى الكثير من التفصيل ولكنها كافية كذلك لأن نفهم الكثير من الأحداث التى تحيط بنا وتتحكم فى مصيرنا، أول ما يجب أن نذكره هو أن الأمة العربية منذ وجودها فرضت عليها وظيفة قيادية، وهى بهذا المعنى دعيت لأن تجعل من مفهوم الجهاد أحد العناصر الأساسية لفلسفتها فى الوجود والحياة. مما لا شك فيه أن التطور الطبيعى للأمة العربية ـ وبصفة خاصة فى أعقاب الدولة الأموية ـ أصابه الكثير من الاضطراب، مفهوم الجهاد تلون بعناصر جديدة للإدراك السياسى أفقدته فاعليته الحقيقية. وأحد هذه العناصر مبدأ الدولة العالمية وسيطرت مفاهيم الشعوبية والتخلى تدريجيّا عن عنصر الولاء القومى، كمحور ثابت لعلاقة التماسك بين أجزاء الجسد السياسى رغم ذلك فقد ظلت الدولة العباسية الأولى وهى تؤمن بأن واجبها الأساسى هو نشر الدعو،ة وجعل مفهوم الترابط محوراً أساسيا لاستيعاب مختلف أجزاء وسط آسيا، الدولة العباسية لم تتجه إلى أوروبا؛ لأن هذه يسودها الكتاب. والإسلام لا يقبل أن يعلن الجهاد إلا ضد الكفار. وهكذا أطلت بغداد على أرض فارس، ومنها انطلقت فى سهول وسط آسيا. هذه الوظيفة عندما انتقلت عقب ذلك إلى القسطنطينية، وتلونت بمفهوم الدولة العثمانية كانت إيذانا بانتهاء ـ ولو مؤقتا الوظيفة القيادية للعروبة السياسية. عودة الإيناع بالمفهوم القومى فى الوطن العربى إنما يعنى

عودة أيضا إلى الأصول الحقيقية لمفهوم الجهاد. ورغم أن الفكر السياسى العربى لا يزال قاصرا عن فهم هذه الحقيقة، بل ويصر على تجاهلها إلا أن الفكر السياسى الأوروبى وبصفة خاصة الفكر الصهيونى يعلم جيداً أن مستقبل هذه العروبة يرتبط ارتباطا جذريا بعودة مفهوم الجهاد ليصير علما على المفهوم القومى للوجود السياسى فى الأرض العربية.

مثل هذه القناعة تنبع منها أكثر من علامة استفهام واحدة. أولى هذه العلامات هى التساؤل: لماذا الربط بين مفهوم الجهاد والعروبة السياسية؟

الإجابة واضحة ولكنها فى حاجة إلى التقنين. فالعروبة السياسية هى جسد روحه الإسلام، والإسلام هو وظيفة أداتها العروبة. العلاقة بين العروبة والإسلام هى علاقة بين قيادة ومثالية، فالعروبة هى تلك القيادة التى حققت المثالية، والإسلام هو تلك المثالية التى مكنت القيادة من أن تؤدى وظيفتها. العلاقة بين الإسلام والعروبة هى علاقة تاريخية ووظيفية فى آن واحد. فالإسلام مكن المجتمع العربى من تحقيق وحدته، ومن خلق نظام خاص للقيم خلق أداته القيادية، ولكن العروبة هى وحدها التى استطاعت أن تحمل راية الإسلام خفاقة، ولو فى مرحلة معينة، بهذا المعنى فإن التلاحم بين العروبة والإسلام هو أقصى درجات القوة للعلاقة بين القيادة والوظيفة، ومن ثم حيث توجد عروبة دون إسلام فإن المثالية تتقلص، وحيث يوجد إسلام دون عروبة فإن فاعلية القيادة بدورها تتقلص، وهكذا فى دائرة التعامل الدولى للإدراك الإسلامى، فإن منطقة القلب هى حيث تتكتل وتتضافر الوظيفة والقيادة، أى المثالية وأداتها السياسية، ولكن حيث نبعد عن هذا التفاعل حيث يوجد إسلام دون عروبة أو توجد عروبة دون إسلام، فلا بد وأن نصطدم بانهيار القدرة على التعامل. وإذا كان العالم المعاصر لا يعرف عروبة دون إسلام، فإنه يعرف إسلاما دون عروبة، هذا النموذج هو مستوى ثانوى للتعامل مع المثالية السياسية، التطورات المعاصرة فى لبنان قد تطرح لو قدر لها النجاح الذى يخطط له نموذجا آخر، سوف تعايش عروبة دون إسلام، ولعل التساؤل الثانى الذى لا بد وأن نطرحه هل فهم ذلك أولئك الذين ينتمون إلى عروبتنا الإسلامية وهم يساندون ما يحدث فى لبنان من مذابح وتقتيل جماعى؟

■ (ب) هذه الحقائق فهمتها بوضوح الصهيونية، وقبل ذلك فهمها الفكر السياسى الغربى، الفكر السياسى للحروب الصليبية إنما انطلق من مفهوم الجهاد. وقد أراد فى لحظة معينة ـ تميزت بالضعف العربى والتفتت القيادى فى الوطن العربى ـ أن يضع حدا لكل ما تمثله العروبة السياسية من مخاطر، وقد استطاع الاستعمار الغربى الكاثوليكى ورغم فشله فى أن يقتطع من أرض العروبة أى جزء من أجزائها لحسابه، وأن يزيد من تفتت المفهوم القومى للدولة العربية، هذا التفتت الذى بدأ مع نهاية العصر العباسى الأول وظل فى تصاعد مستمر بفضل طغيان المفهوم المملوكى، اكتمل بالحروب الصليبية؛ لأن هذه الحروب أعادت تشكيل نظام قيم التعامل، وفرضت على المنطقة مفهومًا وإدراكًا دينيًا مستقلا عن التماسك القومى. ورغم أن مفهوم الحروب إن هو إلا استقبال لمفاهيم الجهاد الإسلامى، إلا أن إعادة صياغتها بالتصور الكاثوليكى أعطاها دلالة مختلفة مهدت بدورها لقياد الدولة القومية الأوروبية، ليس فقط بمعنى الدولة العنصرية، ولكن كذلك بمعنى الدولة الاستعمارية.

كل هذا يقودنا إلى مفاهيم الصهيونية، إن الصهيونية فى جوهرها ليست إلا صياغة يهودية للفكر الكاثوليكى، كما تبلور من خلال الخبرة الاستعمارية والعنصرية الغربية، ليصير منطلقا لتحطيم التكامل القومى العربى خلال النصف الثانى من القرن العشرين. لا نريد أن نتطرق إلى الصهيونية السياسية، فليس هذا موضعه، ولو مؤقتا، ولكن ما يعنينا أن نذكر به، يدور حول ملاحظتين أساسيتين، على كل قيادة عربية واعية أن تفهم معنى كلٍّ منهما:

أولا: إن الصهيونية لم تكشف فى أى مرحلة من مراحل تطورها عن أهدافها الحقيقية إلا بقدر محدود، وإنها دائما تخفى أهدافا وتعلن أخرى، وهى اليوم لا تختلف فى خصائصها منها بالأمس، وعلى القيادات العربية أن تسعى جاهدة لتكشف حقيقة تلك الأهداف بأدواتها ووسائلها.

ثانيا: كذلك فإن الصهيونية تعيش اليوم أزمة حقيقية، فكرًا وتطورًا سياسيًا. هذه الأزمة ليس مردها فقط التمزق الداخلى فى المجتمع اليهودى، بل مردها أيضا قوة وصمود القومية العربية، الذى ساهم بدوره فى هذه الأزمة، نعم نحن أول من يدرك: بأن الإرادة العربية لم تتماسك بعد، وبأن معظم القيادات العربية لم ترتفع بعد إلى

مستوى المسئولية، وبأن القدرات العربية لم تستغل إمكانياتها الحقيقية، وأن المآسى التى عشناها ولا نزال نعيشها لم تنته، ولكننا نعلم أيضا ونؤمن بأن ما قدمته الثورة العربية كثير، وما سوف تقدمه أكثر؛ لأن الزمن يعمل لصالح هذه الأمة، وأن الغد يحمل الكثير من المفاجآت.

■ **(جـ)** والخلاصة التى يجب أن نقف بإزائها بكثير من الاهتمام، هى أن معظم القيادات العربية غير واعية بأهمية المنطقة، ومن ثم فهى لم تدرك بعد حتى اليوم مدى خطورتها على القوى الدولية، ومدى تصميم تلك القوى على منع القومية العربية من التكامل، هل تريد أن نقدم بعض النماذج والأمثلة؟ ألم يُضرب محمد على ـ عقب أن استأصل على بك الكبير فى أولى محاولات جادة لإنشاء الدولة العربية الموحدة منطلقة من وادى النيل ـ بضربة مجهضة من الخارج، وعندما اتجه الخديوى إسماعيل ليبنى قاعدته فى إفريقيا متصوراً أنه بهذا يبتعد عن الصدام مع القوى الرأسمالية الغربية فإذا به يصطدم بنفس تلك القوى فى صورة أكثر عنفا وأشد قسوة؛ لأن هذه القوى استطاعت أن تتغلغل فى داخل الجسد المصرى وأن تتحكم فى الاقتصاد القومى!.

ومن الذى قضى على الثورة العرابية، الأمر الذى مهد للاستيلاء على أرض الدولة القائد، وحقق فصله عن الجسد العربى؟ وهل هناك خلاف فى التعامل مع مصر الثورة العرابية ومصر السادات؟ مبادئ ثلاثة عملت الإرادة الأجنبية لتحقيقها: عزل مصر عن الشعب العربى، وعزل الشعب المصرى عن قيادته الحقيقية، وتمكين أحقر العناصر فى المجتمع المصرى من الوصول إلى سلطة الممارسة وممارسة السلطة. ومن الذى ضرب جمال عبد الناصر؟ ألم تكن الدولة العظمى الأولى، من خلال مساندتها لأداة الإمبريالية فى المنطقة؟ وهل قصة الانفتاح المصرى مع أنور السادات تختلف بدورها عن قصة التحديث فى فترة حكم الخديوى إسماعيل؟

على أن أكثر نماذج محاولة التحكم فى الجسد العربى هو الذى حدث وتتوالى فصوله أمام أعيننا بصدد الاستئصال العضوى للوجود الفلسطينى. المشكلة الفلسطينية هى أحد عناصر المشكلة القومية العربية. والتمزق الفلسطينى هو تعبير عن فشل العروبة السياسية، واستئصال الوجود الإسرائيلى هو محور يجب أن يبرز واضحا فى أى برنامج للقومية العربية. كيف من ثم حدث ذلك الذى نعاصره بصدد استئصال

الوجود الفلسطينى؟ لا نريد أن ندخل فى متاهات الجزئيات، ولكننا ونحن نريد بناء الإطار الحركى للتعامل مع القومية، ولإبراز الأخطاء التى وقعت فيها القيادات العربية علينا أن نذكر بالحقائق عندما بدأت موجة الانفتاح المصرى على الجانب «الإسرائيلى» كان على القيادات العربية أن تفهم معنى ذلك، وأن تعلم أن واجبها لم يكن أن تبعثر جهودها فى مزايدات وأحاديث صالونات، وإنما أن تقف صفا واحدًا لمنع الفرقة، المخطط «الإسرائيلى» كان يقوم على فكرة بسيطة واضحة: إبعاد قوى القلب عن القدرة على التعامل مع منطقة القلب، قوى القلب هى مصر والسعودية وسورية والعراق، لقد أبعدت إسرائيل مصر باتفاقية كامب ديفيد، وبصفة أساسية بفضل المساعدات الأمريكية، وأبعدت السعودية بتحالفها العلنى والسرى مع الولايات المتحدة، وأبعدت سورية بفضل أخطبوط عميق العناصر، متعدد الأساليب وقعت فيه القيادة السورية بلا تدبر، وقد بدأ ذلك مع التدخل فى لبنان، وقد ظل التورط فى تصاعد مستمر حتى وصل إلى قمته فى مذابح تل الزعتر أولا، ثم فى مجازر صبرا وشاتيلا ثانيًا. واكتملت الحلقة بفرض الحرب على العراق. وإذا أبعدت القوى الأربع ـ منطقة القلب ـ لم يبق إلا تصويب السهم واستئصال الجسد الفلسطينى.

وهذا ما يحدث أمام أعيننا ونحن صامتون غير قادرين على الصراخ، إن الصراخ فى تلك اللحظة يصير جريمة بالمعايير الدولية، كيف نعلن استياءنا، ودماؤنا تسيل أنهارًا؟ إن علينا أن نموت وأن نُذبَح بدون أن تلوث أيدى قتلتنا!.

هذه هى العدالة المتمدينة.

ولكن ألم يقل المثل الإنكليزى «إن من يضحك حقيقة هو من يضحك أخيرًا» وإن غدًا لناظره قريب!.

* * *